Résumé

Cette thèse s'intitulée «ELAHADITHS–ELKOUDOUSSI du point de vue de linguistique pragmatique – Dhikr et Douaa MODELE– » La Présente étude se compose de trois chapitre ; un théorique ,deux pratique, en plus de l'introduction une préface, la conclusion , et de l'annexe contenant la partie de «DHIKR et DOUAA»

Le premier chapitre est consacré a l'aspect théorique et spécialement aux définitions de la linguistique pragmatique et fondements philosophique, et j'ai évoque un nombre de chercheurs, tel : PIERCE, JAMES ,MORIS ,AUSTIN, SEARLE , GRICE….l'objet de cette étude c'est la fonction du sens dans l'usage et elle s'intéresse à la relation entre le locuteur et l'auditeur et l'influence du discours sur ces récepteurs , et leurs réactions.

Et j'ai souligné les plus importants concepts de la pragmatique, comme les déictiques, et le présupposition et l'implication conversationnelle, et les actes de parole ainsi que l'argumentation et j'ai souligné les caractéristiques de la pragmatique dans l'héritage Arabe.

Le deuxième chapitre j'ai choisie pour L'analyse un nombre de HADITHS KOUDOUSSI, et je me suis appuyé sur les cinq modèles de SEARLE de l'acte linguistique à travers sa force illocutionnaire, car il est appuyé sur une théorie scientifique claire.

Le troisième chapitre est consacré au coté pratique de l'étude de l'acte illocutionnaire dans les HADITHS KOUDOUSSI, et sa valeur dans la linguistique pragmatique, qui peut être considérée comme sa règle essentielle suivant la vue d'AUSTIN.

Enfin j'ai cerner ses principes caractéristiques qui consolide sa force; déictiques, affirmation, condition, répétition, l'appel et le serment…et j'ai présentés son objectif , qui est le but de la théorie pragmatique .

الحلف

الفصـل الأول

التداوليـة: أصـولـها الفلسفيـة واللسانيـة

اللسانيات التداولية

أظهر اللغويون المتخصصون اهتماما بارزا بالقضايا اللسانية منذ أقدم العصور، وكان هذا الاهتمام محكوما بمتطلبات الحياة الاجتماعية، فكان تطلعهم إلى معرفة اللغة ولاسيما الشكل الذي سجلت به، فانبرت كل أمة تعرض لغتها بما تحمل من سمات تخولها أن تكون اللغة النموذجية التي يحتذى بها في الدراسات اللغوية، واجتهد علماؤها لتأسيس النظريات العلمية ووضعوا لها المؤلفات العديدة دفاعا عن أفكارهم وترويجا لها، إلا أننا لم نر قبل القرن التاسع عشر منهجا علميا للسانيات، ولا تميزا معرفيا لها مثل ما هو موجود في عصرنا الحالي، فظهرت المدارس اللسانية بداية القرن العشرين، ففي أوربا نجد مدرسة جنيف التي وضع أسسها فردنان دي سوسير Ferdinand De Saussure (1857-1913) ومدرسة كوبنهاجن التي أرسى قواعدها لويس يلمسليف Louis Hyelmslev، ومدرسة لندن التي ترأسها فيرث J.R.Firth، أما في أمريكا فبرزت التيارات اللسانية الهامة كاللسانيات الوصفية والبنيوية لبلومفيلد Bloomfield،و هاريس Haris والقواعد التحويلية لتشومسكي Chomsky، وعلم الدلالة عند ريتشردز وأوغدن Richars et Ogden وغيرهما....

ونتج عن هذه المدارس والتيارات نظريات ومفاهيم لغوية متباينة أدت إلى ظهور تيارات لسانية جديدة كاللسانيات التداولية، وهو تيار تجاوز النمط المعرفي القائم على فن الإقناع والفصل بين الكلام والعمل، و قد توصل إلى أن هناك أفعال الكلام (Actes de parole) تنشئ عملا أو حدثا حين نطقها فأصبح يعني بالبعد الإستعمالي للغة، فيدرس ظواهر اللغة باعتبارها كلاما يستعمله شخص ما في مقام ما لأداء غرض معين .

فتأثر الدرس اللغوي في أيامنا باللسانيات التداولية رغم جدتها وعدم امتلاكها حدودا واضحة .

كما أن الأبحاث والمؤلفات حاولت أن تجد في رحابها أجوبة لكثير من الأسئلة مثل: " ماذا نصنع حين نتكلم ؟ وماذا نقول بالضبط حين نتكلم ؟

ومن يتكلم ؟ وإلى من نتكلم ؟ ومن يتكلم ومع من ؟ ومن يتكلم ولأجل من ؟ ماذا علينا أن نعلم حتى يرتفع الإبهام عن جملة، أو أخرى ؟ ..."[1]

ونرى أن هذه التساؤلات هامة جدا في مجال تحليل الخطاب Analyse du discoure والهدف من كل هذا هو كيف يمكننا أن نجعل من الخطاب رسالة تواصلية ناجحة .

وقد تضافرت جهود العديد من الفلاسفة واللغويين لتحقيق هذا الهدف وفي طليعتهم فلاسفة اللغة التحليلين الذين سنعرض بعض آرائهم من خلال هذا الفصل.

فما هي التداولية ؟

وللإجابة عن هذا السؤال علينا تتبع مساره وزمن نشأته حتى نضيء دروبه، فيتضح لنا المنهج الذي يوصلنا إلى المعرفة العلمية التي ننشدها .

فمصطلح التداولية شاع أولا في الدراسات الفلسفية والإبستمولوجية، واللسانية،والأسلوبية، والنقدية ،فهو ترجمة للمصطلح الأجنبي " Pragmatique "، وقد جاء في الموضوعات الخاصة بالفلسفة أن كلمة " براغماتية " " اشتقت من اللفظ اليوناني(Pragma) بمعنى فعل ونشاط وعمل ، وهو تيار مثالي في الفلسفة الغربية، يرى أن المنفعة العلمية للمعارف مصدرا لها ومعيارا رئيسيا لصحتها " [2] .

ويعد الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرز بيرس Charles Sanders Peirce (1839–1914)هو مؤسس البرجماتية أو التداولية ، حينما بين معالمها في مقالين نشر الأول سنة 1878 بعنوان " كيف تجعل أفكارك واضحة ؟ " (How to make our ideas clear?) والثاني نشره سنة 1905 بعنوان " ما هي البراجماتية ؟" (What pragmatics is)

كما سانده في طرحه الفيلسوف الأمريكي وليام جيمس (William James (1910-1842 الذي طرح مقولته الشهيرة " وجود الشيء يعني كونه نافعا " وهذا طبعا يقودنا إلى فكرتهما المعادية للفلسفة القديمة خصوصا الميتافيزيقا، فأصبح الفيلسوف البراجماتي بعيدا عن كل المبهمات

1- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة د.سعيد علوش، مركز الانتماء القومي، بيروت،الطبعة الأولى 1986 ص 07 .
2- إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر، ط1، 2000 ، ص 69 .

الفلسفية المغلقة المتسمة بالتجريد، واتجه إلى ما هو مشخص Concrète وحقيقي Real، وأصبح لهم طابع عملي .

ويرى جيمس أن النظرية الحقيقية هي التي تقودنا للوصول إلى نتائج مرضية، ونشر جون ديوي John Dewey (1859–1952) مقالا بعنوان: " نمو البراجماتية الأمريكية " . ومن خلاله لخص ظهور البراجماتية، وأن الفيلسوف بيرس أخذها عن " كانط "، هي ليست نظرية أمريكية، لأن كانط ميز ما هو برجماتي وما هو عملي، وأن بيرس رفض تسمية مذهبه بالمذهب العملي وآثر عليه المذهب أو الطريقة أو المنهج [1].

كما اتجه ديوي نحو الوظيفة أو الأدائية للتفكير لأن الفكرة هي فرضية الفعل وتقودنا وحدها فعليا نحو الحقيقة ، وقد عرفها في قاموس القرن Century Dictionary (1909)بأنها " النظرية التي ترى أن عمليات المعرفة وأدواتها إنما تتحد بحسب الاعتبارات العلمية أو الأغراض الفعلية، فليس هناك محل للقول بأن المعرفة تتحد في حدود الاعتبارات النظرية التأملية الدقيقة أو الاعتبارات الفكرية المجردة " [2].

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبارها نظرية في " المعنى "، ويقول بيرس وجيمس: " إنَّ " المعنى " ليس مفهوما ثابتا بل يختلف باختلاف مكانه في سلم الموجودات ، وقد جعل جيمس صدق الشيء ووجوده من دلائل آثاره ، ويقول في ذلك: " كي نبلغ الوضوح الكامل في أفكارنا عن شيء لا نحتاج إلا إلى أن ننظر في الآثار العملية التي يبعثها الشيء " [3].

فنظرته لهذا المنهج لا تختلف عمن سبقه، لأنه يدعو إلى تغيير العالم بواسطة العمل، حيث تكون الأفكار نفعية و تؤدي إلى نتائج عملية فيقول: " إن البراجماتي عند معالجته لبعض الإشكالات بدلا من أن يعالجها بالتأمل المعجب، يقفز إلى الأمام في نهر الخبرة، إذ يعيش فيها كما تعيش الأسماك في الماء " [4].

1- ينظر إبراهيم مصطفى إبراهيم ، نقد المذاهب المعاصرة ص84-85.
2- محمد مهران رشوان ، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة ،طـ ،1984،ص 41 .
3- إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة ،ص163 .
4- حسن محمد الكحلاني ، فلسفة التقدم ، دراسة في اتجاهات التقدم و القوى الفاعلة في التاريخ ، مكتبة مدبولي 2003 ، ص101 .

فيريد هنا أن يبتعد عن الأفكار التي لا جدوى منها ، ويحاول أن يفسر كل فكرة بمتابعة نتائجها العملية وأثرها على سلوكنا وحياتنا، وليس المهم أن نبحث عن منشئ الفكرة ومصدرها، وإنما المهم هو النتائج العملية التي تؤدي إلى تغيير واقعنا نحو الأفضل، وتحقق لنا المنفعة التي تخدم أهدافنا .

ونرى أن المنهج التداولي لا يقدم حلولا جاهزة وإنما يعد برنامجا للعمل حيث يقول جيمس: " إن النظريات تصبح أدوات ووسائل لا إجابات عن ألغاز فهي منهاج يساعدنا على الحركة للأمام وعلى التقدم، وعند الاقتضاء نعيد صنع الطبيعة من جديد" [1].

فالتداولية ذات طابع عملي، متغيرة بتغير ظروفنا وحاجاتنا المتجددة ومنهجها يقرر أن الحقيقة من صنع الإنسان، فيؤكد شيلر Schiller (1937-1881):" أنه لا توجد حقيقة مطلقة، وإنما كل حقيقة فهي إنسانية ... وعلى هذا فإن الحقيقة لا تعلن مرة واحدة وإلى الأبد، وإنما هي ديناميكية (حركية) وفي صيرورة مستمرة " [2].

ويعني هذا أن الحقيقة نسبية وليست مطلقة حيث تتطور وتتبدل باستمرار فهي ليست خالدة ولا ثابتة، فالإنسان والزمن هما الكفيلان بتحقيقها في لحظة معينة.

ومما تقدم نرى أن الفلسفة البراجماتية فلسفة عملية ترفض المطلق والثبات، وتتطلع إلى التغيير والتقدم، وترى الحقيقة من صنع الإنسان ولابد أن تؤدي إلى نتائج ملموسة.ولا يهتم المنهج التداولي بمصدر الأفكار ولا بكيفية ظهورها وإنما يهتم بنتائجها العملية المؤثرة على سلوكنا وحياتنا.

وقد ميز جيمس في إحدى قواعد المنهج التداولي بقوله: " إذا اعتقدت في صدق قضيتين فانظر في أثر كل منهما على سلوكك العملي فإن اختلف سلوكك في كلا الحالتين فالقضيتان مختلفتان ،وإن لم تختلف النتيجة فالقضيتان قضية واحدة ، ولكن بصورتين لفظيتين مختلفتين " [3].

ويدعو المنهج التداولي إلى تحليل الواقع وجعله قابلا للتنفيذ .

1- المرجع السابق ، ص 108 .
2- المرجع نفسه، ص119 .
3- المرجع نفسه، ص 103.

كما لا حظنا أن أصحاب هذا المنهج يتطلعون إلى المستقبل متجاوزين الماضي رافضين البحث في المبادئ الأولية وفي كل أشكال المطلق، فلا يسألون عن كيفية نشوء الأفكار ولا عن مصدرها –كما سبق ذكره– وهذا أسلوب جديد في التفكير يؤكد إمكانية الابتكار والتقدم المتجدد، فجاء ثورة على المناهج التاريخية، إلا أنني أرجح رأي محمد الكحلاني في عدم تفضيل بعد زمني على آخر، فلابد أن يكون الزمن الحاضر نقطة اتصال بين البعدين الآخرين وهما الماضي بكل ما فيه من تراث ثقافي يحمل قيما يمكن أن تدفع مسيرة التاريخ إلى الأمام، وبين مستقبل بكل ما يحمله من إمكانات لم تتحقق بعد [1].

فإذا كان جديد الفلسفة البراجماتية هو القطيعة مع الماضي، فإننا نرى من الخطأ تجاوزه وإهماله، لأن الحقائق كامنة فيه وما علينا إلا البحث عنها واكتشافها .

وانطلاقا مما سبق نجد أن الفلسفة البراجماتية قد تركت تأثيراتها المختلفة على كثير من المجتمعات والدول ويرجع ذلك إلى كثرة فلاسفتها وتعدد مصادرها وأصولها. فما هو تأثيرها في الدراسات اللسانية؟

فبعد الإشارة إلى جذور التداولية الممتدة في التراث الفلسفي، وقد عرفنا أنها تعزى بصفة خاصة إلى المثالية الألمانية لدى " كانط " الذي تأثر به الفيلسوف الأمريكي " بيرس "، ثم تبناها العديد من الفلاسفة ، كجيمس وديوي وغيرهما، ونجد الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس Charls Moris قد استخدم مصطلح التداولية بمفهومه الحديث سنة 1938 دالا على فرع من فروع ثلاثة يشتمل عليها علم العلامات Semiotique وهي:

– علم التراكيب Syntaxe: وهو يعني بدراسة العلاقات الشكلية بين العلامات بعضها مع بعض .

– علم الدلالة Semantique: وهو يدرس علاقة العلامات بالأشياء التي تدل عليها .

– التداولية Pragmatique: التي تعني بالعلاقات بين العلامات ومستخدميها .

1- ينظر حسن محمد الكحلاني ، فلسفة التقدم ، ص 106 .

وقد لاحظ موريس بعض الاستعمالات اللغوية مثل ألفاظ التعجب و صيغ الأمر وبعض الأساليب البلاغية والشعرية التي يتعرض لها مستعملو اللغة يمكن معالجتها في إطار البحث في اللسانيات التداولية [1] .

وقد استخدم موريس مصطلح التداولية في حديثه عن الأمراض النفسية التي نجدها في عملية الاتصال ، كما وظفها أيضا في التحليل الفلسفي .
" ومع ذلك ظلت التداولية في رأيه كلمة لا تغطي أي بحث فعلي " [2].

حتى وإن قلنا إن مصطلح التداولية بمفهومه الحديث يعزى إلى موريس فإنها لم تصبح مجالا يعتد به في الدرس اللغوي المعاصر إلا في العقد السابع من القرن العشرين بعد أن قام على تطويرها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى التراث الفلسفي لجامعة أكسفورد (Oxford) وهم:جون أوستيين John Austin وجون سيرل John Searle، وبول غرايس H. Paul Grice وكان هدفهم وجود طريقة تمكنهم من توصيل اللغة الإنسانية الطبيعية من خلال إبلاغ مرسل رسالة إلى مستقبل يفسرها وهذا من صميم التداولية [3].

وتوضح الدراسات أن أوستين عندما ألقى " محاضرات وليام جيمس " عام 1955، لم يكن يفكر في تأسيس اختصاص فرعي للسانيات ، فلقد كان هدفه تأسيس اختصاص فلسفي جديد هو فلسفة اللغة، بيد أن تلك المحاضرات كانت بوتقة التداولية اللسانية، وانطلق من ملاحظة بسيطة مفادها أن كثيرا من الجمل التي ليست استفهامية أو تعجبية أو أمرية لا تصف مع ذلك أي شيء ولا يمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، فهي لا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره، فجملة " آمرك بالصمت " يسعى قائلها إلى فرض الصمت على مخاطبه أي ينتقل من حالة ضجيج إلى حالة سكون [4].

وانطلاقا من هذه الملاحظات توصل أوستين إلى تقسيم الجمل إلى وصفية وإنشائية؛ فالوصفية هي التي تقابل في العربية " الجمل الخبرية " ويمكن الحكم عليها بالصدق أو الكذب، فهي صادقة إذا كان الوضع الذي

1- ينظر محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي ، دار المعرفة الجامعية ، ط1 ،2000 ،ص175 .
2- آن روبول ، جاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس و محمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ط1 ، 2003 ، ص29 .
3- محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، دار المعرفة الجامعية ،ط1 ، 2002 ، ص09 .
4- ينظر آن روبول ، جاك موشلار ،ص 30 .

تصفه قد تحقق فعلا في الكون، وهي كاذبة بخلاف ذلك، " وتتفرد الجمل الإنشائية بعدد معين من الخصائص لا توجد في الجمل الوصفية، من ذلك أنها تسند إلى ضمير المتكلم في زمن الحال وتتضمن فعلا من قبيل " أمر " و" وعد " و" أقسم " ... ويفيد معناها على وجه الدقة إنجاز عمل، وتسمى هذه الأفعال أفعالا إنشائية...لا تقبل الحكم عليها بمعيار الصدق والكذب، بل يتم الحكم عليها بمعيار التوفيق أو الإخفاق "[1].

فعندما يأمر الأستاذ الطالب بأن ينجز بحثا، ويتلقى الإجابة التالية: " لا أملك المراجع"، فالأستاذ لم يقل شيئا صادقا أو كاذبا، إنما أمر و أمره أخفق بما انه لم يتم الامتثال إليه، بينما لو أنجز البحث لتكلل أمر الأستاذ بالنجاح .

وقد ظن أوستين في البداية أن هذا التقسيم بسيط، ولكنه اكتشف بعد ذلك أن بعض الجمل الإنشائية غير مستندة لضمير المتكلم في زمن الحال ولا تتضمن فعلا إنشائيا مثل: " رفعت الجلسة "، وقد قادته هذه الملاحظة إلى تمييز جديد لا يزال مقبولا إلى يومنا هذا ، فهو يقر بأن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل، وميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية؛ العمل القولي، والعمل المتضمن في القول، وعمل التأثير بالقول[2] ، ولتوضيح ذلك نعود إلى المثال السابق، حيث يرى أوستين أن مجرد التلفظ بعبارة " أنجز بحثا " يكون الأستاذ قد قام بعملين معا؛ فالأول إنجاز عمل قولي يتمثل في نطقه بجملة: " أنجز بحثا " ، والثاني ينجز عملا متضمنا في القول وهو أمر موجه إلى الطالب لينجز بحثا، ومن جهة أخرى يقوم الطالب بإنجاز ثلاثة أعمال ؛ فالأول عمل قولي وهو نطقه بجملة: " لا أملك المراجع " ، والثاني عمل متضمن في القول وهو عدم رغبته في إنجاز البحث، والثالث وهو عمل تأثيري ويتمثل في إقناع الأستاذ بعدم توفر المراجع حتى يمهله أو يعفيه من العمل، " وهكذا تخلى أوستين في هذه المرحلة الثابتة عن تمييز الجمل الإنشائية من الجمل الوصفية،...وأقر بأن كل جملة بمجرد التلفظ بها على نحو جاد توافق على الأقل إنجاز عمل قولي وعمل متضمن في القول، وتوافق أحيانا كذلك القيام بعمل

1- المرجع السابق ، ص31 .
2- ينظر المرجع نفسه ، ص31 .

تأثير بالقول، وأفرد محاضراته الأخيرة لتصنيف مختلف أنواع الأعمال المتضمنة في القول " [1].

ومن المرجح أن نظرية أوستين في تصنيف الأفعال الكلامية تعد النواة الأولى لظهور التداولية الحديثة بمفهومها اللغوي، أي دراسة استخدام اللغة في مقامات مختلفة، وقد أدخل سيرل وغرايس بعض التعديلات على هذه النظرية كما سنرى لاحقا.

والملاحظ أيضا أن التداولية لا تنضوي ضمن أي مستوى من مستويات اللغة إلا أنها تتداخل معها في بعض الجوانب منها:

- علم الدلالة Sémantique الذي يشاركها في دراسة المعنى على خلاف العناية ببعض مستوياته .

-علم اللسانيات الاجتماعية Sociolinguistique يلتقي معها في تبيين أثر العلاقات الاجتماعية بين المشاركين في الحديث، والموضوع الذي يدور حوله الكلام، ومرتبة المتحاورين وأثر السياق ...

- اللسانيات النفسية Psycholinguistique وهو يشترك معها في العناية بقدرات المشاركين سواء من جانب الأداء أو السمات الأخرى التي تتميز بها شخصية الفرد .

- وتحليل الخطاب Analyse du Discours يشارك التداولية في تحليل الحوار وتحليل الأفعال الكلامية [2].

وهذا التداخل الحاصل بين التداولية والعلوم الأخرى جعل تحديدها ليس بالأمر الهين، وذلك لاتساع مجالاتها، كذلك جعل من العسير وضع اصطلاح لها بالعربية يكون جامعا مانعا، ونتيجة لذلك نجد للتداولية كثيرا من الترجمات في اللغة العربية منها: " التبادلية، والاتصالية، والنفعية، إلى جانب الذرائعية " [1]. وأضاف البعض : السياقية والمواقفية والمقاماتية وعلم المقاصد ...

1- المرجع السابق ، ص 32 .

2- ينظر محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ، ص 10 ، 11 .

1- ميجان الرويلي وسعد البازعي ، دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، دار البيضاء ،ط3 ،2003 ، ص 167 .

- " الذرائعية مذهب فلسفي أمريكي أسسه وليام جيمس (1842 – 1910) و تشارلز بيرس (1839 – 1914) مؤداه أن معيار صدق الآراء و الأفكار هو النتيجة العملية التي تتركب عليها من حيث كونهما مفيدتين أو مضرتين ..." ينظر قاموس المصطلحات اللغوية و الأدبية عربي –انجليزي – فرنسي ، تأليف إميل يعقوب و بسام بركة ، و مي شيخاني ، دار العلم الملايين ، بيروت ،ط1، 1987، ،ص94 .

أما أول من استعمل مصطلح " التداولية " في اللغة العربية، والذي يقابل في الفرنسية (Pragmatique) وفي اللغة الانجليزية (Pragmatics) فهو الأستاذ: طه عبد الرحمان، أستاذ المنطق وفلسفة اللغة جامعة محمد الخامس الرباط المغرب، إذ يقول: " وقع اختيارنا منذ سنة 1970 على مصطلح " التداوليات " مقابلا للمصطلح الغربي " براغماتيقا " لأنه يوفي المطلوب حقه باعتبار دلالته على معنى " الاستعمال " و" التفاعل " معا، ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم " [2].

فأصبح مصطلح " التداوليات " محبذا لدى اللسانيين لما فيه من تفاعل حي في استعمال اللغة بين المتحاورين ، وكذلك لخفته و سلاسته .

ويرى البعض أن أوجز تعريف للتداولية و أقربه إلى القبول هو :

دراسة اللغة في الاستعمال In use ،أو في التواصل communication ... فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والسامع في سياق محدد (مادي واجتماعي ولغوي) وصولا إلى المعنى الكامن في كلام ما [3] .

وهذه الترجمات المختلفة للمصطلح هي نتيجة طبيعية لعدم اعتماد الأصل المعرفي في الترجمة، لأن المصطلح في ثوبه الجديد شاع إلى حد كبير في حقل التداول واللسانيات التداولية، وبذلك يحتم التغاير بينه وبين الأصل القديم (براجماتية) .

ويرد مفهوم التداوليات في معجمي " (محمد علي الخولي 1982) و(عزت عياد 1984) فيجعله الأول مرادفا للسميائيات (علم الرموز) ويعرفه الثاني بأنه (دراسة الرموز اللغوية و الرموز غير اللغوية) " [1]وهذا التعريف لا يتضمن أي إشارة إلى مفهوم (الاستعمال) خلافا لما ذهب إليه موريس الذي عرف –كما سبق– التداوليات بأنها دراسة علاقة الدلائل بمستعمليها .

- و في معجم آخر يعرفها : في الفلسفة هي مذهب يعتبر أن الحقيقة تبنى على التجربة الإنسانية و أن المعرفة وسيلة في خدمة مطالب الحياة ، و أن الصدق قضية ما هو في كونها مفيدة .
و في التربية : وصف نظرية أو ممارسة تتحدد فيها قيمة الأفكار بنتائج التطبيق العملي كاختبار لاستمراريتها " ينظر معجم المصطلحات التربوية ، انجليزي– عربي ، ميشيل تكلا جرجس و رمزي كامل حنّا ، مراجعة يوسف خليل يوسف ، مكتبة لبنان ناشرون ،ط$_1$،1998 ،ص285 .
2- طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء، ط$_2$ ، 2000، ص28 .
3- محمود أحمد نحلة ، ص14 .
1- توبي لحسن ، التعريف المصطلحاتي في بعض المعاجم العربية ، اللسان العربي 1999، العدد 46 .

وجاء في تعريف آخر: " إنها علم يهتم بدراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، وتأثير هذا الاختيار في الآخرين ، إننا نستطيع من الناحية النظرية استعمال ما يحلو لنا من الألفاظ والعبارات والجمل، ولكن من الناحية العملية نجد أنفسنا مقيدين بالعديد من القوانين الاجتماعية التي تحكم هذا الاستعمال..." [2].

وهذا مؤداه للقول الشائع: " لكل مقام مقال " فأنت لا تستطيع –مثلا– أن تسرد نكتا في جنازة، فالتقاليد الاجتماعية تأبى ذلك، فالتداولية هي حقل لساني يهتم بالبعد الاستعمالي أو الإنجازي للكلام ويأخذ بعين الاعتبار المتكلم والسياق .

ويشير آخر " إلى أن المعنى التداولي لعبارة ما يستخلص من مجموعة عوامل المقام الذي قيلت فيه، وتشمل المتكلم والمخاطب والمستمعين، والمكان والزمان والموضوع، والأسلوب والغاية التي يقصدها المتكلم والنتائج العملية والسلوكية التي تحدثها العبارة في المخاطب والمستمعين..." [3]

ومن هنا يتحدد أن كل نص لا يمكن إدراك معناه التداولي إلا إذا ربطناه بالمقام الذي قيل فيه سواء كان مقاما ثقافيا أم حضاريا أم اجتماعيا، ومن هذه الناحية يتطلب الموقف مقاما واضحا ومحددا فمثلا في الحديث القدسي التالي: في فضل الذكر والذاكرين؛ عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن رسول الله –صلى الله عليه و سلم–: " **إن الله تعالى يقول : أَنَا مَعَ عَبْدِي مَا ذَكَرَنِي وَ تَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ** " [1]

فالمعنى التداولي لهذا الحديث أنه أكثر تحديدا ودقة لارتباطه بالمقام الواضح، فالذكر هنا هو التسبيح والتهليل والتحميد والتعظيم لله تعالى، ومن فعل ذلك يعد من الذاكرين حيث تكون له الحظوة عند الله تعالى، والاستقراء العملي من وراء ذلك هو الترغيب في الإكثار من ذكر الله فيؤدي هذا إلى مقصد آخر

2- محمود سليمان ياقوت ، منهج البحث اللغوي ، دار المعرفة الجامعية ، ط1 ،2000، ص182 .
3- شاهر لحسن، علم الدلالة السمانتيكية و البراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع الأردن،ط1،2001 ص 157 .

1- أبو الحسن نور الدين القاري، الأربعين القدسية، تحقيق طارق الطنطاوي، دار الهدى للطباعة و النشر عين مليلة،ط1،1996 ص 105 .
- الحديث رواه أحمد و ابن ماجة و الحاكم بسند صحيح .

هو الابتعاد عن ما يشغل الإنسان من مضار، وتوجيهه إلى عمل الخير وتلك هي الغاية .

وعلى الرغم من هذه الالتباسات والتداخلات، فقد تم تحديد بعض القضايا اللغوية التي تخوض فيها التداولية كما تمت صياغة مجموعة من الإشكالات التي تشكل موضوعا لها، فهي تجيب عن أسئلة من مثل: ماذا نفعل عندما نتكلم ؟ وماذا نقول عندما نتكلم ؟ ومن يتكلم ؟ ومع من يتكلم ؟ ولماذا يتكلم بهذا الشكل وليس بذاك ؟ وكيف يمكن أن نقول شيئا مغايرا لما كنا نقصده ؟ وهل يمكن الاطمئنان إلى المعنى الحرفي لكلام ما ؟ وما هي الاستعمالات الممكنة للغة ؟ الخ .

كل هذه الأسئلة تثير قضايا لغوية متعددة الأبعاد، وتزيد في غموض هذا الحقل، " خصوصا عندما يتم التأكيد على أن الإجماع لم يتحقق بعد بين الباحثين فيما يخص تحديدها وفرضياتها ، ولا حتى فيما يخص مصطلحاتها، يلاحظ بجلاء على العكس من ذلك إلى أي حد تشكل ملتقى غنيا لتداخل الاختصاصات بين اللسانيين والمناطقة والسيميوطيقيين، والفلاسفة وعلماء النفس وعلماء الاجتماع ..." [2].

وفي دراسة متميزة للباحثة كاترين كربرت أورشيوني Cathrine Kerbrat Orecchioni تحت عنوان: " من أجل مقاربة تداولية للحوار المسرحي " حددت أهم التوجهات التي عرفها الحقل التداولي بما فيها التداولية اللفظية " pragmatique énonciative " والتداولية التخاطبية " Pargmatique Illocutoire " والتداولية التحاورية " Pragmatique Conversationnelle " ولكل منها خصائصها ومنظروها، وتؤكد أن النص المسرحي يمكن أن يشكل موضوعا أساسيا لهذه التداوليات الثلاث ...[1].

فالكلام عندها يجب فهمه وإدراكه لتشخيص مضمونه الإخباري وتحديد غرضه التداولي أي قيمته وقوته الإنجازية، وتشير إلى أن اللسانيات التداولية ستشهد توسعا على جميع الأصعدة .

ويركز اللسانيون في مجال البحث التداولي على طائفة من الجوانب مثل:

2- حسن يوسفي ، المسرح و مفارقاته ،http://www.awu.dam.org . جوان2004 ،ص01

1- ينظر المرجع نفسه ، ص02 .

1- الإشارات Déictiques: وهي العناصر الهامة في اللغة والتي لا يستطاع تفسيرها بمعزل عن المقام، لأن في كل اللغات كلمات وتعبيرات تعتمد كليا عليه ولا يتحدد معناها إلا في إطاره، وتشمل الضمائر وأسماء الإشارة، وزمن الفعل، وبعض ظروف المكان والزمان، نحو: أنا، وأنت، وهنا، وهناك، والآن وغدا والأمس ...

فإذا قرأنا هذه الجملة: " سآخذ هذا الكتاب اليوم وأعيده لك غدا " فإننا نجدها غامضة لأنها تتضمن بعض العناصر الإشارية التي يعتمد تفسيرها على المقام الذي قيلت فيه ومعرفة المرجع Référence الذي تحيل إليه، وهو ضمير المتكلم " أنا " واسم الإشارة " هذا " وظرفا الزمان اليوم وغدا، ولا يتضح معناها إلا إذا عرفنا ما تشير إليه هذه العناصر .

فالزمان مثلا لابد أن يحدد بالقياس إلى زمان المتكلم حتى يكون معناه مفهوما.

كذلك " صيغ الأفعال تخضع لتفسير مرتبط بزمن المتكلم، فالفعل الماضي عادة يضع الحدث في نقطة زمنية سابقة على زمن المتكلم، بينما الفعل المضارع في العادة يضع الحدث في نقطة زمنية ليست سابقة على زمن المتكلم " [2]. مثل :

- ألقى الأستاذ محاضرة (منذ ساعة)
- يلقي الأستاذ محاضرة (بعد نصف ساعة)

والملاحظ أن زمن الفعل في اللغة العربية تتدخل في تحديد بعض الأدوات مثل: لم، وإذا، والسين، وسوف...

كذلك نجد من الإشارات الأكثر استعمالا في اللغة العربية ظرف الزمان (الآن) ومرجعيته بصفة عامة لحظة التكلم، لكن ما يحدد دلالته هو المقام مثل:

- أجب الآن
- التعليم الآن أفضل مما كان عليه قبل عشرين عاما.

فنلحظ الاختلاف المتباين في مدلولاته، ففي العبارة الأولى نعني لحظة التكلم مباشرة،أما في العبارة الثانية فالمقصود هذه الأيام مقارنة بما مضى في السابق

2- شاهر لحسن ، علم الدلالة السمانتيكية و البراجماتية في اللغة العربية ، ص165 .

وهذه الإشارات ذات مدلولات تداولية،" فهي لا تستطيع استقبال معنى محدد إلا إذا كان على علاقة وجودية مع الموضوع الذي تمثله، ومن هنا فإنها تساهم في طبيعة ما يسميه بيرس Peirce بالمؤشر Index "[1] .

والمؤشر –كما يعرف– هو ما يدل على شيء موضوع وفي غياب الشيء فإن المؤشر لا يشرك معه شيئا أبدا.

ويشير لفنسون Levinson " إلى أن الإشارات Déictiques تذكير دائم للباحثين النظريين في اللسانيات بأن اللغات الطبيعية وضعت في الأساس من أجل التواصل المباشر بين الناس وجها لوجه، وتبرز أهميتها حين يغيب عنا ما تشير إليه فيسود الغموض ويصعب الفهم " [2] .

وتوصل معظم الباحثين إلى أن التعبيرات الإشارية خمسة أنواع :

شخصية وزمانية ومكانية واجتماعية ونصية .

فالشخصية الدالة على شخص Personne، وهي ضمائر المتكلم وضمائر المخاطب، ومرجعها يعتمد على المقام لتحديد من المتكلم أو المخاطب الذي يحيل إليه الضمير، ويضيف فلاسفة اللغة بعدا آخر يتمثل في شرط الصدق، فإذا قال باحث مثلا: أنا مؤسس التداولية، فليس بكاف أن يكون مرجع الضمير هو ذلك الباحث، بل لابد من التحقق من مطابقة المرجع للواقع، وإلا كانت الجملة كاذبة .

وقد نبه بيرس أن تكون الإشارات محددة المرجع بتحقق العلاقة الوجودية بين العلامة وما تدل عليه .

كما يدخل في الإشارات الشخصية النداء الذي نوظفه لاستدعاء شخص أو تنبيهه.

أما الإشارات الزمانية فهي تدل على زمان يحدده المقام بالقياس إلى زمان المتكلم وهو مركز الإشارة Centre Déictique، فإذا لم نعرفه أصبح الموقف غامضا بالنسبة للمتلقي –كما سبق ذكره في المثال الخاص بظرف الزمان (الآن)– .

1- جان سيرفوني ، الملفوظية ، ترجمة قاسم المقداد ، مركز تنسيق التعريب الرباط ، المغرب ،1998 ، ص 01 .

2- Levinson Stephen, C, Pragmatics, Cambridge University , Press, ,P-54

" والإحالة إلى الزمان قد تستغرق المدة الزمانية كلها كأن يقال اليوم الأربعاء، وقد تستغرق مدة محددة من الزمان " [1] كأن نقول: استعرت كتابا يوم الاثنين، فالاستعارة لم تستغرق كل اليوم بل وقعت في جزء منه، وقد تدل العناصر الإشارية على الزمن النحوي فيطابق الزمن الكوني، وقد لا يطابقه، ولا يوضحه إلا مقام الكلام .

نحو قوله تعالى : ﴿ **سُبْحَانَ الذِّي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسْجِدِ الحَرَامِ إِلَى المَسْجِدِ الأَقْصَى** ﴾ [2] فالزمن النحوي للفعل " أسرى " ماض و قد حدث فعلا، أما قوله : ﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَ انْحَرْ** ﴾ [3] فالزمن النحوي للفعل " أعطى" لا يطابق الزمن الكوني.

فجاء الفعل بصيغة الماضي من الناحية الزمنية ولكنه لم يحدث في الكون .

أما الإشارات المكانية فهي التعبيرات الدالة على مكان المتكلم وقت التكلم مثل: هنا وهناك وهذا وذاك وفوق وتحت وغيرها .

فظرف المكان " هنا " وهو اسم إشارة للقريب يختلف باختلاف المقام مثل :

– من هنا بدأ الباحث عمله ←—— أي من هذا المكان .

– من هنا نتبين أن التداولية لها جذور فلسفية ←—— أي من هذا المنظور .

ونجد دلالات أخرى لعناصر الإشارة إلى المكان كما سماها ليفنسون Levinson بالإشارة العاطفية Empathie Deixis [4]، وهو قريب مما أشار إليه الخطيب القزويني في قوله[5]:"...أو بيان حاله في القرب أو البعد أو التوسط كقولك : هذا أو ذلك أو ذاك زيد ، أو تحقيره بالقرب نحو﴿ **أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ**﴾ [1] ، أو تعظيمه بالبعد نحو نحو قوله تعالى:﴿**الم، ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ** ﴾ [2] ".

ولمعرفة مدلولاتها الحقيقية علينا بالعودة إلى المقام والعبارة التي وردت فيها هذه الإشارات.

1- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة ، ص20 .
2- سورة الإسراء ، الآية 01 .
3- سورة الكوثر ، الآية 01، 02 .
4- Levinson .Sc ,Pragmatics , P81
5- جلال الدين محمد بن عبد الرحمان القزويني ، التلخيص في علوم البلاغة ،حققه و شرحه عبد الحميد هنداوي ،دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ، طر ،1997، ص 62 .
1- سورة الأنبياء ، الآية 36 .
2- - سورة البقرة ، الآية 01-02.

ومن ناحية الإشارات الاجتماعية فهي تبين لنا العلاقات الاجتماعية بين الناس من حيث عدة اعتبارات؛ فهناك إشارات نستعملها مع من هم أكبر منا سنا ومقاما، وعبارات أخرى مع من نحترمهم لمكانتهم الاجتماعية، وأخرى نوظفها في الخطاب الرسمي، وهناك ألقاب التقدير والتبجيل، نحو: حضرتك وسعادتك وسيادتك، ومعالي الوزير، وفخامة الرئيس وغير ذلك من الإشارات الاجتماعية التي نجدها مشتركة بين اللسانيات التداولية واللسانيات الاجتماعية[3]

أما الإشارات النصية أو الخطابية ففيها التباس بالإحالة إلى سابق أو لاحق، لذلك لم يعدها البعض من الإشارات. إلا أن " هناك إشارات للخطاب تعد من خواص الخطاب وتتمثل في العبارات التي تذكر النص مشيرة إلى موقف خاص بالمتكلم، فقد يحتار في ترجيح رأي على رأي...فيقول: ومهما يكن من أمر، وقد يستدرك فيستخدم لكن، أو بل وقد يضيف فيقول : فضلا عن ذلك، وقد يريد أن يرتب أمرا فيقول: من ثم..." [4]

كما نجد بعض الإشارات النصية تأخذ من الإشارات الزمانية والإشارات المكانية نحو قولنا: الفصل الماضي والرأي السابق، ونشير إلى كتاب ورواية فنقول هذا كتاب وهذه رواية .

2- الافتراض المسبق Presupposition : وهو مفهوم تداولي حيث إن المعنى المستنتج ضمن محادثة ما يكون معلوما للمتكلم والمخاطب، ويوضح الجيلالي دلاش أنّه " عند كل عملية من عمليات التبليغ، ينطلق الأطراف (المتخاطبون) من معطيات أساسية معترف بها ومعروفة، وهذه الافتراضات المسبقة لا يصرح بها المتكلمون وهي تشكل خلفية التبليغ الضرورة لنجاح العملية (التبليغية) وهي محتواة في القول، سواء تلفظ بهذا القول إثباتا أو نفيا، وهكذا لو قمنا باختبار قول ما –ويدعى هذا الاختبار اختبار النفي– فإن الافتراض المسبق يظل صالحا :

– أغلق النافذة

– لا تغلق النافذة

3- ينظر محمود أحمد نحلة ،ص26 .

4- المرجع نفسه ، ص24 .

يتمثل الافتراض المسبق ههنا في كون النافذة مفتوحة " [1]وأيضا هناك مبرر يدعو إلى غلق النافذة أو عدم غلقها .

فعندما يوجه المتكلم كلامه إلى السامع يفترض مسبقا أنه معلوم له، وأن المعلومات مشتركة بين المرسل والمتلقي، فإذا قال أحدهم: " نتطلع إلى تحرير القدس من الاحتلال "، يفهم من هذه الجملة أن القدس الآن تحت الاحتلال وهذه المعلومة معروفة للمتكلم والمخاطب، أي هناك خلفية معرفية لهذه القضية." من أجل ذلك كانت دراسة الافتراض المسبق مثار اهتمام الباحثين منذ أوائل العقد السابع من القرن العشرين " [2].

وقد بينت الدراسات أهمية هذا الجانب في تفعيل نظرية التواصل بين المتحاورين، وخاصة في مجال تعليم اللغات، فنجد " وظيفة المعلم تكمن في تزويد المتعلم بالمعلومات التي تشكل هذه الخلفية المعرفة الواجب تدعيمها على الدوام بقصد تحقيق التدرج المرسوم " [3] والاستعمال الاصطلاحي للافتراض المسبق في الدرس التداولي أضيف مدى من الاستعمال العام في لغة الحياة اليومية، لأن ما يقربه إلى الفهم في اللسانيات التداولية هي أفعال الكلام التي تؤول إلى نجاح الخطاب، خاصة في مجال التعليم ومقام التبليغ .

3- الاستلزام الحواري Conversationnel Implicature : ويمثل جانبا مهما في الدرس التداولي وهو نقيض الافتراض المسبق، فإذا كان المعنى المستنتج غير معروف للمخاطب مسبقا فإن الاستنتاج يدخل في إطار الاستلزام الحواري أو ما يعرف بتضمن المحادثة فمثلا :

أ- أيتضمن كتابك الأحاديث النبوية والأحاديث القدسية ؟

ب- الأحاديث النبوية

فنلاحظ أن الرد ناقص، حيث أجاب (ب) عن شق السؤال، وترك الشق الآخر للسائل (أ) ليستنتج أن كتابه مثلا لا يتضمن الأحاديث القدسية .

1- الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة محمد يحيا تن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1992 ،ص34 .

2- تعود المحاولات الأولى لدراسة الافتراض المسبق Presupposition إلى فيلسوف آخر من أكسفورد و هو ستراسن Strawson (1952) ، الذي أعاد إنتاج مفهوم كان قد ظهر فعلا على يد الرياضي الألماني فريجه Frege (1892) بوصفه مشكلة من مشكلات علم الدلالة المنطقي المؤسس على الصدق ، ينظر ،محمود أحمد نحلة ، ص27 .

3- الجيلالي دلاش ،ص35 .

ويعود الفضل في نشأة هذا الجانب من الدرس التداولي إلى الفيلسوف الأمريكي بول غرايس Paul Grice (1930-1988) [1] ،حيث قدم موضوعا عنوانه " المنطق والحوار" Logic and Conversation سنة 1975، لخص تصوره لهذا الجانب من الدرس وبين الأسس المنهجية التي يقوم عليها " وكانت نقطة البدء عنده هي أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون وقد يقصدون أكثر مما يقولون. وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح هذا الاختلاف بين ما يقال What is said ، وما يقصد What is meant ...فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح وما يحمله من معنى متضمن فنشأت عنده فكرة الاستلزام " [2] وربط هذا الاستلزام بمبدأ التعاون Coopérative Principale، وهو أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف إما قبل الدخول في الحديث أو أثناءه .

وهذا المبدأ يشتمل على أربع قواعد سلوكية عامة هي:

1- قاعدة الكم Quantité : و له فرعان :

أ- لتكن إفادتك المخاطب على قدر حاجته

ب- لا تجعل إفادتك تتعدى القدر المطلوب

2- قاعدة الكيفQualité: لا تقل ما تعلم كذبه ولا تقل ما ليست لك عليه بينة

3- قاعدة المناسبة Relation : ليناسب مقالك مقامك .

4- قاعدة الطريقة أو الهيئة Modalité: تجنب الغموض وكن واضحا، ولتحترز من الإجمال ورتب كلامك مع الإيجاز [3].

وقد وجهت بعض الانتقادات لهذا المبدأ فهناك من رآه أنه الفردوس الذي لا علاقة له بالواقع إطلاقا، فيرى الناس متعاونين وصادقين، ومخلصين، وواضحين بيد أن الحوار الذي يدور بين البشر يخالف هذا المبدأ، إلا أن غرايس كما يذكر محمود أحمد نحلة لم يقصد بمبدأ التعاون الحواري ما عجل هؤلاء

1- بول غرايس فيلسوف أمريكي من فلاسفة أكسفورد المتخصصين في دراسة اللغة الطبيعية Natureal Language، و قد ذهب غرايس إلى أن المعنى الذي يقصده المتحدث له الأسبقية على المعنى اللغوي ، و ساعدت نظريته هذه على التمييز بين المعنى و الاستخدام ينظر آن روبول و جاك موشلار، التداولية اليوم علم جديد في التواصل، ص 245 .

2- محمود أحمد نحلة ،ص 33 .

3- ينظر طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان أو التكوثر العقلي ، ص238 .

فهمه، بل كان يقصد أن الحوار بين البشر يجري على ضوابط و تحكمه قواعد يدركها كل من المخاطب والمتكلم [1].

أما طه عبد الرحمان فيرى أن غرايس قد اهتم بالجانب التبليغي من التخاطب، وأسقط الجانب التهذيبي، إلا أننا نجد غرايس يشير إلى هذا الجانب في عبارته التي جاء فيها: " هناك أنواع شتى لقواعد أخرى جمالية واجتماعية وأخلاقية من قبيل " لتكن مؤدبا " التي يتبعها المتخاطبون في أحاديثهم والتي قد تولد معاني غير متعارف عليها " [2].

ولتوضيح هذا المبدأ نذكر المثال التالي :

في حوار بين طالبين : (أ) و (ب)

أ- من أخرج الحديث القدسي، عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم–« **قال الله تعالى :" سبقت رحمتي غضبي** » ؟

ب- أخرجه مسلم وأحمد

ففي هذا التساؤل كانت إجابة الطالب (ب) واضحة ← (الطريقة)، وصادقة ← ((الكيف)، واستخدم القدر المطلوب من الكلمات دون إطالة ←(الكم)، وإجابته كانت ذات صلة وثيقة بسؤال زميله (أ) ← (المناسبة).

أما لو خالف قاعدة من قواعد هذا المبدأ أثناء الحوار فيترتب على السامع أن يجد ويسعى لبلوغ غاية المتكلم ، ويكون يقظا حتى يدرك هذا الخلاف .

وإذا عدنا إلى المثال السابق وكانت إجابة الطالب (ب) :

- إنه حديث صحيح .

فهذه ليست إجابة عن السؤال، فقد أهمل الطالب قاعدة المناسبة Relation فيجعل السامع يتساءل عن رواة الأحاديث الصحيحة وهم كثر، وعندها لا يتحقق مبدأ التعاون المشار إليه .

" ومن أمثلة غرايس (Grice) الممتعة ما جاء في توصية أستاذ لشخص تقدم لوظيفة في الفلسفة : (إن كفاءته في اللغة الانجليزية ممتازة، ولقد كان حضوره الدروس منتظما) ربما أن كاتب التوصية يعلم أن هناك حاجة إلى

1- ينظر محمود أحمد نحلة ، ص 35 .
2- ينظر طه عبد الرحمان ، ص239 .

معلومات أوفى كما وأكثر ملاءمة مما جاء في التوصية، فإنه يكون بذلك قد خالف مبدأ التعاون وبخاصة قاعدتي الكم والمناسبة، وهذا ما يبدو مقصودا ومتعمدا، حيث إن كاتب التوصية يعني ضمنا أن صاحب الطلب لا يصلح لوظيفة الفلسفة " [1].

ويقودنا هذا المثال إلى مبدأ التأدب في الكلام الذي يتعارض مع قواعد السلوك التي يتضمنها مبدأ التعاون، وهذا هو الجانب التهذيبي الذي يلجأ إليه المتحاورون ونراه لازما في أي حدث كلامي .

قد حاول الباحثون إيضاح هذا المبدأ بأمثلة كثيرة ، كما حاولوا تطويره وسد ثغراته، التي أشار إليها لفنسون Levinson بأنها قليلة التماسك في بعض الجوانب وغير مفهومة في جوانب أخرى، ويعجب لهذا العمل رغم ما يشوبه من نقص –حسب رأيه– إلا أنه أصبح من أهم النظريات في البحث التداولي [2].

ورجوعا إلى تراثنا نجد من لطائف هذا الاستلزام الحواري عند البلاغيين و علماء أصول الفقه ، و أشار السكاكي إلى ذلك في مفتاحه ما يتجاوز الملاحظة المجردة إلى التحليل الملائم للظاهرة الذي يضبط علاقة المعنى الصريح بالمعنى المستلزم مقاميا، ويصف آلية الانتقال من الأول إلى الثاني بوضع قواعد استلزامية واضحة [3].

وسواء أكان هذا المبدأ واردا في تراثنا العربي أم في الدراسات الحديثة فإننا نبحث من وراء ذلك عن كيفية بلوغ الكلام درجة الانتفاع بين المتخاطبين، ففي الخطاب تعامل واشتراك وانتفاع وتحقيق مرتبة وزيادة درجة في سلم التواصل .

4- أفعال الكلام Actes de Parole:

تنطلق نظرية " أفعال الكلام " من فلسفة اللغة الطبيعية التي طرحها أحد فلاسفة كمبريدج وهو فيتجنشتين L. Wittgenstein في كتابه " بحوث فلسفية " وفي فكرته الأساسية عن " ألعاب اللغة " واستحالة الفصل بين الدلالة والتركيب والتداول أي (الاستخدام الفعلي للغة)، إلا أن الفيلسوف الأمريكي جون

1- شاهر الحسن ، ص174 .

2- Levinson .S.C, Pragmatics , P 100

3- ينظر محمود أحمد نحلة ص40 .

أوستين John Austin يعد من الأوائل الذين أسسوا هذه النظرية التي انطلقت عنده من نقده لطرح فلسفي .

" يرى أن قول شيء ما هو دوما إثبات شيء ما، أي أن دور اللغة يقتصر على الإخبار عن العالم، والقضايا النافعة هي التي تقبل الصدق أو الكذب، وما عداها ليس سوى أحكام خالية من المعنى، ولدحض هذا الرأي يقدم أوستين نماذج من عبارات لها صيغة الجمل الإخبارية و لكنها لا تصف ولا تثبت حدثا واقعيا، بل يتم بها إنجاز فعل ما " [1] .

مثال على ذلك جملة " حكم القاضي ببراءة المتهم " فعند التلفظ بهذه العبارة يكون القاضي قد أنجز فعل البراءة، ولايصف هنا حالة البراءة، ولذلك فإن المتكلم يقوم بإنجاز فعل ما عند التلفظ بأي تعبير .

ولا يؤدي الكلام عند أوستين معنى دلاليا فحسب بل يصنع حدثا في كثير من الأحيان لذلك تصدى للرد على فلاسفة الوضعية في محاضراته التي ألقاها في أوكسفورد ما بين سنتي 1952 و 1954 [2].

ورفض أن تكون الوظيفة الوحيدة للعبارة الإخبارية هي وصف حال الوقائع وصفا يكون إما صادقا أو كاذبا -كما ذكرنا سابقا- وينجز المتكلم فعلا بتلفظه لجملة ما، من هذا المنطلق توصل إلى نظرية أفعال الكلام المرتبطة أساسا باللسانيات التداولية، وميز أوستين بين نوعين من الأفعال :

- أفعال إخبارية Constative : وهي الأفعال التي تخبر عن واقع العالم الخارجي و تكون صادقة أو كاذبة .

- أفعال أدائية Performative: وهي خلاف الأفعال الإخبارية وتستخدم لإنجاز فعل كالتسمية والاعتذار والترحيب والنصح ...الخ . ومن ثم لا توصف بصدق ولا كذب بل تكون موفقة أو غير موفقة [1]، فمثلا إذا قارنا بين المثالين :

أ- أعتذر لك عما صدر مني .

ب- غدا يعتذر الطالب لأستاذه.

1-عطيات أبو السعود ، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين ، شركة الجلال للطباعة الإسكندرية ، ط$_1$ 2002 ،ص 99 ..

2- جون أوستين John Austin : منطقي و لساني بريطاني (1911-1960) درس الفلسفة في أوكسفورد (1952-1960) لم تصدر له كتب ، قد جمع إرمسون J.O.Urmison محاضراته التي ألقاها في هارفارد و عدتها اثنتا عشرة في كتاب نشر بعد وفاة أوستين بعنوان : " How To Do Things With Words " .ينظر . آن بول و جاك موشلار ، ص245 .

1- محمود أحمد نحلة ، ص44 .

نجد في المثال الأول (أ) الفعل " أعتذر " مضارعا مثبتا فاعله المتكلم، وبنطقه يحصل الاعتذار وجها لوجه، أما في المثال الثاني (ب) فنجد الفعل " يعتذر" لا يشكل فعل أداء والجملة هنا إخبارية، تخبرنا عما سيفعله الطالب غدا اتجاه أستاذه، وقد يحصل الاعتذار أو لا يحصل .

ويرى أوستين أن الأفعال الأدائية لا تكون موفقة إلا إذا تحققت لها شروط الملاءمة وهي الشروط اللازمة لنجاح الفعل، كأن تقول لرجل: أنصحك بكذا وأنت تقصد تضليله، فقد أسأت أداء الفعل، أو تقول أعد دون أن تنوي الوفاء، فيكون الأداء ناقصا وهكذا... ومن هذه الشروط :

"– وجود إجراء عرفي مقبول وله أثر عرفي معين كالزواج مثلا أو الطلاق.

- أن يتضمن الإجراء نطق كلمات محددة ينطق بها أناس معينون في ظروف معينة .
- أن يكون الناس مؤهلين لتنفيذ هذا الإجراء .
- أن يكون التنفيذ صحيحا وكاملا "[2]

وكذلك هناك شروط قياسية كأن يكون المشارك في الإجراء صادقا في أفكاره ومشاعره وأن يلتزم بما يلزم نفسه به

فإذا قلت لطالب سأعيرك كتابا يساعدك في بحثك ولم تفعل فأداء الفعل هنا كان معيبا.

" وحين تبين لأوستين أن تمييزه بين الأفعال الإخبارية والأدائية غير حاسم وأن كثيرا مما تنطبق عليه شروط الأفعال الآدائية ليس منها، وأن كثيرا من الأفعال الإخبارية تقوم بوظيفة الأدائية رجع عودا على بدء إلى السؤال: كيف ننجز فعلا حين ننطق قولا ؟ " [1].

وفي إجابته عن هذا السؤال ميز مرة أخرى بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية:

2- المرجع نفسه، ص 45 .

1- محمود أحمد نحلة ،ص45 .

أ- الفعل القولي L'acte Locutoire [2]: وهو التلفظ بجملة تفيد معنى انطلاقا من معنى ألفاظها، إنه بعبارة أخرى فعلُ ُّ ٌّ لقول شيء ما (الفعل هنا قولٌ) .

ب-الفعل الإنجازي L'acte Illocutoire: وهو فعل أمر أو استفهام أو طلب أو تعجب أو نداء ...الخ ،إنه فعل ينجز عندما نقول شيئا ما، وهذا الفعل لا يكون متحققا سطحيا في الجملة (الفعل هنا إنجاز) .

ج-الفعل التأثيري L'acte Perlocutoire: وهو فعل إقناع شخص بشيء، أو إزعاج شخص، أو حمل شخص ما على كلامنا، إنه أثر الفعل الإنجازي [3].

ويمكننا أن نجمل هذه الأنواع الثلاثة في هذا المثال:

1- القول: قال لي " أخرج الزكاة " أي أنه تلفظ بتلك الجملة التي تعني إخراج الزكاة

2- الإنجاز: أنجز المتلفظ أمرا، فقد أمرني بإخراج الزكاة حين نطق بالقول أعلاه

3- التأثير : أقنعني بإخراج الزكاة ترغيبا في الدخول إلى الجنة أو ترهيبا من النار.

وهنا يؤكد أوستين أننا عندما نتلفظ بقول نقوم بهذه الأفعال الثلاثة دون الفصل بينها كما وجه اهتمامه إلى الفعل الإنجازي L'acte Illocutoire ، حتى أصبح لبّ النظرية فسميت " النظرية الإنجازية ".

بعد هذا قدم أوستين تصنيفا آخر للأفعال الكلامية على أساس قوتها الإنجازية . ويعترف بأنه غير راض عن هذا التقسيم وهو كالآتي :

1- أفعال الأحكام Verdictifs : وتقوم هذه الأفعال على إطلاق أحكام ذات قيمة أو حدث مثل: حكم، ووصف، وحلل وقيم ...

2- -ظلت ترجمة مصطلح Illocutoire مشكلا ، حيث تنوعت المقترحات منها ما ذكره د. طه عبد الرحمان فيما يخص العناصر الفعلية بقوله : " قد ظفرنا ينص يؤيد هذه التسمية في كتاب الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري ، و هو: (أن التكلم تعليق الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام ، و ذلك أنه ليس كل كلام خطابا للغير)،ص 27 .
و يمكننا أن نترجم هذا التعبير الأجنبي بـ" فعل التأثير " ، و لقد آثرنا أن نستعمل لتسمية مستويات " الفعل اللغوي " مصطلحات مشتقة من نفس المادة /ك.ل.م /، حرصا على استثمار خاصية الاشتقاق التي تمتاز بها اللغة العربية حيث تستثمر المقابلات الأجنبية التركيب المزجي " ينظر : طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان ، ص261 .

3- عبد المجيد جحفة ، مدخل إلى الدلالة الحديثة ، دار توبقال للنشر الدار البيضاء ،ط$_1$ ،2000 ،ص 03 .

2- أفعال القرارات Exercitifs: وتتمثل في اتخاذ قرار ما، أو استعمال السلطة لصالح أو ضد أفعال معينة مثل: أمر، وعيّن، وطلب ونهى، وأعلن ...

3- أفعال التعهد Promossifs: وهي التزام المتكلم بفعل شيء ما مثل : التزم، ونذر، و وعد، وقسم، وضمن ...

4- أفعال السلوك Comportatifs: وتتمثل في ردود فعل اتجاه سلوك الآخرين و إظهار مشاعر نفسية وحدث ما مثل: اعتذر، وشكر، ورحب، وعزى، ولعن، وبارك ...

5- أفعال الإيضاح Expositifs: وتتمثل في بيان وجهة نظر أو عرض رأي مثل: شكك وصوب، واعترض، وفسر، وأنكر، وأكد ...[1]

وما جاء به أوستين لم يكن جديدا بالنسبة للباحث العربي حيث بينت الدراسات " أن علماء النحو العربي والبلاغة العربية أدركوا منذ قرون شيئا عن نظرية الحدث الكلامي المنسوبة إلى أوستين، حيث قسموا الجملة العربية إلى جملة خبرية وجملة إنشائية و وضعوا لكل منها وصفا نحويا وبلاغيا ولكن الغربيين -كعادتهم- قلما يعترفون للعرب والمسلمين بفضل هذا السبق العلمي " .[2]

ومما ذكر في بعض كتب البلاغة :

" أن الجمهور يقسمون الخبر إلى قسمين هما الخبر الصادق والخبر الكاذب، الأول ما يطابق حكم الواقع والثاني ما لا يطابق حكم الواقع، وذهب بعضهم إلى أن الصادق ما يطابق حكمه اعتقاد المخبر، والكاذب ما لا يطابق حكمه اعتقاد المخبر "[1]...

وهكذا يجد المتتبع لهذه الظاهرة (الخبر والإنشاء) في تراثنا اللغوي تعمقا في تحليل مفاهيمها ضمن مباحث علم المعاني .

1- J.L..Austin , Quand Dire C'est Faire , Traduction Française De Gilles Lane Editions Du Seuil 1970, P153-154

2- شاهر لحسن ، السيمانتيكية و البرجماتية ،ص182 .

1- القزويني ، التلخيص في علوم البلاغة ، ص12 .

وفي تقديمه لتلك الأصناف السابقة بين أوستين أنها لا تشكل الوسائل الوحيدة التي يمكن أن يعتمدها المتكلم أثناء الكلام . " فهناك وسائل لغوية أخرى تضاف إلى الأفعال الإنشائية كالحكم (الكيفية) Mode ، أو التطويح Accent ، والنغمة Intonation وعطف النسق Conjonction وسلوك المتكلم العام (حركاته وإيماءاته) وحال الحديث أو القول " [2].

وما قدمه أوستين يعد بداية لوضع نظرية لأفعال الكلام، وقد ذكرت اعترافه السابق بأنه غير راض عما قدمه في هذا المجال لوضع نظرية شاملة يعتد بها، فهذه الانطلاقة تمهد لتحديد بعض المفاهيم لمن يأتي بعده من الباحثين كتلميذه سيرل .[3]

فجون سيرل John Searle –وهو فيلسوف أمريكي– يحتل موقع الصدارة بين أتباع أوستين، حيث أعاد تناول نظرية أستاذه و طورها وأهم ما جاء به :

" أن الفعل الإنجازي هو الوحدة الصغرى للاتصال اللغوي وأن للقوة الإنجازية دليلا يسمى دليل القوة الإنجازية، يبين لنا نوع الفعل الإنجازي الذي يؤديه المتكلم بنطقه للجملة، ويتمثل في نظام الجملة والنبر والتنغيم وعلامات الترقيم في اللغة المكتوبة، وصيغة الفعل، وما يسمى الأفعال الأدائية ". [4]

إلا أن سيرل لم يكتف بها فذكر أن الفعل الكلامي بالنسبة إليه أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط بالعرف اللغوي والاجتماعي .

فالقول في نظره شكل من أشكال السلوك الاجتماعي الذي تضبطه قواعد و قد حصر سيرل أربع قواعد أساسية لشروط الملاءمة وهي:[1]

- قاعدة المحتوى الإسنادي ← Règles du Contenu Propositionnel
- قاعدة التقديم ← Règles d'introduction
- قاعدة الإخلاص ← Règles de Sincérité
- القاعدة الأساسية ← Règles Essentielle

2- الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ،ص23 .

3- جون روجرز سيرل John Rogers Searle: فيلسوف أمريكي ولد سنة 1932 تلميذ أوستين ، اعتبر أن وحدة التواصل هي العمل اللغوي من أهم مؤلفاته : -Speech Acts , an Essay in The Philosophy of Language ,1969

- Expression and Meaning , 1997 .

- ينظر آن روبول و جاك موشلار ، ص244 .

4- محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة ، ص47 .

1- الجيلالي دلاش ، مدخل إلى اللسانيات التداولية ، ص26 .

ونقدم مثالا لتطبيق هذه الشروط على فعل " الكفاية " في الحديث القدسي التالي:

عن أبي الدرداء – رضي الله عنه – عن رسول الله صلى الله عليه وسلم – قال «**قَال الله تعالى : يَابْنَ آدَمَ صَلِّ لِي أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَكْفِكَ آخِرَهُ** ». [2]

فقاعدة المحتوى الطرف (ب) وهو ابن آدم يقدم عبادة لله –عزّ وجلّ– وهي الصلاة (ج)

أما القاعدة التمهيدية: أن صلاة أربع ركعات من أول النهار قد تفيد، لأن ابن آدم (ب) قادر على تأدية العمل .

قاعدة الإخلاص: الطرف (أ) وهو ربُّ العزة يريد حقا أن يؤدي ابن آدم هذا العمل وفيه حث على صلاة الضحى لأن ثوابها عظيم .

القاعدة الأساسية: الطرف (ب) يحقق العمل فيجازيه (أ) بالأجر والثواب الكبير ويكفيه يومه.

ويمكن صياغته بطريقة أخرى؛ حيث نجد في هذا الحديث القدسي أن التلفظ بالكلمات هو إنجاز فعل التلفظ، (الجمل الواردة في الحديث)، وفعل قوة التلفظ هو الأمر: صل أربع ركعات من أول النهار، وإنجاز فعل القضية هو الالتزام بالصلاة المذكورة، وفعل أثر التلفظ هو: أكفك آخره، الذي يجسد النتائج والتأثيرات التي تحدثها الأفعال السابقة على أفكار وأفعال ومعتقدات المستمع .فيمكننا القول: إن بالحجاج نقنع شخصا ما، وبالإنذار نخيفه أو ننبهه، وبالطلب نجعله يعمل شيئا ما، وبإعلامنا له نقنعه و نثقفه.

هذا و قد حاول سيرل أن يحصر أفعال الكلام في اللغة عبر تصنيفه[1] لها في خمسة أنماط رئيسة :

1- أفعال تمثيلية Représentatives: وهي الأفعال التي تلزم المتكلم بقصد القضية المعبر عنها ومن أمثلتها أفعال التقرير والاستنتاج

2- رواه الترمذي بسند صحيح.

1- ينظر جون أوستين و جون سيرل، أفعال الكلام، ترجمة منصور العجالي،2003، http://www.alim baratur .com ص03 .

2- أفعال توجيهية Directives: وهي الأفعال التي تمثل محاولات المتكلم لتوجيه المستمع للقيام بعمل ما ومن أمثلتها أفعال الطلب والسؤال .

3- أفعال التزامية Commisives : وهي الأفعال التي تلزم المتكلم بالنهوض بسلسلة من الأفعال المستقبلية ومن أمثلتها أفعال العرض والوعد والوعيد

4- أفعال تعبيرية Expressives: وهي الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية المتكلم ومن أمثلتها الشكر والاعتذار والترحيب والتهنئة .

5- أفعال إعلانية Déclaratives: وهي الأفعال التي تحدث تغيرات نحوية في نمط الأحداث العرفية التي غالبا ما تعتمد على طقوس اجتماعية تتسم بالإطالة كإعلان حرب أو طقوس زواج أو أفعال طرد وإقالة من العمل. حيث تحمل تعبيرات إلى العالم بالقول[2].

وهذه الأفعال ناجحة إذا طابق محتواها القضوي العالم الخارجي .

كما أكد سيرل وجود أفعال مباشرة وأفعال غير مباشرة –وهذه هي التعديلات التي أدخلها على نظرية أوستين في تصنيف الأفعال الكلامية– فالفعل المباشر في نظره هو أن يكون مراد المتكلم وما يقوله مطابقا لما يعنيه، أما الفعل غير المباشر فهو ما خالف ذلك، وقد ناقش سيرل عددا وفيرا من الأفعال الإنجازية غير المباشرة ولاحظ أن الغاية من استخدامها هو " التأدب في الحديث "، " حيث ينقل المتحدث إلى المستمع أكثر مما تحمله الكلمات اعتمادا على الخلفية المعرفية المشتركة بينهما سواء لغوية أم غير لغوية، إضافة إلى قدرة المستمع على الاستنتاج والتعقل والتفكير، ويثير مفهوم الأفعال الكلامية غير المباشرة مسألة إمكانية قول شيء من جانب المتحدث يحمل ما يقول من معنى كما يحمل معنى إضافيا آخر "[1] فلو أن الأستاذ قال للطالب: هل تسمعني شيئا مما حفظته ؟ ففي مثل هذه الحالة تعد القوة الأساسية للتعبير هي طلب الحفظ، في حين إن القوة الثانوية أو الحرفية للتعبير هي جملة استفهامية. وثمة أساليب

2- المرجع نفسه ، ص03 .

1- علي عزت ، الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب و تحليل الخطاب ، شركة أبو الهول للنشر ،ط1 ،1996 ، ص52 .

يمكن اتباعها في دراسة تداولية الخطاب اقترحها مجموعة من اللغويين أمثال: ساكس وبراون ويول وفان دايك وغيرهم .

ومن بين هذه الأساليب :

- تبادل الأدوار بين المتخاطبين، ويقصد بها التنسيق أو التنظيم التتابعي أي توزيع الكلام عبر متخاطبين، فيطرح ساكس فكرة " الأزواج المتقاربة " ويطلق على ثنائيات التعبير المتلازمة مثل: السؤال–الجواب، التحية –رد التحية، الدعوة– الاستجابة...
- علامات الخطاب: وتتضمن استخدام مجموعة من المفردات لا يمكن أن تفسر بالرجوع إلى النحو التقليدي أو الدلالة التقليدية للجمل المفردة، مثل: من فضلك، بالتأكيد، شكرا .
- ألقاب التخاطب: وتكشف هذه الألقاب عن علاقة الأدوار بين المتخاطبين من حيث المركز الاجتماعي والسيطرة والمودة والألفة ودرجة البعد أو الاقتراب والصداقة...الخ .
- المبادئ التعاونية في الخطاب: هي مبادئ تتحكم في أصول الخطاب التي اقترحها بول غرايس وقد ذكرناها سابقا. [2]

وقد أثبتت الدراسات أننا نتواصل بالأفعال الإنجازية غير المباشرة أكثر من تواصلنا بالأفعال الإنجازية المباشرة،«فالأفعال الإنجازية التي لا تستخدم إلا مباشرة قليلة جدا وهي تقتصر في الغالب على ما يسمى الأفعال المؤسساتية أو التشريعية كالتوكيل والتفويض والوصية والتوريث والإجارة ونحوها،لأن الأفعال الكلامية إن استخدمت هنا غير مباشرة فسوف تؤدي إلى اللبس وضياع الحقوق»[1].

فإذا طرح سؤال كيف يقول المتكلم شيئا ويعني شيئا آخر ؟ ثم كيف يكون ممكنا أن يسمع المخاطب شيئا له معنى ويفهم منه معنى آخر ؟ وقد توصل سيرل –كما رأينا سابقا– إلى حل هذا الإشكال بمبدأ التعاون الحواري بين المتكلم

2- ينظر المرجع نفسه ، ص53 .

1- محمود أحمد نحلة ،آفاق جديدة ، ص82 و 83 .

والسامع، ونوضح ذلك من خلال هذا النموذج الحواري بين طالب وزميله :

أ- هل طالعت الكتاب الذي أعرتك إياه ؟

ب-لقد انشغلت بمهام كثيرة .

فالفعل الإنجازي: " انشغلت " هو ليس جوابا مباشرا عن السؤال، لكن يوصلنا إلى استنتاج شيئين؛ الأول مباشر وحرفي وهو الإخبار بكثرة المهام التي كان منشغلا بها العنصر (ب)، والثاني غير مباشر وهو التأسف عن عدم تمكنه من مطالعة الكتاب." فالفعل الإنجازي غير المباشر بنوعيه محول عن الفعل الإنجازي المباشر ومن ثم فإن الفعل الإنجازي غير المباشر يتضمن الفعل الإنجازي المباشر ولا ينعكس ". [2]

وهكذا نرى في الفعل الكلامي غير المباشر أن المتكلم يعني شيئا إضافيا على ما تعنيه الجملة، فالمنطوق يشمل معنى الجملة إضافة إلى شيء زائد وراءها، ويندرج هذا ضمن الاستعارة من زاوية تداولية التي خصص لها سيرل فصلا كاملا من كتابه " (التعبير والمعنى) الذي نشره سنة 1979، " ومشكلة الاستعارة عنده هي جزء من مشكلة لغوية عامة هي تفسير الكيفية التي ينعزل فيها معنى المتكلم عن معنى الجملة أو الكلمة... وقد بلور مشكلة الاستعارة في فهم العلاقة بين معنى الكلمة أو الجملة من ناحية ، ومعنى المتكلم أو المنطوق من ناحية أخرى ". [1]

وبين سيرل أنه لابد أن يشارك المتكلم والسامع في مجموعة عامة من المبادئ حتى يكون التواصل ممكنا فإذا قال شخص: (صديقي بحر) فالمستمع يعلم أن هذه الجملة لا يمكن أن تكون حرفية، وعليه أن يستحضر معرفته الواقعية كي يعرف السمة المميزة للبحر، فتكون الأقرب، ومن سمات البحر مثلا : الاتساع والعمق والكثرة والسخاء ..الخ

كما أن هناك أمارات أخرى غير معجمية كالنغمة والبسمة وملامح الوجه وحركة اليدين... تساعد على تقريب المعنى .

2- المرجع نفسه ، ص84 .

1- أحمد حسن صبره و سعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، دار المعارف الجامعية، ط$_2$،2002 ص57.

2 - ينظر طه عبد الرحمان ، اللسان و الميزان ، ص312 .

وهذه الأفكار التي طرحها سيرل في بحثه لها بذور في البلاغة العربية وأول من استخدم آليات حجاجية لوصف الاستعارة هو عبد القاهر الجرجاني، فللاستعارة جانب عملي تداولي قد غاب عن البلاغيين والنقاد كما بينه طه عبد الرحمان بقوله: " حقا إن الاستعارة هي أبلغ وجود تقيّد اللغة بمقام الكلام، ويتكون هذا المقام من المتكلم والمستمع ومن أنساقها المعرفية والإرادية... وهذا التقيد يجعل الاستعارة تدخل في سياق " التواصل الخطابي " باعتبارها نسقا من القيم والمعايير العملية " [2]

وإن شغلت الاستعارة سيرل فهو يراها ليست الشكل الوحيد للتعارض بين معنى المتكلم ومعنى الجملة، فهناك المفارقة والأفعال الكلامية غير المباشرة .

فالاستعارة هي الجملة أو العبارة التي استخدمت فيها بعض الكلمات مجازيا .

ومما سبق نتوصل إلى أن الدراسات التي تناولت التداولية اقتربت في تحديد مجالها في جعلها دراسة للكيفيات التي تجعل الخطاب ناجحا، ثم تحديد المبادئ التي تضمن استمرار هذا النجاح [3]

وفي خضم ما تناولناه من طرح بعض الآراء والأفكار حول التداولية يقودنا إلى التذكير بوجود بذور هذا الطرح في تراثنا النحوي العربي والبلاغي، لذلك علينا أن نكون على وعي دائم في تعاملنا مع الفكر القادم إلينا من الغرب، فلا نكتفي بالاستيراد والتبني، وإنما نحاور ونجادل، وننطلق من واقعنا الثقافي الراهن حتى يكتسب حوارنا مع الآخر أصالته وديناميته، وفي هذا الموضوع يقول نصر حامد أبو زيد: « ...فكيف نربط بين العلم الجديد وبين التراث العربي ؟ وما قيمة هذا الربط ؟ أهو وهم التأصيل الذي يتنازعنا، فكلما أتتنا صيحة من الغرب هرعنا إلى التراث نلوذ به ونحتمي كأن المعرفة لا تستقر في وعيينا إلا إذا كان لها سند من تراثنا حقيقي أو وهمي » [1]

ومن هنا يؤكد ضرورة العودة إلى التراث لأنه ليس قطعة عزيزة من التاريخ فحسب ولكنه دعامة من دعامات وجودنا، وفي نفس الوقت ألا نقع في

3- ينظر معمر حجيج ، التداولية في اللسانيات و الدراسات الأدبية ، مجلة الأثر ، العدد 2، جامعة ورقلة، 2003 ،ص246 .

1- نصر حامد أبو زيد ، إشكالية القراءة و آليات التأويل ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ،ط6 ،2001 ،ص 51 .

أسره فعلينا أن نعيد فهمه وتفسيره وتقويمه، فالذات الثقافية لا تدرك نفسها إلا بفهم تراثنا أولا ثم مواجهة الآخر للتحاور معه .

والحديث عن التداولية يتجلى كذلك في التراث البلاغي القديم، فهناك علاقة وطيدة بينهما، فيعرف الباحث الألماني (لوسبرج Lausberg) البلاغة «بأنها نظام له بنية من الأشكال التصورية واللغوية، يصلح لإحداث التأثير الذي ينشده المتكلم في موقف محدد، وبنفس الطريقة يرى (ليتش Leitch)، أن البلاغة تداولية في صميمها؛ إذ إنها ممارسة الاتصال بين المتكلم والسامع بحيث يحلان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محددة للتأثير على بعضهما. [2]

وعلى هذا الأساس فالبلاغة والتداولية تتفقان في اعتمادهما على اللغة أداة لممارسة الفعل على المتلقي، وما يهم في التحليل التداولي هو الخطاب وفاعله، كما نجد الناقد اللغوي ريتشاردز يعني بتعريف البلاغة بأنها " علم فلسفي ينحو إلى السيطرة على القوانين الجوهرية لاستعمال اللغة ". [3]

فالتركيز على استخدام اللغة يجعل البلاغة تمضي على مستوى القول من حيث الفهم والتواصل...ثم يمضي ريتشاردز، فيحدد هدف البلاغة بأنها: " دراسة سبل الفهم وعدم الفهم عن اللغويين على أن الخاصية الفلسفية لهذا العلم عنده تتأكد من الاهتمام الشديد بجانب الاتصال أكثر من الاهتمام بجانب الإقناع أو التأثير أو الإمتاع " [1].

وفي هذا الموضوع يقول طه عبد الرحمان " قد تزدوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضار الأشياء...كأنه يراها رأي العين " [2].

وكانت البلاغة في القديم هي فن الإقناع ، حيث تقوم على تحليل الأقوال الخطابية وسبل التأثير على المتلقين، أي الاهتمام ببنية القول للوصول إلى النتائج المتوخاة منها .والبلاغة هي الإبلاغ أو التوصل إلى موضوع الاتصال.

2- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان ،ط ، 1996 ،ص 123 -124 .
3- المرجع نفسه ، ص110 .
1- المرجع السابق ، ص191.
2- طه عبد الرحمان ، في أصول الحوار و تجديد علم الكلام ، ص38 .

يقول أبو هلال العسكري: " البلاغة كل ما تبلغ به من المعنى قلب السامع فتمكنه في نفسه لتمكنه في نفسك مع صورة مقبولة ومعرض حسن " [3] .

وفي هذا القول ينحو العسكري إلى الكلام الأدبي البليغ.

وأشار محمد العمري إلى فكرة هامة وهي مراعاة المقام ومقتضى الحال في البلاغة العربية،وقد ذهب البلاغيون العرب إلى إدراج هذه الفكرة ضمن ملاحظات كثيرة فيما ينبغي للخطيب أن يكون عليه أو يراعيه من أحوال المستمعين، ونرى أن التداولية لها ارتباط وثيق بهذه الفكرة ، فربط صلاح فضل بين مفهوم التداولية بوصفها العلم الذي يعنى بالعلاقة بين النص وعناصر الموقف التواصلي المرتبطة بشكل منظم، وبين فكرة " مقتضى الحال " حيث قال: " ويأتي مفهوم التداولية هذا ليغطي بطريقة منهجية منظمة المساحة التي كان يشار إليها في البلاغة القديمة بعبارة " مقتضى الحال " وهي التي أنتجت المقولة الشهيرة في البلاغة العربية " لكل مقام مقال " [4]

ويراعى في مقتضى الحال عدة جوانب منها: معرفة السياق الذي وردت فيه الفكرة، وتحديد الغاية منها، وبيان صاحب الحال إن كان المتكلم أو السامع أو هما معا، ثم مُراعاة الناحية الاجتماعية من حيث الألفاظ فلا تستخدم عبارات غير مفهومة فتنعدم فائدة الحوار كما بين ذلك أبو هلال العسكري:" وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتنعدم منفعة الخطاب ". [1]

وبين العسكري فائدة المقام في عملية التبليغ، وجعله العنصر الثالث بعد اللفظ والمعنى، وسلك في ذلك ثلاثة عناصر: الحال والمقال والمقام. وهذا عكس ما جاء في الدراسات الحديثة بتقسيم النص إلى سياق مقالي Contexte Verbal وسياق مقامي Contexte Situationnel .

وقد وضع الكلام أساسا للتواصل بين الناس غايتهم في ذلك الفهم و الإفهام.

3- أبو هلال العسكري(أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل) ، كتاب الصناعتين(الكتابة و الشعر)، تحقيق مفيد قميحة،دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان ،ط2 ،1989 ،ص19 .

4- صلاح فضل ، بلاغة الخطاب و علم النص ، ص26 .

1- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ،ص 39 .

كما أن مطابقة الكلام لمقتضى الحال لابد أن يستدعي المتلقي ليكون شريكا في العملية التواصلية بالنظر إلى حالاته الإدراكية المختلفة، ولم يقتصر البلاغيون على وضع المقام في إطار خارجي فحسب بل تحركوا به إلى داخل التركيب عن طريق مقولتهم الدقيقة: " إن لكل كلمة مع صاحبتها مقاما "، وهذه المقولة تجعل المقام الداخلي كائنا متحركا .

وإذا كان المقام يشكل مفهوما أساسيا لكل دراسة تهتم بالجانب التبليغي، فنجد فندرليش Wunderlich، قد قام بحصر صارم للعناصر المكونة للمقام وهي: «- المشاركون في التبليغ ←——— المتكلمون والمستمعون .

- مكان التفاعل ←——— الوسط الذي يحصل فيه .
- القول ←——— الصفات اللغوية وشبه اللغوية وغير اللغوية
- مقاصد المتكلمين
- ترقبات كل من المتكلم و المستمع
- مساهمة المشاركين في الموضوع ←——— معارفهم اللغوية، المعايير الاجتماعية، شخصياتهم وأدوارهم. لذلك فالمقام هو الذي يتشكل من مجموعة من شروط إنتاج القول، وهي الشروط الخارجية عن القول ذاته". [1]

ونشير إلى أن البلاغيين العرب أدركوا أهمية المقام وفرقوا بين المعنى المقالي والمعنى المقامي، وبخاصة في كلامهم عن تفسير آيات القرآن الكريم، وعن حال المتكلم بالقرآن والمنزل عليه والمخاطب به، وتطورت فكرة المقام لدى اللسانيين المحدثين وبخاصة أصحاب المدرسة الاجتماعية الانجليزية حيث يؤكد جون فيرث John Firth (1890- 1960) وتلاميذه على دور المقام في تحديد المعنى والاستعمال الفعلي للكلمة، وللوصول إلى معنى كلمة أو معنى لغوي يجب أن نلتزم بما يلي :

« - تحليل السياق اللغوي صوتيا وحرفيا ونحويا ومعجميا
- بيان شخصية المتكلم والمخاطب والظروف المحيطة بالكلام
- بيان نوع الوظيفة الكلامية: مدح، هجاء، طلب.

1- الجيلالي دلاش ، مدخل اللسانيات التداولية ، ص40 .

- بيان الأثر الذي يتركه الكلام كالامتناع أو التصديق أو التكذيب أو الفرح أو الألم » .[2]

وقد اهتم اللسانيون التداوليون بالمقام حتى سميت التداولية بالمقامية –كما سبق ذكره– وحللوا النصوص تحليلا شاملا يجمع بين المكون اللغوي الذي يتمثل في التراكيب أوالجمل التي ينطق بها المتكلم، والمكون غير اللغوي الذي يتمثل في المصاحبات اللغوية أو الملامح شبه اللغوية المصاحبة لنطق المتكلم مثل النبر والتنغيم ومعدل الأداء الكلامي والتعبيرات والحركات الجسمية. [3]

ومهما كانت الجملة بسيطة فحين ينطقها المتكلم بطريقة معينة نفهم مقصودها سواء أكان أمرا أم طلبا أم رجاء أم سخرية أم غير ذلك، فإذا تلفظ متكلم بالعبارة الآتية : " اخرج " نفهم منها الأمر، أو " ألا تخرج " نفهم منها الرجاء، أو " تفضل بالخروج "، فهنا الالتماس أو" لم لا تخرج ؟ " فهنا السؤال، فهذه القرائن كلها تحدد قصد المتكلم من كلامه بمراعاة حال المتكلم والمخاطب وسياق الكلام أو كما يقول السكاكي:« ...لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية ، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم...، ومقام الجد يغاير مقام الهزل...، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار... ». [1]

وينطبق هذا القول على ما ذكرناه في الإشارات الاجتماعية التي وضعت للتواصل المباشر بين المتخاطبين، حيث يتعامل الناس مع بعضهم وفقا للحالة التي هم عليها؛ سواء أكان المقام رسميا أم أخويا، أم المخاطب ذا جاه أو سلطان أو عالم أو كبير أو صغير...كل حسب مقامه .

ويوضح العسكري ذلك في قوله :" وينبغي أن تعرف أقدار المعاني فتوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات فتجعل لكل طبقة من ذلك كلاما

2- كريم زكي حسام الدين ، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة ، ص47 .
3 - ينظر المرجع نفسه ، ص252 .

1- السكاكي(أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر) ، مفتاح العلوم ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ط1 ،1937 ، ص 80 .

ولكل حال مقاما حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات وأقدار المستمعين على أقدار الحالات ". [2]

فدلالات المنطوق تتحدّد أصلا بتعيين أفعال الكلام التي نشأت على يد أوستين وسيرل، والتي تمثل القصد الحقيقي للمتكلم حيث يتم التواصل بين المتخاطبين، ولا نتوصل إلى المعنى التداولي لعبارة ما، إلا بوجود مجموعة عوامل المقام الذي قيلت فيه، وقد ورد في التنزيل الحكيم: ﴿ **الحَجُّ أَشْهُرٌ مَعلُومَاتٌ** ﴾ [3]، فالكلام هنا هو كلام الله، والخطاب موجه للمسلمين، والحج ركن من أركان الإسلام الخمسة له شروط وأركان محددة ، تؤدي هذه الفريضة في أشهر معينة من السنة الهجرية ويكون ذروتها الوقوف بعرفة في اليوم التاسع من ذي الحجة، ويختلف الحج في الإسلام عن مفهوم الحج في الديانات والحضارات الأخرى،وهذا يوضع المعنى ضمن الإطار الحضاري [4].

فالإحاطة بالمقام تستدعي في كثير من الأحيان الإحاطة بالمرجعية الثقافية وعناصرها المادية والمعنوية والتاريخية و الدينية .

أما السياق فهو جزء من المقام وله أهمية بالغة في تحليل الخطاب المكون من مجموعة من الجمل المتراصة التي تشكل نصا، يقول مارتيني: " خارج السياق لا تتوفر الكلمة على المعنى " وقد تبنى كثير من اللسانيين منهج النظرية السياقية منهم العالم فينشتين Wittgenstein الذي ينفي التركيز على دور العبارة في اللغة، بل على دور اللغة في الحياة البشرية فللغة دور فعّال في حياتنا، إننا نستعملها كي نأمر وكي نستفهم، ونسأل، وكي نشكر بعضنا البعض، وكيف نتجادل ونناقش...، وما يحدد العبارة اللغوية هو الكيفية التي تستعمل بها والأغراض التي توظف لها ويصرح قائلا: " لا تفتش عن معنى الكلمة وإنما عن الطريقة التي تستعمل فيها " [1] ويريد إخراج استعمالات اللغة من المحيط الساكن إلى محيط الكلام المتحرك،

2- أبو هلال العسكري ، كتاب الصناعتين ،ص 153 .
3- سورة البقرة ، الآية 197 .
4- ينظر شاهر الحسن ، علم الدلالة السيمانتيكية و البراجماتية ، ص 163 .
1- ينظر عبد المجيد جحفة ، مدخل إلى الدلالة الحديثة ، ص 27 .
2- ستيفن أولمان ، دور الكلمة في اللغة ترجمة كمال بشر ،دار غريب للطباعة و النشر ، القاهرة ،ط12، 1997، ص 70

ومعنى الكلمة يكمن في استخدامها، والسياق يحمل حقائق إضافية تشارك الدلالة المعجمية للكلمة في تحديد الدلالة العامة التي قصدها الباحث، يقول ستيفن أولمان: " السياق وحده هو الذي يوضح لنا ما إذا كانت الكلمة ينبغي أن تؤخذ على أنها تعبير موضوعي صرف، أو أنها قصد بها –أساسا– التعبير عن العواطف و الانفعالات ".[2]

ونرى بعض الكلمات المستعملة في الحياة اليومية العادية نحو: "الوحدة، النصر" فتشحن بمضمونات عاطفية غير متوقعة في المواقف الانفعالية، كما أن كلمة (عين) فالسياق وحده يبين لنا ما إذا كانت تعنى منبع الماء أو حاسة النظر أو معاني أخرى .

فدلالة الكلمة تتعدد بتعدد السياقات وتنوعها وقد توصل بعض الباحثين إلى التمييز بين أربعة أنواع من السياق :[3]

- السياق اللغوي ويشرف على تغيير الكلمة تبعا لتغيير يمس التركيب اللغوي؛ كالتقديم والتأخير في عناصر الجملة.
- السياق العاطفي الانفعالي فهو يحدد دلالة الصيغة أو التركيب من معيار قوة أو ضعف الانفعال، فبالرغم من اشتراك وحدتين لغويتين في أصل المعنى فإن دلالتها تختلف .
- سياق الموقف أو المقام وهو يعني الموقف الخارجي الذي يمكن أن تقع فيه الكلمة فتتغير دلالتها تبعا لتغير الموقف أو المقام وسمي بالدلالة المقامية .
- السياق الثقافي وهو القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، إذ تأخذ ضمنه دلالة معينة، وهي المرجعية الثقافية ضرورية عند أهل اللغة الواحدة لكي يتم التواصل والإبلاغ .

كما توجد جوانب أخرى تتضح معها دلالة الكلمة كالوضع الذي يحدث فيه التواصل، والملامح الفيزيولوجية والنفسية للمتكلم التي تصاحبه، وبذلك يصرح " فيرث " بأن المعنى لا ينكشف إلا بوضع الوحدة اللغوية في سياقات مختلفة .

3- منقور عبد الجليل ، النظريات الدلالية الحديثة ،http://www.awu.dam.org 2001 ،ص 51 .

ولم تقتصر أهمية السياق على تحديد معنى بعض الوحدات اللغوية فقط وإنما في تحديد معنى الكلمة أيضا، ومنها يؤدي إلى بيان دلالة الجمل، كما أن السياق الاجتماعي متمم للمعنى، لا يمكن الاستغناء عنه في تفسير اللغة .[1]

والسياق لم يكن وليد المدارس الحديثة وحدها، بل اعتنى علماء العربية بذلك، فالنحاة العرب يشيرون إلى تأثر دلالة السياق اللغوي وسياق المقام الملابس له على العناصر النحوية من حيث الذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير وغير ذلك .

فسبويه(ت180هـ) يجمع في كتابه بين التفسير اللغوي وملاحظة السياق ... ويتسع في تحليل التراكيب إلى وصف المقامات الاجتماعية التي تستعمل فيها وما يلابس هذا الاستعمال من حال المخاطب وحال المتكلم وموضوع الكلام... فتراه يقف على الجملة الواحدة فيحكم عليها في موقف من الاستعمال بأنها خطأ، وفي موقف آخر بأنها صواب، ومن الناحية الشكلية هي جملة نحوية جائزة، لكن اللغة عنده لم تكن تنفعك عن ملابسات استعمالها ومقاييس اللغة عنده تستمد من معطيات النظام الداخلي للبناء اللغوي كما تستمد من معطيات السياق الاجتماعي[1] .

ومثلما أن السياق ضروري كمبدأ للقراءة الصحيحة، فإنه ضروري للكتابة أيضا، والكلام لا يمكن فصله عن سياقه الذي يعرض فيه .

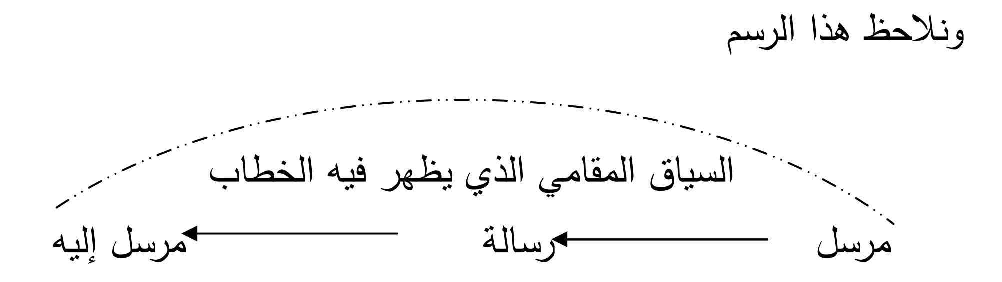
يقول أولمان: " إن نظرية السياق، إذا طبقت بحكمة، تمثل حجر الأساس في علم المعنى " [2].

ولا نعرف معنى الكلمات إذا بقي كامنا في الأذهان، فنطقها ضمن التراكيب يحدد مدلولها ولسياق الخطاب عناصر أساسية حددها هايمس D.Hyms وهي: المتكلم والمخاطب والمشاركون والموضوع والقناة والمقام والوضع وجنس الرسالة والحدث والمقصد، وليس ضروريا الاحتفاظ بكل هذه العناصر، وفي نظر براون ويول Brown Yule يمكن الاكتفاء بالمتكلم

1- ينظر صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق ، دار قباء للطباعة والنشر ،ط1 ،2000 ، ص103 .
1- ينظر رشيد بلحبيب ، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، http://www.awu.dam.org ، 1999،ص03 .
2- ستيفن أولمان ، دور الكلام في اللغة ، ص73 .

والمخاطب والرسالة والزمان والمكان ونوع الرسالة، وإذا توفرت هذه المكونات الأساسية في أي خطاب تجعل الرسالة واضحة ومفهومة [3].

ونلاحظ هذا الرسم



يحيلنا هذا إلى الرسم البياني المشهور الذي وضعه رومان جاكوبسون Roman Jakobson (1896–1982) والمتضمن العناصر الستة الأساسية للتواصل الكلامي، وأن كلا من هذه العناصر يولد وظيفة لغوية مختلفة .

المقـام

(الوظيفة المرجعية)

المرسل	**الرسالة**	**المرسل إليه**
(الوظيفة التعبيرية)	(الوظيفة الشعرية)	(الوظيفة الإفهامية)

الاتصال

3- ينظر محمد خطابي ، لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي ، بيروت ،ط1 ،1991 ، ص 297.

(الوظيفة الانتباهية)

الوضع

(وظيفة اللغة الواصفة)

ونرى أن الوظيفة المرجعية Fonction Référentielle هي أساس كل تواصل، فهي تحدد العلاقات بين الرسالة والشيء أو الغرض الذي ترجع إليه، وهي أكثر وظائف اللغة أهمية في عملية التواصل ذاتها...في حين لا تلعب الوظائف الأخرى سوى دور ثانوي. [1]

فنتوصل إلى أن العلاقة بين التداولية والسياق والمقام والرسالة علاقات وثيقة، فهي تعنى بالشروط اللازمة لكي تكون الأقوال اللغوية مقبولة وناجحة وملائمة في المقام التواصلي الذي يتحدث فيه المتكلم .

" وتعنى التداولية بالشروط والقواعد اللازمة للملاءمة بين أفعال القول ومقتضيات المقامات الخاصة به، أي العلاقة بين النص والسياق، ويلاحظ باستمرار تلك العلاقة الوثيقة بين التداولية والدلالة والنحو، حيث يجمع بينها جميعا مستوى السياق المباشر مما يجعل التداولية قاسما مشتركا بين أبنية الاتصال النحوية والدلالية والبلاغية "[1] ويشير الجاحظ أن الوظيفة الأساسية لكل اتصال لغوي هي الفهم والإفهام، ولا يمكن للمعنى أن يتضح إلا باستحضار المقام الحي والمتكلم الفطن والمخاطب اليقظ، فتنجح العملية التواصلية وترتقي أعلى القمم البلاغية، وهذا غاية التداولية .

" والتداول هو –في الحقيقة– التواصل الفعّال الذي يعبر عن الغرض ويبلغ المقصود بسهولة ويسر..." والمفاهيم المميزة للحقل التداولي هي مفهوم الفعل ومفهوم السياق ومفهوم المقام ومفهوم الإنجاز..." [2]

1- فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسون، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت،ط1 1993 ، ص67.

1- سعيد حسن بحيري ، علم لغة النص المفاهيم و الاتجاهات، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان ط1 ،1997، ص288 .

2- بشير إبرير ، سمات التداول في الخطاب السياسي ، خطاب الرئيس بوتفليقة بمناسبة جائزة البابطين الثقافية نموذجا ،مجلة العلوم الاجتماعية و الانسانية،جامعة باتنة ،العدد 10 ،2004 ،ص42 .

فكل من المقام والمقال متمم للآخر وكل منهما يفترض الآخر مسبقا، والعبارة تحمل غموضا خارج السياق، أما إذا استخدمت في سياق معين فإنها تصبح أكثر وضوحا. فالمقام عامل مهم في تحديد محتوى القضية .

وإذا عرفنا أن هدف التداولية هو التأثير في المتلقي لإقناعه بإنجاز عمل ما، فهناك وظيفة أخرى تعد من العناصر الأساسية في الحقل التداولي وهي الوظيفة الحجاجية Argumentative ، وقد برز الباحث البلجيكي س. بيرلمان C.Perelman فأطلق مصطلح " البلاغة الجديدة The New Rhetoric " سنة 1958 على دراسة تتناول الحجاج Argumentation ، الذي يهدف إلى بحث سبل التأثير على أشخاص المتلقين واستمالة عقولهم، ويهتم الحجاج ببنية القول، فمظاهره وحججه نراها على كافة المستويات، وفي شتى الميادين، نجد هذه المظاهر والحجج في المناقشات العائلية كما نجدها في الحوارات بشتى أنواعها العادية أو المهنية، وعلى الخصوص في المحاجات الأيديولوجية [3]

فما مفهوم الحجاج ؟

« يشير استخدام مادة (Argue) في الانجليزية الحديثة إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره؛ وذلك بتقديم الأسباب أو العلل Reasons التي تكون حجة Argument مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما ». [1]

والحجاج عملية اتصالية دعامتها الحجة المنطقية لإقناع الآخرين والتأثير فيهم، والمحرك لهذه الوظيفة هو الاختلاف ، فلا يكون الحجاج فيما هو يقيني أو إلزامي، وإن يكون الحجاج –كما يقول– بيرلمان: " فيما هو مرجح وممكن ومحتمل، نميز بين الإجراء الطبيعي والإجراء المفتعل، فالإجراء هو طريقة العمل للوصول إلى نتيجة محددة علميا وعمليا، وإذا شابته الانحرافات اعتبر مفتعلا ومتكلفا[2] وعندما يجد المتلقون أن الخطاب غريب عنهم وأن قيمه لا تعنيهم يقل

3- ينظر عدنان بن ذريل ، في البلاغة الجديدة ، http://www.awu.dam.org، دمشق ،جوان2004 ،ص 02 .
1- ينظر جميل عبد المجيد ، البلاغة و الاتصال ،دار غريب للطباعة و النشر و التوزيع ، القاهرة ،ط1 ،2000 ،ص105 .
2- ينظر المرجع نفسه ، ص 106 .

تجاوبهم ويتهمونه بأنه مجرد (كلمات) وكذلك الخطيب الذي يتكلف في أقواله ويتصنع فتفقد كلماته فعاليتها الحجاجية وتصبح دون تأثير .
فالحجـاج جـنس خـاص مـن الخطـاب، يعـرض فيهـا المـتكلم دعـواه مدعومـة بـالتبريرات قصـد إقنـاع الآخـر والتـأثير فـي موقفـه أو سـلوكه أو اسـتمالته إلـى القضية المعروضة عليه.

ففي الحجاج كما في التداولية ترتبط الفكرة بالعمل، فيشترك في صنعها المتكلم والمستمع وذلك في موقف متعاون ومتفاهم بين الطرفين، وهذا التصور لا يستوعب جميع أنماط الخطاب الحجاجي، وإنما يستوعب نمطا واحدا وهو: حوار الإقناع – كما يرى دوجلس Douglas – « لو دخلت أنا وأنت في حوار إقناع، فإن واجبي محاولة إقناعك برأيي انطلاقا من مقدمات أنت تسلم بها أو تقبلها، وواجبك محاولة إقناعي برأيك انطلاقا من مقدمات أسلم بها أو أقبلها » [3]

وقد يلجأ أحد المحاورين إلى دعم رأيه بوسائل إقناع تجعل الطرف الآخر يتجاوب معه، ويسلم بحجته كأن يأتي بأدلة علمية يقبلها المشارك .
وتبقى للحوار الحجاجي أنماط أخرى كالمشاجرة الشخصية التي تعد من أدنى مستويات الحجاج لما فيها من تجاوزات غير أخلاقية وتتسم بالانفعال والهيجان .

والنمط الثاني هو المناظرة وفيها يسعى كل طرف إلى التأثير على الآخر، وتتسم بالنزاع والجدل، ويكون الحكم للمتتبعين من قضاة أو متفرجين، والفوز لمن قدم أفضل الأدلة والنوع الثالث هو التحقيق: وهو البحث عن أدلة خاصة بواقعه ما، حتى يصل إلى الدليل القاطع الذي يخوله كسب القضية .
كذلك نجد المفاوضة، يسعى كل طرف إلى مكسب شخصي عن طريق المساومة أو المقايضة. [1]

ونرى في هذه الأنماط الأربعة أن المحور الأساسي في الوظيفة الحجاجية هو المتلقي حيث توصلت البلاغة الجديدة إلى النظر إليه سامعا وقارئا ومناقشا ومعترضا، يقول بيرلمان: " إن الجمهور اليوم ليس فقط جمهور الميادين الواسعة التي كان الخطباء يتوجهون إليه بأقوالهم الخطابية، أي أنه ليس مجرد

3- المرجع نفسه ، ص 112 .
1- ينظر، المرجع السابق ،113 .

جمهور استماع إلى خطيب يتحدث في ساحة عامة؛ وإنما هو جمهور القراءة، أي هذه الشريحة الاجتماعية الواسعة من القراء ذوي الثقافات المختلفة، وما هم عليه من مستويات، مما يتطلب من الباث للخطاب الوعي لوظيفته... ». [2]

ونجد من وسائل الإقناع في الخطاب الحجاجي بعض الإجراءات الأدبية واللغوية التي يعمد المتكلم إليها لتعزيز تواصله مع المتلقي ليحقق التأثير والاستمالة، كانتقاء بعض المفردات والتراكيب لإثارة المشاعر والانفعالات، كذلك أسلوب التكرير الذي يؤدي إلى زيادة الحضور أي يجعل الموضوع حاضرا في الذهن، والمحاكاة الصوتية التي تستحضر الأشياء، واللجوء إلى الاقتباس والتلميح والتضمين، كاستدعاء الشخصيات التراثية والوقائع التاريخية التي تعزز الاتصال، وتكون فاعلة في نفوس المتلقين .

والحجاج عند العرب « هو الاحتجاج والجدل والجدال والمجادلة، يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي، فضلا عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في الحياة العقيدية والسياسية في البيئة العربية الإسلامية، وفضلا عن اعتماد البنية الحجاجية في الخطاب العلمي البلاغي، على نحو ما جاء في دفاع عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) عن إعجاز القرآن الكريم بإقناع الناس بفكرة النظم، مما طبع دلائله بطبيعة حجاجية واضحة ». [1]

ويجادل الجاحظ في كتابه (البخلاء) أن يعدل من طريقة القارئ في النظر إلى مسألة الشح من خلال عرضه لوجهات نظر متباينة حول هذا الموضوع، فهو يشرح لنا كيف يكون البخل صلاحا والشح اقتصادا، ويكاد القارئ يوافقه الرأي، كما يذم من جهة أخرى البخل ويظهر مساوئه، فكل منظور يلغي الآخر، وكل طريقة لها ما يدعمها. [2]

فالوظيفة الحجاجية في النظرية التداولية هي تعديل سلوك من يتوجه إليه الخطاب والتأثير عليه لإقناعه بصحة الموقف، فيتبناه، أو يعرض عن الحجج المطروحة فيشيح عنها .

2- ينظر ، عدنان بن ذريل ، في البلاغة الجديدة ، ص04 .

1- محمد العبد ، النص الحجاجي العربي ، دراسة في وسائل الإقناع ، مجلة فصول ، العدد 60 ،2002 ،ص 45 .

2- ينظر حسن مصطفى سحلول ، نظريات القراءة و التأويل الأدبي وقضاياها، http://www.awu.dam.org،14 جوان2004، ص 04 .

وقد تؤدي هذه الوظيفة إلى إنجاز أفعال بمجرد التلفظ بالكلام، وهذا ما تسعى إليه التداولية وهو التأثير لا الإخبار .

خلاصة:

لا يمكننا فهم اللغة إذا لم نفهم الخطاب، ولا نفهم الخطاب إذا لم يكن هناك تواصل، واستنادا لهذا الاتجاه جاءت اللسانيات التداولية .

فالتداولية نظرية فلسفية بين معالمها الفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس، في مقال بعنوان " كيف تجعل أفكارك واضحة ؟ "، وعاضده في طرحه مواطنه وليام جيمس حيث تصديا للفكر الميتافيزيقي الذي تبنته الفلسفة القديمة .

فالتداولية ذات طابع عملي، متغيرة ومتجددة حسب حاجاتنا، ولا يقدم المنهج التداولي حلولا جاهزة بل علينا السعي لتغيير واقعنا إلى الأفضل .

ولا تهتم بكيفية نشوء الأفكار ولا مصادرها وإنما تتطلع إلى الابتكار والإبداع، وتبحث عن الجديد في مستقبل واعد قاطعة كل صلة لها بالماضي أطلق الفيلسوف الأمريكي تشارلز موريس مصطلح التداولية على فرع من فروع السيمياء التي تتضمن علم التراكيب وعلم الدلالة والتداولية .

فأصبحت التداولية مجالا يعتد به في الدرس اللغوي منذ العقد السابع من القرن العشرين، بعد أن نافح عنها ثلاثة من فلاسفة اللغة المنتمين إلى جامعة

أكسفورد، وهم: جون أوستين وجون سيرل وبول غرايس وقسم أوستين الجمل إلى وصفية وإنشائية، فلا نحكم عليها بمعيار الصدق والكذب وإنما بمعيار التوفيق والإخفاق .وأدخل كل من سيرل وغرايس بعض التعديلات على نظرية أوستين، فنظرية سيرل ترتكز على مفهوم " فعل القول " ومفهوم " الفعل المتضمن في القول " الذي يحمل قوة إنجازية ، ونظرية غرايس تبين ما يفيده تلفظ معين عند المتكلم فقط، كما تساهم في تحديد ما يستعمل من ألفاظ لإصدار أمر أو نهي أو ما شابههما، فهي تخص دور المعنى في استعمال اللغة لغرض التواصل. لذلك وضع غرايس بعض مبادئ الحوار .

وتتداخل التداولية مع علم الدلالة واللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية وتحليل الخطاب، لذلك نجدها تشترك في بعض المصطلحات مثل : الملفوظ والتلفظ والاتصال ...

ورأينا تباين مفهوم التداولية لدى اللسانيين، فمنهم من حددها على أساس المخاطب وقال إنها نظرية تخاطبية، وآخرون نظروا إليها من جانب السياق، فلا تؤدي الفعل الكلامي مدلوله إلا بشروط مناسبة، وهكذا .

ويعود استعمال مصطلح التداولية في اللغة العربية إلى الدكتور طه عبد الرحمان وتبعه في ذلك أحمد المتوكل ، ولاحظنا الصعوبات التي تحول دون وضع مفهوم واضح لمصطلح التداولية كتداخلها ضمن الكثير من العلوم، واهتمام الكثير من الدارسين على اختلاف توجهاتهم الفكرية والعلمية، إلا أن السنوات الأخيرة شهدت تقدما باهرا في الدراسات التي اتخذت التداولية مجالا للتطبيق في التحليل اللغوي فاهتمت بالجوانب الأساسية في اللسانيات التداولية، كالإشارات والافتراضات المسبقة، والاستلزام الحواري، والأفعال الكلامية. وجاءت نظرية الحدث الكلامي Speech Act Theory المنسوبة إلى أوستين فطورها اللغويون الغربيون، وكان لها أثر عند النحاة والبلاغيين العرب، وهذا ما يؤكد أصالة البحث اللغوي وجديته لدى أولئك العلماء .

والتداولية مبثوثة في تراثنا العربي ولكن ليس بشكل منهجي كما هو الحال عند الغربيين .

الفصل الثالث

الفعل الإنجازي
في الأحاديث القدسية
– الذكر والدعاء –

كان عملي في الفصل الثاني تطبيق ما توصل إليه سيرل من تصنيفات للأفعال الكلامية على باب الذكر والدعاء من الأحاديث القدسية.

أما مطلبي في الفصل الثالث فهو إبراز الفعل الإنجازي في هذه العينة من الأحاديث لما له من أهمية في نظرية الفعل الكلامي، فهو يشكل حلقة أساسية في اللسانيات التداولية.

والفعل الإنجازي أو الغرض الإنجازي هو ما يؤديه الفعل اللفظي من وظيفة في الاستعمال: كالوعد والتحذير والأمر والنصح...، وقد أدرك أوستين أن الفعل الإنجازي هو الأهم في اللسانيات التداولية، فوجه إليه اهتمامه وجعله لبّ هذه النظرية، نظرية الفعل الإنجازي.

والفعل الإنجازي مرتبط بمقصد المتكلم، ومقصد المتكلم له دور مركزي في نظرية الفعل الكلامي، لأنه لا يكفي وحده بل لابد من العرف اللغوي أيضا [1]

أحاول أن أقف على الفعل الإنجازي في هذه الأحاديث بدءا بالحديث الأول حيث أجد فعله الإنجازي مصوغا في العبارة الآتية :" أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني "، ويندرج هذا الفعل ضمن صنف الوعديات حسب تقسيم سيرل للأفعال الكلامية -كما مر بنا- والمقصد من هذا الفعل هو الوعد

وإشاراته هي: الضمائر: أنا، ياء المتكلم، هاء الغائب ضمير الغائب (هو)

فالمُخَاطِب هو الله -عزّ وجلّ-، والمُخَاطَب هو العبد، والغرض هو الوعد فالتزم حضور ضمير المتكلم أكثر فتكرر خمس مرات، وهذا ما يعطي قوة للفعل الكلامي.

وتعد الضمائر من معوضات الأسماء العائدة، وتستخدم بحثا عن الاختصار، ويسمى الاسم الذي يعود عليه الضمير مفسر الضمير كما قال لحسن توبي:" وتشترك الضمائر مع بنيات لغوية كثيرة في العديد من الخصائص أهمها،أنها معوضات الاسم العائدة عليه،وتختلف عن بعض الظواهر من حيث كونها تسد مسد الاسم حرصا على الاختصار ومنعا للتكرار" [2].

1- ينظر محمود أحمد نحلة ،ص 74 .

2- لحسن توبي ، العائدة الخطابية ، مقاربة تداولية ، http://www.aralization.org.com ،ص05 .

ولا تكمن أهمية الضمير في المرجعية فحسب ، بل أيضا في الربط بين الأجزاء الداخلية من ناحية، وبين الداخلي والخارجي من ناحية أخرى، " لأن الضمائر تكتسب أهميتها بصفتها نائبة عن الأسماء والأفعال والعبارات والجمل المتتالية؛ فقد يحل ضمير محل كلمة أو عبارة أو جملة أو عدة جمل، ولا تقف أهميتها عند هذا الحد؛ بل تتعداه إلى كونها تربط بين أجزاء النص المختلفة، شكلا ودلالة داخليا، وخارجيا وسابقة ولاحقة " [1].

وقد اعتبر ليونسLyons (1977) مفسّر الضمائر إشارة نصية، واشترط تساوقه مع الضمير داخل مجال الخطاب ليستنتج وجوب تحققه لغويا[2] . فالضمائر من دعائم القوة في الفعل الإنجازي، فإنجاز الوعد قائم على صياغة شرطية، إذا ذكرني، والمعنى أمر العبد أن يذكر الله و يتقرب إليه

فالفعل الإنجازي جاء جملة اسمية: أنا عند ظن عبدي بي ...

ودلالتها الثبات، فحكم الله –عزّ وجلّ– قاطع لا تغيير فيه، أما جملة الشرط: إذا ذكرني فدالة على التغيير والذكر عبادة تجمع بين القول والعمل، وجملة الجواب محذوفة لوجود ما يدل عليها وهو الجملة التي بعدها، والأصل إذا ذكرني...ذكرته، "ويجب حذف الجواب إن كان الدال عليه ما تقدم مما هو جواب في المعنى، نحو أنت ظالم إن فعلت "[3] ، ففيه إيجاز بالحذف، ويعطي هذا الأسلوب الكلام قوة وتأكيدا يؤول إلى التأثير في نفوس المتلقين وهو من سمات التداولية، وجواب الشرط مفيد تحقق الفعل من الله تبارك وتعالى تفضلا وكرما وإحسانا لأن كل أفعاله ماضية، وجاءت المتواليات الشرطية كما يلي :

جملة الشرط		جملة الجواب
إن ذكرني في نفسه	←	ذكرته في نفسي
إن ذكرني في ملأ	←	ذكرته في ملأ خير منهم
إن تقرب إلي شبرا	←	تقربت إليه ذراعا
إن تقرب إلي ذراعا	←	تقربت إليه باعا
إن أتاني يمشي	←	أتيته هرولة

1- المرجع السابق ، ص 04 .
2- صبحي إبراهيم الفقي ، علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق ،دار قباء للطباعة و النشر ،ط1 ،2000،ج1 ،ص137 .
3- ابن هشام الأنصاري (جمال الدين عبد الله بن يوسف بن أحمد) ،أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك قدم له إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان ، ط1 ،1997 ،ج2 ،ص97 .

صدرت هذه الجمل بحرف الشرط " إن " وهي تفيد الشك، والتردد لأن فعل العبد واقع على معناها، وقد لا يكون أمره حاسما، لذلك جاء الجزاء قاطعا ومحفزا للعبد أن يكون جادا في ذكره موقنا في رحمة ربه .

فكان التدرج في تربية الإنسان متخذا مسار الجزء نحو الكل، وهو منهج تداولي هدفه توصيل الفائدة للمتلقين. فينطلق الذكر من النفس البشرية إلى النفس الآلهية، ومن الملإ البشري إلى الملإ الرباني، ثم التقرب من الشبر إلى الباع، ثم الإتيان مشيا إلى الهرولة ويرزق الله بغير حساب ثم يكلف الله ملائكته بتتبع مجالس الذكر – وهو الغني عن العالمين– ليشهدهم على عمل عباده في الأرض، هذا ما ورد في الحديث القدسي الثاني حيث يخبرنا الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن لله ملائكة، عملهم هو الطواف والبحث عن مجالس الذكر، وهذا تصريف من الله –عزّ وجلّ– حتى يبين لملائكته أن عباده رغم مشاغلهم وما سلط عليهم من الشهوات ووساوس النفس، فهم ملتزمون بالتسبيح والتهليل والدعاء، وقراءة القرآن ومدارسة السنة النبوية، والإقبال على التزود بالعلم، وكل ما يقربهم إلى الله عزّ وجلّ ، ابتغاء فضله، وطمعا في جنته، وهذا إشارة إلى قولهم: ﴿ **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهُا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ** ﴾[1]

والفعل الإنجازي في هذا الحديث ما تضمنه في البداية " إن لله ملائكة يطوفون في الطرق، يلتمسون أهل الذكر..." ، وغرضه التقرير، وقوته تكمن في التأكيد الذي تصدر الجملة والتأكيد يدل على أهمية القول وهو غرض تواصلي، يستخدمه المتكلم لتثبيت الشيء في نفس المخاطب، والتأكيد هنا بالأداة (إنَّ)، ويندرج ضمن تقريريات سيرل. فيفيد الثبوت والدوام والاستمرار، وهذا إشارة إلى دوام فعل الملائكة واستمرار العباد في ذكر الله مع تجدده وحدوثه.

وبعد التعميم يأتي التخصيص، فتتفرع الجمل عن القول الأول كالآتي:

1- سورة البقرة ، الآية 30 .

الجملة الشرطية : فإذا وجدوا قوما يذكرون الله.جملة الجواب : تنادوا، هَلُمُّوا إلى حاجتكم .وتفيد " إذا" الشرطية تحقق وقوع الفعل غالبا، فلا يكاد يخلو مجلس من مجالس المؤمنين –إذا اجتمعوا– من ذكر الله والملائكة طوافون في كل وقت بحثا عن هؤلاء. أما الفعل " تنادوا" فهو دال على صيغة المفاعلة والمشاركة، أي نادى بعضهم بعضا، ثم أكد هذا الفعل اسم فعل الأمر " هَلُمُّوا " أي تعالوا،ومقصدهم حلقات الذكر ليحفوهم ويباركوا عملهم . وأسماء الأفعال من المؤشرات التي تدعم الفعل الإنجازي فتجعل تأثيره أقرب إلى النفوس لورودها في ألفاظ مختصرة .ثم يأتي تفسير ذلك بما ورد في الجمل الحوارية التي تداولها الله –عزّ وجلّ–وملائكته المقربين وهو أعلم منهم . وغرض الحوار هو تعليم المستمع أسس الذكر وفوائده، فوظف الجمل الاستفهامية ما يقول عبدي ؟ هل رأوني ؟ كيف لو رأوني ؟ فما يسألوني ؟ هل رأوها ؟ فكيف لو رأوها ؟ فمم يتعوذون ؟ وهل رأوها ؟ فكيف لو رأوها ؟ . فالاستفهام هو ما يقتضى به قول ما، وبين الزركشي (790هـ) " أن الاستفهام يأتي بمعنى الخبر وبمعنى الإنشاء فالخبر أحدهما نفي ويسمى استفهام إنكار، والثاني للإثبات ويسمى استفهام تقرير...، والتقرير حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقر عنده " .[1]

ويقتضي الاستفهام أن نبحث عما يهمنا معرفته هذا ما بينه السكاكي في قوله: " إن الاستفهام طلب وليس بخفي أن الطلب إنما يكون لما يهمك ويعنيك شأنه لا لما وجوده وعدمه عندك بمنزلة " [2].كما يرى أن الاستفهام إما يختص طلب حصول التصور، أو يختص طلب حصول التصديق، ومرجعها إلى تفصيل المجمل [3]. ويؤول الاستفهام إلى أغراض عديدة كالاستخبار والنفي والطلب وغير ذلك .وأدوات الاستفهام الواردة في هذه الجمل هي: " هل " " ما " ، " كيف " . فـ "هل" : يطلب بها التصديق فقط والجواب لا يحتمل إلا الإثبات والنفي (أي بـ: نعم أو بـ: لا) .وكان كما رأينا : لا، وأريد به النفي .أما بقية الأدوات ؛"ما" و"كيف" فيطلب بهما التصور فقط.

1- الزركشي ، البرهان في علوم القرآن ،ج 2 ، ص328 -331 .
2- السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص152 .
3- ينظر : المرجع نفسه ، ص148 .

فالأداة: ما، يطلب بها شرح حقيقة الاسم أو الشيء، فما يسألوني ؟أي ما الشيء الذي يسألوني عنه ؟ ، ومم يتعوذون ؟ ،...

أما: كيف ، فيسأل بها عن الحال، كيف لو أنهمٍ رأوها ؟ كيف يكون حالهم ؟ وغرض الاستفهام في الكلام هو معرفة ما هو في حكم المجهول أو القصد منه حصول به معنى من المعاني، لذلك فالاستفهام الحاصل في هذا الحديث معناه التقرير.

ويكون التقرير على ضربين، تقرير المخاطب على فعل قد مضى ووقع أو على فعل هو في الحال ليوجبه المقرر بذلك ويحققه. وهناك استفهام تقريري يراد به التثبيت فقط، والتقرير اعتراف بما هو كائن على أنه كان، أو بما لم يكن على أنه لم يكن [1].

وقد يراد به الاعتراف بحقيقة ثابتة وهذا هو مضمون الخطاب الموجه إلى الملائكة، فيقول:" فيسألهم ربهم –عزّ وجلّ– وهو أعلم منهم " فالله تبارك وتعالى عالم بكل شيء.

وقد يراد الاختبار، " وهذا غرض بلاغي، القصد منه أن يختبر السائل المسؤول، وهو يقتضي أن يكون السائل عارفا بجواب ما يسأل عنه " [2].

فوظيفة الاستفهام تواصلية غرضها تعليمي، فمن جهة إخبار الملائكة بحقيقة خليفة الله في الأرض وأنه يعبد الله ويسبحه، ومن ناحية أخرى توجيه من النبي –عليه السلام– للناس بأن يلتمسوا حلقات الذكر ويكثروا من الطاعات تشويقا لهم لنيل ما أعده الله لهم .

ووضع الكلام في صورة استفهام يضع المقرر وكأنه أمام أمر لابد فيه من الإجابة والغرض –كما ذكرنا– إبلاغي تعليمي

فجاءت إجابة الملائكة مؤكدة بالقسم نحو: " فيقولون لا والله يا رب ما رأوها " ويتضمن هذا الأسلوب عنصر التشويق الذي يستدرج به المتكلم سامعه إلى الانتباه لتحصل الفائدة خلاصتها: " المغفرة "فيقول: " فأشهدكم أني غفرت لهم "ويظل هذا التواصل الرباني قائما على أساس الذكر والدعاء والتماس ما فيه

1- ينظر قطبي الطاهر ، بحوث في اللغة ، الاستفهام البلاغي ، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2 ، 1994 ،ص 42.
2- المرجع نفسه، ص50

خير الدنيا والآخرة، فيقول في حديث آخر « **مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ، ثَلاثًا** »

فوظيفة الفعل الإنجازي في هذا القول يتضمن معنى الأمر فسره المذكور بعده، عندما قيل لأبي هريرة: " إنا نكون وراء الإمام فقال : " اقرأ بها في نفسك " ثم بين له الفائدة من قراءتها؛ وهي الحمد والثناء والتمجيد والذكر والدعاء .

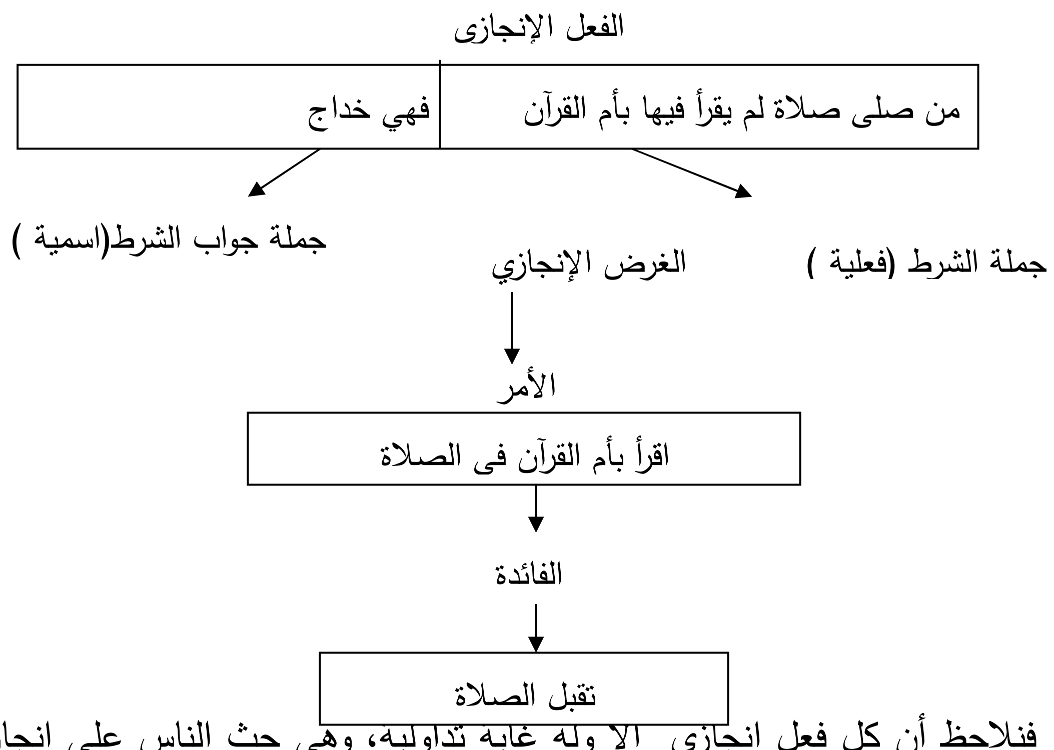
وتكمن قوة الفعل الإنجازي في تكراره ثلاث مرات، وجاء بصيغة الشرط ؛ وصدر هذا الأسلوب بـ: مَن، وهو اسم شرط يفيد العموم، فكل مسلم قام لأداء الصلاة عليه أن يفتتحها بأم القرآن (الفاتحة) وإلا فصلاته ناقصة .

وجملة الشرط ←من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن، وهي جملة فعلية فعلها ماض دال على التحقيق، فالصلاة حق دائمة ومستمرة ما دام الكون.

جملة الجواب ← فهي خداج ، جملة اسمية مقترنة بالفاء فيها مقدمة ثم نتيجة تؤول إلى فائدة ، و الجملة الاسمية دلالتها الثبات على الحكم ، فلا يتغير ما لم يتحقق ثبوت الشرط :

اقرأ بأم القرآن في الصلاة ←صلاة تامة ← تقربك إلى الله فيتقبل عملك

و نوضح هذا الإنجاز في الشكل الآتي :



فنلاحظ أن كل فعل إنجازي إلا وله غاية تداولية، وهي حث الناس على إنجاز عمل في الحال، أي أثناء الصلاة أن يقرأ المصلي بأم القرآن(الفاتحة) حتى

وإن كانت الصلاة جماعة وراء الإمام، فلا بد أن يقرأ بها في نفسه لينال الثواب العظيم الذي خصه الله بعباده .

والتكرار ثلاثا، دلالة على إثارة انتباه المخاطبين، كما نلاحظ من جهة أخرى أن لهذا الفعل الإنجازي بنية حجاجية ترتكز على النتيجة وعلى الرابط وعلى الحجة؛ فالرابط يمثله اسم الشرط: " مَن "، والحجة متضمنة في المعطيات وهي: الصلاة بدون قراءة الفاتحة، أما النتيجة:" فهي خداج" .

وللحجاج أهمية كبرى في عملية الإقناع لكونها تقدم الحجج والبراهين وتربطها بالنتيجة، وللحجاج المبني على براهين صادقة يؤدي حتما إلى نتائج صادقة .

وقد يعمد الرسول –صلى الله عليه وسلم– إلى الشرح وهو آلية حجاجية يقوم على القاعدة الإخبارية ولكنه يتميز بكونه يسعى إلى الإفهام وتوضيح بعض الظواهر ضمنية كانت أو تصريحية .

وتعظيما لمنزلة القرآن الكريم يبشر الله تعالى نبيه الكريم بقيمة من يقرأ فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة في قوله ضمن حديث قدسي آخر: «**أبْشِرْ بِنُورَين أُوتِيتَهُمَا لمْ يُؤْتَهما نبيٌّ قَبْلك، فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وخَواتِيمُ سُورَةِ البَقَرَة ، لن تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهَا إلاَّ أُعْطِيتَهُ**»

يتصدر الجملة فعل طلبي: " أبشر" وبمنظور تداولي علينا أن نحدد منزلة كل من المتكلم والمخاطب لمعرفة غرض الفعل الطلبي إن كان أمرا أو التماسا أو دعاء، فالأمر هنا صادر عن ملك مأمور من ربّ العالمين إلى الرسول الكريم لكنه أمر يتضمن بشرى للنبي –عليه السلام– وللناس كافة .

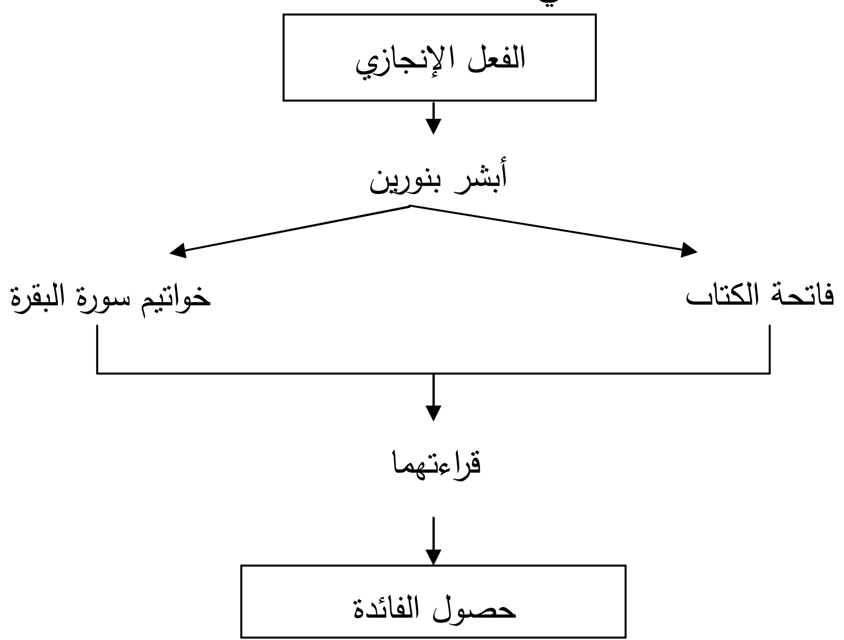
والأمر إنشاء طلب يتعلق بتحقيق فعل على وجه الاستعلاء وعادة ما يكون الآمر في مرتبة أعلى من المأمور. والأمر عند النحاة يفيد المستقبل أبدا، فالدعوة ماضية إلى كل الناس ما دامت الحياة، فالأمر موجه للرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم للمسلمين من بعده، والغرض تعليمي، فالمؤمن الصادق هو الذي يستعين بالله ويتبع سنة نبيه في التمسك بكتاب الله وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار .

فالمرسل متيقن من صحة ما يتلفظ به، وقد خص الله تعالى النبي –صلى الله عليه وسلم– بهذين النورين دون غيره من الأنبياء؛ وبشره بهما، وجاءت شبه الجملة (بنورين) لتخصيص المسند لتتم الفائدة الأساسية في الجملة بالاشتراك مع الفاعل، ويعد التخصيص من منظور اللسانيات التداولية من دعائم القوة في الفعل الإنجازي .

وغرض التبشير تأكيد على توجيه الناس وهدايتهم إلى أعمال البر التي هي في مقدور الإنسان أن يقوم بها من غير عناء، حتى وإن كانت قليلة فأجرها عظيم. والرسالة الإبلاغية في هذا الحديث واضحة، لأنها تحمل خطابا متكاملا صادرا عن ربّ العزّة إلى رسوله بواسطة أحد الملائكة المكلفين بتبليغ الأوامر.

والغرض أو القصد هو إبلاغ المتلقين بأن الله خصّهم بآيات كريمة من كتابه العظيم، وعليهم قراءتها ومدارستها والوقوف على معناها، والعمل بما تحكم به لتحصل الفائدة، كالأجر المترتب على ذلك .

وهذا حث للمؤمنين على ذكر الله والتمسك بكتابه ثم العمل بما أمر به .فهندسته حسب الشكل الآتي :



وتظل الفائدة المطلب الهام المنتظر عقب كل فعل ننجزه أو عمل نقوم به، فتترتب على قصد المتكلم والمستمع من الخطاب، فعندما ينادي الله عباده فالكون كله يصغي إليه، لأن المبلّغ في مقام القوّة ، فلا يغفل من سيتلقى التبليغ، وجاء في حديث آخر أن الله تعالى يقول " يابن آدم تفرغ لعبادتي "، فالنداء الذي

تضمنه هذا الفعل الإنجازي هو تنبيه المخاطب وحمله على الالتفات والاهتمام، والمؤشر للنداء هي الأداة " يا " وتستعمل لنداء المتوسط والبعيد لأنها تنتهي بصوت مدّ فالبعيد يقتضي مدّ الصوت و دفعه .

والنداء في هذا الحديث موجه لابن آدم وهو في منزلة البعيد لانصرافه إلى شواغل الدنيا التي أخذته في دروبها وأنسته ذكر الله، فالأداة هنا تجعله ينتبه لتلقي رسالة هامة، فيكون من مقدمات الفعل الإنجازي .

أما الفعل الطلبي الوارد بعد النداء هو: " تفرغ لعبادتي " ففيه أمر صادر من الأعلى إلى الأدنى، وهو استدعاء الفعل بالقول، كما عبر عنه أوستين Acte Illocutionnaire وهو أمر صريح القصد منه التفرغ لعبادة الله بالعمل المفيد في الدنيا والآخرة، لا الأمر المجرد من الفائدة، ومن عظمة هذا الأسلوب أن الأمر لم يكن مقطوعا، وجاء الطلب مقترنا بجواب

←أملأ صدرك غنًى، وأسد فقرك .

وكما نلاحظ يحمل الجواب عنصر الترغيب الذي يعد من وظائف الإبلاغ في العملية التواصلية.

فكانت مقدمة هذا الحديث جملة: تفرغ لعبادتي؛ أي اجعل الدنيا في خدمة الآخرة والنتيجة: أملأ صدرك غنًى، وأسدّ فقرك .

أما النقيض ← وإلا تفعل ← ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك

وهذا ترهيب.

وهنا يتجلى الأسلوب النبوي في أسمى معانيه، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– لا يخاطب العقول فحسب بل ينفذ إلى العواطف أيضا، حتى يحدث الإقناع ويشحذ الهمم، ويقوي العزائم، فيجعل المتلقين يستجيبون لما ورد في هذا الحديث الذي يحمل تعاليم إلهية، غرضها الموعظة والإصلاح، والأخذ بمبدإ الترغيب والترهيب وجعل القول عملا .

فقوة الفعل الإنجازي مستمدة من عمق الحياة في التواصل مع الناس فاقتضت تعبيرا جزلا سديدا وتصويرا محكما، ويفسر هذا الحديث حديثا آخر في

قوله –صلى الله عليه وسلم–:« **مَا سَكَنَ حُبُّ الدُّنْيَا قَلْبَ عَبْدٍ إِلاَّ الْتَاطَ مِنْهَا بِثَلاَثٍ: شُغْلٌ لاَ يَنْفَكُّ عَنَاؤُهُ، وَفَقْرٌ لاَ يُدْرَكُ غِنَاهُ، وَأَمَلٌ لاَ يَنَالُ مُنْتَهَاهُ** » [1]

وتكمن أهمية الفعل الإنجازي إذا أصبح القول عملا وتحقق النجاح.

ولا يتأتى ذلك إلا بتنفيذ الأوامر الصادرة عن خطاب رباني مثلما جاء في الحديث القدسي السادس" يقال لصاحب القرآن يوم القيامة: **اِقْرَهْ وَارْقَهْ** ..."

فالفعل الإنجازي هو: " **اقره وارقه** " من الأفعال الخالدة –كما أشرت إلى ذلك في الفصل السابق– لأن فعل القراءة سيجتاز الزمان الكوني إلى الزمان أخروي كما هو واضح في مقدمة الحديث:" يقال لصاحب القرآن يوم القيامة ".

فالخطاب فيه تخصيص لقارئ القرآن وغرضه الإنجازي حث الناس على قراءة القرآن في الدنيا لينالوا الجزاء الأوفر يوم القيامة.

يأتي بعده فعل معطوف " ارقه " يحمل قوّة الفعل الإنجازي، فالارتقاء بلوغ الدرجات العليا، والحظوة بالمنزلة الرفيعة في الجنة، أما جواب الطلب فتصدر بجملة اسمية مؤكدة بالحرف (إنَّ) " **إنَّ منزلك عند آخر آية تقرؤها** " فأفاد الاسم الثبوت والدوام والاستمرار أما الخبر (تقرؤها) فجملة فعلية دلت على الحدث والتجدد، فالمنزلة ثابتة ومستمرة إذا تواصل فعل القراءة .

ويعد حرف التوكيد " إنّ " من الروابط في البنية الحجاجية ؛ تسبقها مقدمة وهي جملة الفعل الإنجازي " اقره و ارقه " وتليها نتيجة : منزلك عند آخر آية تقرؤها .

الحجة ———— الرابط ———— النتيجة

اقره وارقه ———— إنّ ———— منزلك....

والتوكيد من وجهة نظر النحاة " هو تثبيت الشيء في النفس وتقوية أمره والغرض منه: إزالة ما علق في نفس المخاطب من شكوك وإماطة ما خالجه من شبهات "[1] أما في اللسانيات التداولية فالتوكيد Affirmation من الأساليب التداولية في الخطاب اليومي للتواصل بين المتحاورين .

1- محمد بن سعد الدبل ، الخصائص الفنية في الأدب النبوي ، مكتبة العبيكات ،ط2 ،1997 ،ص190 .

1- مهدي المخزومي ، في النحو العربي نقد و توجيه ، منشورات المكتبة العصرية ،ط1 ،1964 ، ص234 .

وما يهمنا هو الوظيفة التداولية لهذه الأساليب و فعاليتها في عملية التواصل .

والفعل الإنجازي الوارد في هذا الحديث والمدعم بالنتيجة المؤكدة " بأن " غرضه تعليمي توجيهي، والجملة الطلبية فيها تحضيض على قراءة القرآن .

فالجملة لم تنقل لنا مضامين مجردة وإنما وجهتنا إلى وظيفة محددة صاغتها في كلمات واضحة بسيطة .والألفاظ حيّة متفاعلة مع الحياة وما فيها تهدي إلى نفع محقق بالعمل. وتتجلى الوظيفة التواصلية في الإيجاز الذي يؤدي إلى تحقيق الفهم والإبلاغ واختصار المعاني في جمل قصيرة.وقد يكون الإيجاز بالحذف، والحذف سمة من سمات العربية وهذا الأسلوب قمة في الفصاحة والبلاغة نلمسه في:الفعل الإنجازي: فيقول: الحقّ ، فيقولون: الحقّ ، الحقّ .

وما نلاحظه في هذا الفعل الإنجازي هو حذف طرفي الإسناد،لوقوعه في جواب استفهام يفسره المذكور قبله:" فيقولون يا جبريل ما ذا قال ربّك؟ "   والتأويل أن يقول: قال ربّي الحقّ،فحذف الفعل" قال" والفاعل " لفظ الجلالة "ربّي" وهذا فيه اختصار للكلام وتجنب للتكرار.وقوتها الإنجازية تتمثل في الإخبار.فالمقدمة في هذا الحديث تصدرها جملة الشرط: " إذا تكلم الله بالوحي "

وجواب الشرط ←——— سمع أهل السماء للسماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا والمؤشر أنها تستعمل مع المتوقع وقوعه، فالأصل في (إذا) أن يكون الشرط مقطوعا بوقوعه" [2]

فبلاغة الإقناع في الحديث ما أخبرهم به جبريل –عليه السلام– ويتجلى ذلك في الحوار الوارد في النتيجة :

- فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربّك؟
- فيقول: الحقّ
- فيقولون: الحقَّ ، الحقّ.

وهذه النتيجة المتحصل عليها في متضمنات القول غرضها أن الله أنزل الوحي إلى السماء الدنيا، ويحمل إليهم حقائق لابد أن يلتزموا بها، ومنتهاه أن ما سمعه أهل السماء هو موجه إلى أهل الأرض، ليظل التواصل بينهم وبين خالقهم قائما .

2- المرجع نفسه ،، ص 291.

فبعد المقدمة التي تصدرها أسلوب الشرط، تعقبها جمل دالة على سرعة تتابع الأحداث والمؤشر في ذلك ، الرابط " الفاء": فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل...فيقولون:...فيقول:.... فيقولون: ....

فالحوار بين أهل السماء(الملائكة) وجبريل –عليه السلام– الذي يحمل لهم النتيجة المنتظرة وهي معرفة ما حدث لهم .

وفي هذا الحديث نسق قرآني، قال الله تعالى: ﴿ **حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِم قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُم قَالَوا الحَقَّ وَ هُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ** ﴾[1]

فنستشف من خلال ما تقدم أن رسالة الإسلام قامت على الحوار، والسنة النبوية جسدت الوحي العملي لما ورد في القرآن الكريم.

ومن منظور الدراسة التداولية يبرز لنا الفعل الإنجازي في هذا الحديث والمتمثل في قوله: " فيقولون : الحقّ الحقّ " قوّة التأثير في المتلقين المدعمة بالوسائل الواردة فيه لتغيير سلوك الإنسان من خلال مواقف كامنة في طياته، وقد أشرنا إليها ، كالروابط مثل: أداة الشرط، والفاء المتكررة، والحوار، كل هذه تؤثر في النفس لأنها تخاطب الوجدان وتوقظ الشعور فيهتدي الإنسان إلى المعرفة فيتفاعل معهاوتتحقق الفائدة .

ويتقارب الطرفان، فكل منهما متأثر ومؤثر وذاك هو التفاعل Interaction ونسقه في الحديث القدسي الثامن، عندما خرج معاوية على حلقة في المسجد، فقال: ما أجلسكم ؟ قالوا: جلسنا نذكر الله... وصولا إلى الفعل الإنجـازي " **إن الله عزّ وجلّ يُبَاهِي بكُمُ الملائِكَة** "

فالقصد من هذا الفعل الإنجازي هو الإخبار، والإخبار هو القوّة المتضمنة في القول، والرابط لهذه النتيجة هو أداة التوكيد: " إن "

إذا كانت المقدمة متعلقة بفعل معاوية مع الصحابة فذلك تأسيا بالرسول –صلى الله عليه وسلم– فالمقدمة الثانية نجدها في فعل النبي– صلى الله عليه وسلم– عندما خرج على حلقة من أصحابه ليتحاور معهم في شأن جلوسهم في المسجد، فكانت كالتالي :

الرسول– صلى الله عليه و سلم– ← ما أجلسكم ؟ ← جملة استفهامية

1- سورة سبأ ، الآية 23 .

آلله ما أجسلكم إلا ذاك جملة استفهامية مع نفي

أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم جملة مؤكدة بنفي

الصحابة جلسنا نذكر الله ونحمده جملة جواب استفهام

ما أجلسنا إلا ذاك جملة جواب استفهام تتضمن النفي

لكن : لها دور أساس في تقديم المعلومات على أنها حجج .
النتيجة، إن الله عزّ وجلّ يباهي بكم الملائكة .

ومما تقدم نرى أن مهمة الرسول –صلى الله عليه وسلم– تتمثل في إحداث الإقناع واستحضار الإرادة التي تخدم هدف الحديث، الذي هو إصلاحي في كل الأحوال، فكان عليه بسط الحجة بالحوار وتبسيطها لكي تكون مفهومة، فتتقبلها العقول، وتطمئن لها النفوس، فكان التنويع في الأبنية؛ من استفهام وتوكيد ونفي ...

والغرض من كل ذلك هو حث الناس إذا اجتمعوا أن يكون تواصلهم فيه منفعة، وأن تتضمن أقوالهم أفعالا عملية تحفزهم على فعل الخير، والقوّة التي تجعلهم يثبتون على ذلك هو علمهم بمراقبة الله لهم، وأنه يباهي بهم الملائكة .
فالحوار المثمر يقوم على الحجاج الذي هو " بنية تداولية يقترن فيها قصد التوجيه بقصد التأثير والتقويم الأخلاقي المقترن بالعمل " [1]

وكل حديث قدسي يكاد لا يخلو من النماذج الحوارية أو الحجاجية، وهي أدوات تعزز آليات التواصل بيننا، فيتعين علينا استغلالها للمساهمة في إفادة المتلقي لتقويم فعله من جهة وجعله يشارك في بناء المجتمع الإنساني من جهة أخرى، وبذلك يحقق الارتقاء الذي يشرف به على أفق الكمال العقلي .
وهذا الارتقاء محقق في العطاء الإلهي الذي لا ينفد وتوقيع ذلك في الفعل الإنجازي : " **أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ** "

1- آمنة بلعلى ، الإقناع ، المنهج الأمثل للتواصل و الحوار نماذج من القرآن و الحديث ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، العدد 89 مارس 2003 ، ص20 .

فالغرض المتضمن في هذا القول هو الوعد، ونلاحظ أنه جاء جواب شرط لجملة مصدرة باسم شرط " من " وجملة الشرط: " شغله القرآن وذكري عن مسألتي " .

واسم الشرط " مَن " كناية عن العاقلين، وهي خاصة للبشر، وتفيد العموم وهذا إشارة إلى شمول كل من شغله القرآن بأن يقبل على الله وينصرف عنه حب الدنيا والركون إليها، فوعد الله عزّ وجلّ عباده الذين يتدارسون القرآن، ويذكرون الله سيعطيهم أفضل من السائلين المنشغلين بالمسألة وعن قراءة القرآن و ذكر الله .

وليتحقق الفعل الإنجازي جاء مدعما بالتشبيه، الذي يتضمن صيغة التأكيد .

ففضل قارئ القرآن وذكر الله كفضل كلام الله على سائر الكلام، شبه هذا بفضل الله على سائر خلقه .

فالقوّة في فضل الله على خلقه، هي التي تمثل النتيجة التي تجعل الناس ينشغلون بالأصل والأهم، ولا يذهبون إلى الفرع ، فالأصل قوة والفرع ضعف

والتشبيه هنا وسيلة أخرى من وسائل الإقناع لبلوغ الهدف، " ومثل هذه النماذج الحجاجية قائمة على التمثيل الذي يسميه الفقهاء قياسا، ويسميه المتكلمون ردّ الغائب إلى الشاهد، ومعناه أن يوجد حكم في جزء معين، فينتقل حكمه إلى جزء آخر مشابه بوجه ما فهو إذن استدلال"[1].

وتكون معطيات هذا الحديث كالآتي :

- قراءة القرآن وذكر الله ← يتحقق الثواب
- عدم قراءة القرآن و ذكر الله ← لا يتحقق الثواب
- التفرغ للسؤال ← الثواب قليل
- المشبه ← فضل كلام الله على سائر الكلام
- المشبه به ← فضل الله على خلقه
- الرابط ← أداة التشبيه " الكاف ".

فنلاحظ أثر الفعل الإنجازي يكمن في تحقق الثواب والمصوغ في عبارة: " أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ".

1- المرجع السابق ، ص15 .

والغاية من هذا الحديث حمل الناس على قراءة القرآن وذكر الله تعالى، فليس التشبيه هو الذي سيحملهم على العمل، ولكن الدلالة المنطوية وراء هذا التلفظ وهو الاعتراف بعظمة الله عزّ وجلّ . وأنه خلق الناس لعبادته، وأمرهم بتنفيذ ما جاء في القرآن الكريم من دراسة وعلم وعمل، ومن هنا تتحقق مبادئ التداولية المتعلقة بالغرض والإفادة، فالله –عزّ وجلّ– أراد من عباده أن ينشغلوا بما يفيدهم، ويحقق لهم الغاية المرجوة، وتبقى الإفادة متعلقة بالمخاطب وما يجنيه من منفعة تقربه إلى خالقه، لأن دعوته تحمل رسالة إبلاغية واضحة

وفي كل رسالة إشاريات تحدد مدلول الخطاب وتحمل قوّة الفعل الإنجازي كما ورد في الحديث القدسي العاشر: « **يقول الله : أَخْرِجُوا من النّار، من ذَكَرَنِي يومًا، أو خافَني في مَقَامٍ** » فالفعل الإنجازي : "**أخرجوا من النّار...**" وهي جملة طلبية يتصدرها فعل أمر " أخرجوا " فالخطاب موجه إلى الملائكة والزمان يوم القيامة .

والأمر طلب يتعلق بتحقيق فعل على وجه الاستعلاء، فالآمر – جلّ شأنه– في مقام رفيع، وأمره نافذ، أما المأمور فمقامه أدنى، واستجابته متوقعة.

والموجه إليه حكم الأمر هو كل ذاكر لله وخائف من عقابه، وتوصيف ذلك في جملة الشرط: من ذكرني يوما أو خافني في مقام.

مَن ←——— اسم شرط للعاقل دالة على العموم تشمل كل مسلم يذكر الله ويخافه والفعلان الماضيان: ذكر وخاف دالان على زمن الحدث وهو الذكر والخوف، وجواب الشرط محذوف يدل عليه السياق، وتقديره: من ذكرني يوما أو خافني في مقام فله الجنة، أو سأدخله الجنة .

وترتيبه كالآتي :

المتكلم الأول هو النبي – صلى الله عليه و سلم – ←— يوجه خطابا ←——— إلى الناس

الخطاب ←——— يحمل رسالة ←————— تتضمن أمرا من الله عز و جل

الأمر ←————— إخراج كل من ذكر الله –عزّ وجلّ– بصدق، أي التزم أوامره وخافه بتجنب المعاصي ويزيد الشرط في حركية الفعل، ففعل الشرط " ذكرني " ثم الفعل " خافني " المعطوف على الأول فيهما تفعيل لعمل المتلقي

الواقع على الفعل الإنجازي المتضمن للطلب، وذلك لأهميته في توليد الأثر المطلوب .

وتركيز الخطاب منصب على النتيجة التي لها علاقة بالمقدمة المتضمنة للفعل الإنجازي الذي له دور فعال في تحفيز المتلقي على إنجاز العمل، متخذا إحدى الوسائل الإقناعية وهو مبدأ الترغيب و الترهيب .

فالترغيب يتمثل في إخراج العبد من النار إذا أنجز فعلي الذكر والخوف أما الترهيب، فذكر كلمة " النار" تجعل المتلقي يخاف سوء العاقبة، فيستعد للعمل الصالح.

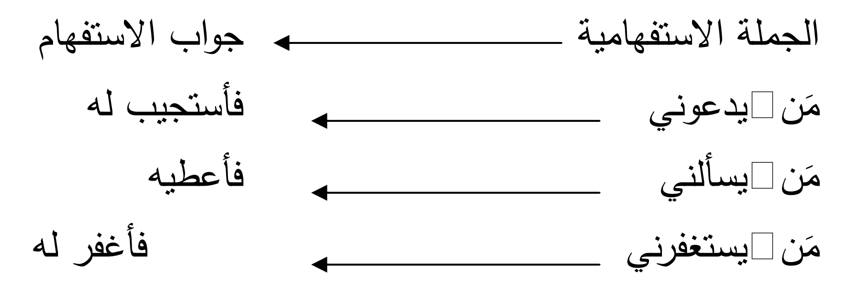
فالقصد واضح ←——— رغبة المولى – عزّ وجلّ– أن يطيعه عباده

والإفادة ←——— دخول العباد الجنة

والله عزّ وجلّ رؤوف بعباده قريب منهم يجيب دعاءهم فيقول في الحديث القدسي الحادي عشر: « **مَنْ يدعُونِي فَأَسْتَجِبْ لهُ، مَنْ يَسْألنِي فَأُعْطِيهِ ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِر لَهُ** »

إذا وقفنا على العناصر المشكلة لهذا الحديث نجد في البداية الجملة التقريرية المتمثلة في قول الرسول –صلى الله عليه وسلم– : « يتنزل ربُّنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل » وهذه هي المقدمة .

أما الفعل الإنجازي فيتشكل من روابط ونتائج، فالروابط أسماء استفهام: " مَنْ "، أما النتائج فمتمثلة في جواب الاستفهام، وهي كالآتي :



ونلحظ سرعة تتابع الأحداث بواسطة الفاء السببية وهذا مؤداه سرعة تقبل الدعاء .

فالفعل الإنجازي مرتبط بمقصد المتكلم ، والجمل الطلبية وظيفتها تداولية تتمثل في إقناع المتلقي من خلال الجواب التابع لها .

وتكرار اسم الاستفهام" من " يؤدي وظيفة إقناعية، لأن التكرار من الوسائل التي تربط أجزاء الخطاب بعضه ببعض فيؤول إلى تأكيد الحجة .

والغرض هو التأثير في المتلقي، وحثه على دعاء الله في وقت معين من الليل ليستجيب له، والتوجه إليه بمسألته ليعطيها له، وطلب المغفرة قصد التزود بالحسنات والقربات .

قال الإمام النووي: " وفي الحديث الحث على الدعاء والاستغفار في جميع الوقت المذكور إلى إضاءة الفجر وفيه تنبيه على أن آخر الليل للصلاة،والدعاء والاستغفار وغيرها من الطاعات أفضل من أوله " [1].

وهذا الخطاب فيه تحريض للعباد على ذكر الله والإكثار من العبادات خاصة النوافل، فهي قربى للمولى تبارك وتعالى، وفيه أيضا ملاطفة غير مرغمة، حتى يسعى إليها ويطلبها بهمة لتحقيق ما يصبو إليه، وهذه تخدم مقاصد الخطاب التداولي، خاصة إذا حقق المتلقي فائدة من هذا الخطاب فتحفزه أن يسير على المنهج الإلهي الذي ارتضاه له، فلا يشقى ما دام الله يرعاه وتوقيع ذلك نلمسه في الحديث القدسي الثاني عشر يقول الربّ عزّ وجلّ « وعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بعَ ْدَ حِين »

إذا تتبعنا مقام هذا الفعل نجد تدرجا انطلاقا من الإجمال إلى التفصيل، في قوله: " **ثَلاثةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُم، الصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرْ، وإِمَامٌ عَادِل، دَعْوَة المَظْلُوم ...**"

فأفعال الكلام مباشرة، وهي أفعال توجيه، والغاية منها حمل السامع على فعل ما أُمر به. وهذا يستجيب للبعد التعليمي والتربوي الذي اتبعه الرسول – صلى الله عليه وسلم– في الدعوة إلى الله، وهي كما نتصور مرتبطة بوضعية خطاب معينة وبنماذج معينة من المخاطبين.

والقيام بالفعل مرتبط بمدى قوة القاعدة الاستدلالية من نصر الله للمظلوم ليقيم بها الحجة البالغة في الإقناع والتأثير معا وحمل الآخر على تجنب ظلم الناس.

1- عبد القادر عرفات، الأحاديث القدسية ، ص200 .

واعتمد النبي –صلى الله عليه وسلم– في هذا الحديث نموذجا آخر في تبليغ الخطاب حيث انطلق من مقدمة عامة أو مقدمة كبرى: " ثلاثة لا تردّ دعوتهم " ثم يعقبه تفصيل ذلك : " الصائم حتى يفطر، وإمام عادل، ودعوة المظلوم " ثم التركيز على الخاصية الثالثة وهي " دعوة المظلوم " وتخصيصها بالاهتمام دون غيرها، بقوله: " يرفعها الله فوق الغمام، ويُفتح لها أبواب السماوات "، ثم يدعمها بحجة دامغة بقوله: " وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين "

فالقوة المتضمنة في القول هي الوعد، وجاء الوعد مؤكدا بالقسم " وعزتي " فالواو " حرف قسم، و" عزّتي " مقسم به ، " لأنصرنك ولو بعد حين " جواب القسم .

فالوظيفة التداولية في هذا الفعل بارزة تمثلها قوة الإشارات، من قسم ولام التوكيد، ونون التوكيد، في قوله " لأنصرنك ".

ولم يدرس النحاة القسم كمعنى، وإنما كأسلوب من الأساليب، أما القسم بمعيار سيرل فيندرج ضمن " درجة الشدة للغرض المتضمن في الفعل " فهو إذن تأكيد "، وهذا ما صرح به بعض النحاة القدامى، فقد قال سيبويه : " والحلف توكيد، وقال أيضا: اعلم أن القسم توكيد لكلامك " [1] ،و جاء في المفصل " أن الغرض من القسم توكيد ما يقسم عليه من نفي أو إثبات " [2]

ولا يخلو الكلام العادي من القسم وغرضه تواصلي، أن نجعل المستمع واثقا مما نقول، ويؤدى بصيغ مختلفة – كما ذكرنا في الفصل الثاني –

ولذلك فالقسم في الفعل الإنجازي " وعزّتي " يراد به دفع المخاطب إلى الوثوق بوعد الله عزّ وجلّ، وأن المظلوم سينصره الله تبارك وتعالى، ومن جهة أخرى ردع الظالم ليكف ظلمه عن الناس، ويعلم أن وعد الله سار في عباده .

وهذا التفصيل بعد الإجمال، والإيضاح بعد الإبهام يبعث في القلب راحة وطمأنينة .

أما جواب القسم المصدر بالفعل المؤكد لأنصرنك، فزمنه المستقبل دال على التجديد، وهذا إشارة إلى أن نصر الله للمظلومين يظل قائما طالما هناك

1- سيبويه ، الكتاب ، ج 3 ، ص104 .

2- ابن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ،ج 5 ،ص 244 .

بشر معتدون. " ولو بعد حين " أسلوب مؤكد لما قبله ولو حرف دال على التقليل؛ فلا يطول انتظار المظلوم ليقتص الله من الظالم ، فهناك ارتباط دائم بالخالق عن طريق الذكر والدعاء، والدعاء توسل واستعطاف وهو إنشاء طلب يتوجه به العبد المؤمن إلى ربه من أجل تحقيق منفعة .

ويحث الله عزّ وجلّ أبناء آدم على التمسك بالدعاء وهذا يبينه الحديث القدسي عن النبي –صلى الله عليه وسلم– يرويه عن ربّه « **قَالَ ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَ رَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ مَا كَانَ فِيكَ...** »، والفعل الإنجازي في قوله: " **غَفَرت لكَ** "..." **لقِيتُك بقرابِها مغْفِرةً** "... " **أَغفِرُ لك** "..

فذكرت المغفرة بصيغ مختلفة؛ ففي الجملة الأولى جاءت بصيغة فعل ماض، وفي الثانية بصيغة مصدر ، وفي الثالثة بصيغة فعل مضارع.

وتنوع الصيغ في الخطاب دليل على سعة رحمة الله تعالى في مغفرة الذنوب وإن تنوعت المعاصي، فيحتويها كلّ زمان، سواء أكان في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل ويلائم هذا زمن الفعل الإنجازي .

كما أن تكرار هذه الصيغة فيه تأكيد لقوة الفعل المتضمن في القول وهو الوعد. والتأكيد كما ذكرنا من وظائف التداولية في الخطاب للتأثير على المتلقين، فهو وسيلة من وسائل الإقناع التي اتخذها النبي –صلى الله عليه وسلم– لإصلاح الناس وتهذيبهم، وهي قواعد تبليغ تهدف إلى تحقيق المنفعة بين المتخاطبين، وبلوغ غاية الفعل وهو العمل والمتمثل هنا في ترغيب العباد في الإكثار من الاستغفار ، لأن الله عزّ وجلّ لا يزال يعفو مادام الناس يستغفرونه .

ولعل ما زاد في شدة الفعل الإنجازي تصدر الجملة بأسلوب نداء، وتكراره بقوله: " ابن آدم " ونلاحظ حذف أداة النداء " يا " وهذا دليل على قرب المتكلم من السامع، لأن الله عزّ وجلّ قريب من عباده، ونجد توقيعها في القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿ **إِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** ﴾ [1]

والنداء –كما أشرنا سابقا– من الوظائف التداولية والملاحظ أنه لم يأخذ قسطه من الدرس في اللسانيات الحديثة كباقي مكونات الجملة الأخرى [2]

1- سورة البقرة ، الآية 186 .
2- أحمد المتوكل ، الوظائف التداولية ، ص 160 .

" والنداء كفعل لغوي شأنه شأن الأفعال اللغوية الأخرى كالإخبار والاستفهام والأمر والوعد والوعيد، و"المنادى " كوظيفة، أي كعلاقة تسند إلى أحد مكونات الجملة " [3].

والنداء تنبيه السامع لأمر يهمه، وهو خطاب موجه للناس للعودة إلى خالقهم والرجوع إلى الهدى بعد الضلالة، فمقصده في هذا الحديث هو التشويق، وحمل هذه الفئة من الناس على التوجه إلى الله لطلب المغفرة منه فهو قادر على هدايتهم .

والرسول –صلى الله عليه وسلم– يريد أن يلفت انتباهنا إلى القصد من هذا الأسلوب، وإلى النتيجة المرتبطة بالفائدة التبليغية، وهي إدراك وتصور هذه الرحمة الإلهية التي أوحى بها السياق النصي، وأكدها الخطاب المدعم بمؤثرات تداولية كأداة التوكيد " إنّ" و" حتى " التي تفيد الغاية، والنداء، وهذا " ما أسماه شرّاح الحديث بالترغيب وهو فعل الكلام غير المباشر الذي استلزمه منطق الحديث " [4]

وهذه ضرورة للعودة إلى الله، والاعتصام بحبله المتين، فرحمته واسعة.

والذكر هو الحمد والثناء وهو إشعار بعظمة الله، وللذاكرين مقام رفيع عند الله تعالى هذا ما تضمنه الحديث الرابع عشر الذي نستهله بفعله الإنجازي في قوله: " **أُكْتُبُوهَا كمَا قَال عَبْدِي** "

فتجليات الخطاب في هذا الفعل الإنجازي هو مضمون الملفوظ الصادر عن الرجل الذي قال و هو في الصلاة: " الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبعد انقضاء الصلاة تساءل الرسول –صلى الله عليه وسلم–: " أيكم القائل كذا وكذا ؟" والجملة هنا استفهامية تميزت بالعموم، والاستفهام له وظيفة تداولية تتمثل في إقناع المتلقي بالاستجابة، واللافت للانتباه أنه تكرر ثلاث مرات، وهذا التكرار يفيد وظيفة أخرى هي التأكيد و الإلحاح الذي يؤول إلى التأثير في المتلقين، فتتحقق الاستجابة، فنلاحظ في البدء كان إحجام القوم ظنا منهم أن في الأمر سوءا لقوله: " فأرم القوم " أي سكتوا، ولكن بعد تكرار السؤال لقي الإجابة،

3- المرجع نفسه ، ص 161 .

4- آمنة بلعلى ، ص17.

والاستفهام هنا هو من باب طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل، فحقق الخطاب غرضه التواصلي عن طريق الحوار .

فقال الرجل: " أنا قلتها، وما أردت بها إلا الخير" فكانت إجابته صريحة حملت المتلقي على التسليم والإيمان بحقيقة قصده .

فذكر له النبي – صلى الله عليه وسلم– النتيجة التي تطمئنه وتؤكد أن ما قاله خيرا، بقوله: " لقد ابتدرها اثنا عشر ملكا، فما دروا كيف يكتبونها حتى سألوا ربّهم عزّ وجلّ، فقال : اكتبوها كما قال عبدي " .

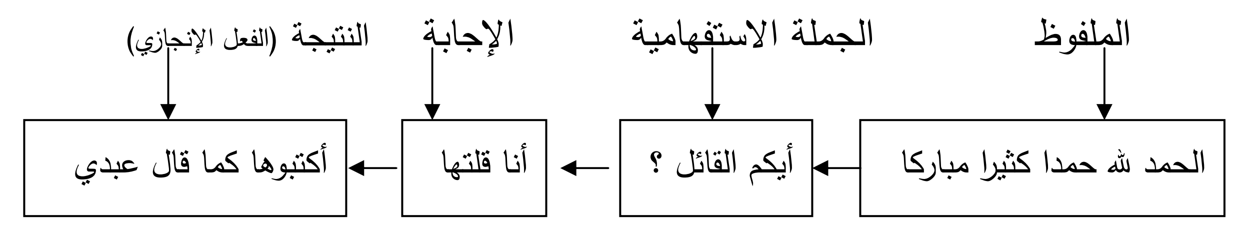
وهذا دليل عظيم على قيمة ما تلفظ به هذا الرجل، حتى الملائكة لم يعرفوا كيف يقدرون هذا الفضل، ولم يكن يتوقع القائل هذه النتيجة .

والغرض من هذا الفعل الإنجازي هو حث الناس على مداومة ذكر الله ودعائه خاصة أثناء الصلاة .

وتتجلى أهمية هذا الحديث في التوجيه لتعليم الناس وليس فقط في مبدأ الإخبار، فالخطاب مرسل من الأعلى (المعلم) إلى الأدنى (المتعلم)

والفعل الإنجازي الذي يمثل النتيجة المنتظرة هو قول الله لملائكته: " **أُكتبوها كما قال عبدي** " ، جاء في جملة طلبية تتضمن قوة إنجازية صريحة، بأن يحقق الله عزّ وجلّ لعباده عظيم الجزاء مقابل عظيم القول .

و نوضحها كالآتي :



والغرض النهائي المتوصل إليه من خلال هذا الفعل الإنجازي هو حث الناس على ذكر الله ودعائه في كل الأوقات وخاصة أثناء العبادات .

والذكر متضمن معنى الدعاء من خلال ترديد ألفاظ التسبيح والتحميد والتوحيد وتكرار ذلك في كل وقت لترك الغفلة والتفكر في الخالق سبحانه،وهو أيضا صلاة– وكل اتصال بين الإنسان وخالقه هو ذكر لله.لذلك توجهنا الأحاديث القدسية إلى هذه العبادة الروحية توجيها أساسه الترغيب لنيل عظيم

الجزاء ووافر العطاء. ومؤداه إلى الحديث المروي عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه– حيث يقول الله تعالى في ذلك الرجل الذي قام في ليلة باردة فتوضأ وصلى:" **فإنِّي أعْطيتُه مَا رَجَا وَأمَّنتُه مِمَّا يخَافُ** " فنلاحظ أنّ هذا الفعل الإنجازي قد تصدر بالتأكيد:" إنّي " وهذا من صنف التقريريات كما بين ذلك سيرل بحيث يكون المتكلم مسؤولا عن الأحداث التي يصفها ويكون صادقا في التعبير عن الواقعة.

والتوكيد يزيد في شدة الفعل الإنجازي،فالرسول –صلى الله عليه وسلم– يؤكد أنّ الله تعالى سينجز وعده لعباده.

فالرابط في هذه النتيجة هو الحرف "إنّ" وهي من حروف المعاني التي لها دلالة التوكيد، بالإضافة إلى الحرف "قد" الذي يليه الفعل الماضي، "أعطيته" فيدل على التحقيق وهو مؤشر لتوكيد الفعل وتقوية غرضه.

وفي هذه الإشارات اللغوية وعد من الله تعالى إلى عباده بان يعطيه ما رجا ويؤمنه ممّا يخاف ،وهذا انطلاق من مقدمة مؤداها ما ورد في الحديث :"ألا إن الله يضحك إلى رجلين، رجل قام في ليلة باردة من فراشه ولحافه ودثاره فتوضأ ثم قام إلى الصلاة...."

فاستفتح حديثه بحرف "ألا" الذي يفيد معنى العرض، وهو طلب فيه لين ورفق ليستميل القلوب فتنقاد طائعة لتلقي الرسالة التي وظيفتها إقناع المستمعين والتأثير فيهم، وقد تستعمل "ألا" للتحضيض، وهو أقوى درجة من العرض، وفي العرض يكون السامع مستفيدا من مضمون الطلب. ثم وليتها جمل تقريرية يخبرنا الرسول –صلى الله عليه وسلم–من خلالها أن الله يضحك من رجلين.... والضحك هنا دلالته الرضى والقبول ،فرجل قام في ليلة باردة من فراشه و لحافه ودثاره "، وهذه معطيات تؤكد أن الحال التي كان عليها هذا الرجل تغريه بان يبقى مكانه، وكلها مثبطات للعزيمة ،إلا أن دافع الرغبة في التواصل والتفاعل أقوى ،فتوالت الأحداث بتوالي روابط الجمل،"قام....فتوضأ، ثم قام إلى الصلاة ". فيقول الله –عزّ وجلّ– لملائكته: "ما حمل عبدي هذا على ما صنع؟ فيقولون: ربنا رجاء ما عندك، وشفقة مما عندك"،فنلاحظ الحوار المتزامن مع الأحداث، فهو يرمي إلى إقناع السامع أن عمله متقبل ، وذلك لصدق إخلاصه،وما الجملة

الاستفهامية إلا تأكيد القصد وليس الغرض منه طلب العلم بالشيء ،فالله –جلت قدرته– عالم بكل شيء ولا تخفى عنه خافية.ويؤكد للملائكة صنف الأخيار من عباده الذين يرجون رحمته .

ثم تأتي النتيجة متلائمة في الغرض مع مبنى المقدمة :"فاني قد أعطيته ما رجا وأمنته مما يخاف "

والغاية إرشاد الناس إلى منفعة عملية تكسبهم نشاطا وقوة، فالقيام ليلا والتوضؤ والصلاة هي أعمال فيها حركة واجتهاد لمقاومة خمول النفس وبعث لها لتجديد طاقتها ثم دفعها للحصول على زادها والتقرب إلى ربها.

وهكذا يتساوق مضمون هذا الحديث القدسي مع الذي يليه في دفع الإنسان إلى العمل، والى الحركة وبعثه من سكونه لحظة بعد أخرى فيقول اصدق المرسلين –عليه الصلاة والسلام–:"**يعقد الشَّيطانُ على قَافِيةِ رأْسِ أحَدِكُم إذَا هُوَ نَاَم ثَلاث عُقَدٍ ،يَضرِبُ على مكَانِ كلِّ عُقْدَةٍ عليَكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارقُدْ، فَإنْ اسْتيقَظ فَذَكَرَ الله انْحلَّتْ عقْدَة فإنْ توَضَّأ انحَلَّتْ عقْدَة، فإنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عقْدَة ،فأصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلاَّ أصْبَحَ خبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَن**"

(متفق عليه) .

ويندرج الفعل الإنجازي ضمن الأفعال :"ذكر" و"توضأ" و"صلّى"

والجمل المتضمنة لهذه الأفعال هي:

–فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة.

–فإن توضأ، انحلت عقدة.

–فإن صلّى انحلت عقدة.

فكل الجمل تضمنت أسلوب الشرط،وللشرط وظيفة تداولية في تفعيل الخطاب ودفع آليته في سرعة وتتابع،ويتجسد ذلك ابتداء من حرف الشرط "إن" المتبوع بفعل ماض ،"استيقظ" ومعطوفه "فذكر" ،ثم يأتي جواب الشرط مباشرة "انحلت"، وكان الموقف يتطلب هذه السرعة وهذا التتابع لانفراج الأزمة ،كذلك الجملة الثانية :حرف الشرط "إن"، فعل الشرط "توضأ" جواب الشرط:"انحلت" والجملة الثالثة:حرف الشرط "إن"، فعل الشرط صلّى جواب الشرط: "انحلت".

ولإجلاء معنى الفعل الانجازي نلاحظ التدرج في العمل حتى يؤول إلى الغرض المطلوب، ويكون التواصل أقوى بين المتكلم والسامع ،فبدءا بالفعل استيقظ ثم تلته الأفعال:فذكر الله ، و توضأ وصلّى فانحلت كل العقد .

والخطاب الوارد في بداية الحديث الغرض منه تبليغ المخاطب بمقدمة أحداثها كالآتي :

" يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب على مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد" ، وأفعال هذا الخطاب فيها شدة ليكون تأثيرها على النائم أقوى فلا يستطيع التخلص منها:

فيعقد فيها إحكام،ويضرب فيها وقع وشدة، وعليك اسم فعل أمر، وارقد فعل أمر، وفيها إلزام،وكل هذه المعطيات تجعل النائم في دائرة مغلقة،والسبيل للخروج منها مجسد في الفعل الإنجازي، وهو التدرج في العمل بهمة ونشاط الذي يحقق له نتيجة إيجابية فتتفرج الأزمة، في قوله:" فأصبح نشيطا طيب النفس".

وتكون القضية كالآتي:

إن استيقظ ذكر الله وتوضأ وصلى انحلت العقد ←أصبح نشيطا طيب النفس.

أما نقيض القضية فهو :

إن لم يفعل ما تقدم ←أصبح خبيث النفس كسلان.

والفائدة التي ترمي إليها التداولية من هذا الحديث هو الحث على الإنجازات العملية اللازمة التي لا يمكن التهاون فيها أو الغفلة عنها ومؤداها ذكر الله تعالى والالتزام بطاعته في كل ساعات اليوم ،خاصة في الليل الذي يعد العمل فيه أشد وطءا على النفس فتنساق إلى أهوائها و وساوسها ،فليستيقظ كل إنسان داعيا الله : "الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا واليه النشور" [1]

وكان المنهج الرباني واضحا مذ خلق الله تعالى البشر، فخاطب آدم – عليه السلام– ودعاه أن يلجأ إليه في كل حين خاصة وقت الشدة ، وتفصيل ذلك في الفعل الإنجازي الوارد في الحديث السابع عشر بقوله:" **واحِدَةٌ لِي ووَاحِدةٌ لَك و وَاحِدةٌ بَيْنِي وبَيْنَك** "

1- البخاري (أبو عبد الله محمد بن إسماعيل) ،صحيح البخاري ، ضبطه مصطفى ديب البغا ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة ،(د ط) ،1992 ،ج 5 ،ص 2326 .

فجاء الفعل الإنجازي مجملا في المقدمة، يتضمن مبتدأ وخبره شبه جملة وجملة معطوفة على بعضها.

والقول يحمل خبرا، وكان الإخبار بالاسم وهذا يفيد إثبات المعنى دون تجدده لأن الخطاب حامل لمعناه فالعهد الذي اتخذه الله في الاستجابة لكل من دعاه نافذ وثابت لا يتغير ،والعبارة النبوية لها فعالية خطابية تتسم بنظام لغوي محكم تؤثر في العالم وتغير سلوكه من خلال مواقف مقنعة ، فالانتقال من الإجمال إلى التفصيل وسيلة تداولية تهدف إلى غايات تربوية، وكان المؤشر في هذه العلاقات هو الحرف " أما" الذي يفيد معنى التفصيل، والكلام بعده يفسر ما كان مجملا، فقوله:

واحدة لي تفصيلها ←فأما التي لي : تعبدني ولا تشرك بي شيئا.

وواحدة لك تفصيلها ←وأما التي لك: فما عملت من شيء جزيتك به، وأنا أغفر وأنا غفور رحيم.

وواحدة بيني وبينك تفصيلها ←وأما التي بيني وبينك: منك المسألة والدعاء، وعلي الإجابة والعطاء.

فجاءت الجمل تحمل إفادات للمتلقين من خلال توضيح ما كان مجملا، واحتوت الجمل التفسيرية أفعالا وأسماء، فالفعل فيه تجدد للمعنى فينبض حيوية وحركة فقوله: ما عملت من شيء جزيتك به جاء بصيغة شرط:

اسم الشرط ←ما، فعل الشرط ←عملت، جواب الشرط ←جزيتك به فالجزاء من جنس العمل، لأن الحجة في القول: " وأنا غفور رحيم " فإن كان العمل خيرا كان الجزاء والثواب، وإن كان العمل شرا واستغفر العبد ربه، كانت المغفرة والرحمة.

وأما قوله:منك المسألة والدعاء وعلي الإجابة والعطاء، فتتشكل من جمل اسمية دالة على الثبات، وغرضها أن الله –عزّ وجلّ– يحث عباده للإقبال عليه والتوسل بما لديه، لأن ما عنده لا يتغير أبدا، وهو ثابت على الدوام، وهذا ضرب من الترغيب لإقناع المتلقين أن عهد الله نافذ.

والغرض من الفعل الإنجازي في هذا الحديث هو الصيغة العملية التي يجب إنجازها من خلال عبادة الله والعمل الصالح والتضرع إلى الله بالذكر والدعاء، وإذا أنجز العبد عملا مفيدا عليه أن يتوقع دائما النتيجة الإيجابية.
ويتحقق العمل بقوة في الفعل الإنجازي:" **كُفِيتَ ووُقِيتَ** " المذكور في الحديث القدسي الثامن عشر فمقدمة هذا الحديث استهلت بشرط ترتبت عنها نتيجة الفعل الإنجازي.
وهكذا لن يتحقق الفعل ما لم تكن هناك معطيات أولية:
اسم الشرط: من، فعل الشرط: قال.....، وجواب الشرط: يقال له..........
فبين الشرط والجواب نجد الفضاء النصي الذي يشمل مساحة الألفاظ الآتية: "من قال:.....بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله".
فالتلفظ بهذه الكلمات يولد أثرا يتحقق إنجازه في جواب الشرط:"يقال له: كفيت ووقيت وتنحى عنه الشيطان".
فجاءت الأفعال الإنجازية "كفيت ووقيت" مبنية لما لم يذكر فاعله لأنه معروف لدى العام والخاص.
فالفعل "يقال له" منسوب إلى الملائكة المكرمين الموكلين بهذا العمل، حيث يراقبون عباد الله وينقلون كل أعمالهم، فالخطاب هنا حلقة متواصلة بين الله والملائكة والعباد، تعجز الأقلام بلوغ مرامه.

وهذا الدعاء يندرج عند تأهب المسلم للخروج من بيته، معلنا خضوعه وذله وتفويض أمره لرب العزة، ومعترفا بقدرته وقوته ومشيئته، وما سيكون هو في علمه سبحانه وتعالى، فتتلطف به الملائكة مبشرة إياه أمر ربه، وأنه كفاه وأعانه وهداه إلى صراطه المستقيم، وجنبه كل ما يؤذيه فأصبح في كنف الله وحمايته. وقوله "وتنحى عنه الشيطان" فيه إشارة ابتعاده عن كل المغريات التي توقعه في المعاصي، وتوقيع ذلك في قول رسول–صلى الله عليه وسلم–"فيقول له شيطان آخر، كيف لك برجل قد هدي وكفي ووقي " رواه ابن ماجة أي أنك لن تقدر عليه.

والغرض من هذا الفعل الإنجازي العمل بما جاء في الحديث الذي يحمل دعاء الخروج من البيت وهو:" بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله"

والنبي–صلى الله عليه وسلم– يريد أن يعلم الناس قولا عمليا ينجزونه كلما خرجوا من بيوتهم لما فيه من منفعة. والقول هو العمل كما ذكر أوستين ويتحقق هذا في الحديث القدسي الذي يوصل الإنسان إلى بر السلام بمجرد التلفظ بعبارة "لا حول ولا قوة إلا بالله " وفعلها الإنجازي قول الله تعالى:" **أَسْلَمَ عَبْدِي واسْتَسْلَمَ** "

استفتح الرسول–صلى الله عليه وسلم– الحديث، بأحد حروف المعاني وهي "ألا" ، وهي من حروف الاستفتاح التي تفيد التنبيه: وفي منظور اللسانيات التداولية تكون مع فعلها فعلا كلاميا يفيد معنى العرض، والغرض من ذلك التأثير في المخاطب، فيحمله على إنجاز عمل أو تركه، ولها قوة إنجازية وذلك حسب المقامات والسياقات المناسبة.

والمقام هنا تعليمي ، لأن الرسول–صلى الله عليه وسلم– يريد نصح وإرشاد أحد الصحابة. ويريد تعليمه ما ينفعه ويرفعه، في قوله:"ألا أعلمك، أو قال–ألا أدلك– على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة؟ تقول: لا حول ولا قوة إلا بالله..."

فالخطاب فيه لين ورفق لأن الغرض يتضمن التشويق، الذي هو من وسائل التأثير في المتلقي، ورسالة الإسلام قائمة على إصلاح النفس الإنسانية، وأن كل ما اشتملت عليه سنة النبي–صلى الله عليه وسلم–هي غاية في الكمال والصلاح حيث لم تغفل حتى الأمور البسيطة.

فقوله:" نقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله–عزّ وجلّ–أسلم عبدي واستسلم " فبمجرد التلفظ بهذه المقولة تجعل الإنسان يحقق سلوكا عمليا ينال رضى الله–عزّ وجلّ– ونجد توقيع ذلك في القرآن الكريم في سورة الكهف، قوله تعالى:﴿ **وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ الله لاَ قُوَّةَ إلاَّ بِالله**﴾[1].

" وفي هذا القول إظهار الفقر إلى الله تعالى بطلب المعونة على ما يزاوله من الأمور وهو حقيقة العبودية وقوله–صلى الله عليه وسلم– « فيقول الله عزّ و جل ». " قال الطيبي:هذا جزاء شرط محذوف أي إذا قال العبد هذه الكلمة يقول الله تعالى، قال ابن حجر: أي لملائكته معلما لهم بكمال قائلها المتحلي بمعناها" ، وقوله جلّ وعلا، "أسلم عبدي وأستسلم": أي فوض أمور الكائنات إلى الله تعالى بأسرها وانقاد هو بنفسه مخلصا له الدين"[2].

1- سورة الكهف، الآية 39 .
2- عبد القادر عرفات، الأحاديث القدسية ،ص191 .

فالفعل أسلم ←—— فيه معنى الانقياد والخضوع والطاعة.
واستسلم ←—— من صيغة اسْتَفْعَلَ ودلالتها طلب الشيء، أو التحول من حال إلى حال، وتعني هنا تفويض كل شيء إلى الله تبارك وتعالى.

والغرض من الفعل الإنجازي هو غرس قيم الإيمان في النفوس من السنة القولية إلى السنة العملية حتى يكون العبد على دراية واعية بقيمة وجوده وعلة خلقه.

والإنجاز يتضمن معنى الحدث والحركية التي تدفع إلى التغير في كل الاتجاهات، سواء أكان زمانيا أم مكانيا، ويحمل كل خطاب في هذه النصوص دعوة إلى التغير والتجديد، ونلحظ ذلك في العمل الدعوي الذي قام به الرسول – صلى الله عليه وسلم– وصحابته ما بعده، والعلماء اليوم، ولهذا العمل وجهان:
الأول: تداول اجتماعي يذاع بين الناس فيشتغل به في كل مرافق الحياة الاجتماعية.
الثاني: تداول تربوي يهدف إلى تكوين جيل من الحكماء الربانيين، ويسعى إليه الناس تعلما وتزكية ومدارسة وتدبرا وتبصرا.

وكل من اقتدى بمنهج رسول الله–صلى الله عليه وسلم–عليه بالعلم والعمل، ليكون نبراسا ينير مسالك الضالين.
وكما كان العمل خالصا لوجه الله كانت النتائج مقبولة وفعاليتها في قوة الفعل الإنجازي في قول الرسول–صلى الله عليه وسلم–عن الله– عزّ وجلّ–قال: "**ارْكَعْ لِي منْ أَوَّلِ النَّهارِ أربَعَ ركَعَاتٍ، أَكْفِكَ آخِرَهُ** "
استهل الحديث بأسلوب نداء " ابن آدم" وحذفت أداة النداء، أما المنادى فهو: ابن آدم، ومضمون النداء:" اركع لي من أول النهار أربع ركعات أكفك آخره"
فحذفت أداة النداء كناية عن القرب، لأن العبد يكون أشد قربا إلى الله–عزّ وجلّ– أثناء سجوده، فأراد الله أن يتحقق هذا القرب، ولا يكون إلا في الصلاة.
فالمرسل يريد التقرب من المرسل إليه، والوسيلة في ذلك هي الصلاة.

وقوة الخطاب متضمنة في الفعل: "اركع لي أول النهار" أي تقرب لي بصلاة هي ليست مفروضة عليك، ولكن هي زيادة في الطاعة، والقرب حيث تجعلك دائما في صلة بخالقك، وغرض التقرب بالركوع يؤدي إلى تحقيق فعل

الكفاية" أكفك آخره" أي أقضي كل أعمالك، والله هو الكفيل بأن يسهل عليك إنجاز عملك طوال ذلك اليوم.

فجملة الطلب اركع لي في أول النهار أربع ركعات ـــــــ الجواب، أكفك آخره والحديث هنا-كما ذكرنا سابقا- هو تأدية نافلة الضحى، وهي صلاة تصلى عند ارتفاع الشمس إلى الزوال، وأفضلها ثمان ركعات

وفي جواب الطلب سرعة تتابع الأحداث، فإذا أنجز المتلقي العمل الذي طلب منه، تكون الاستجابة سريعة وحاضرة، وهنا تكمن قوة الفعل الدال على الوعد.

والغرض من ذلك هو إفادة المتلقين وتوجيههم إلى عمل الخير لأداء الواجبات المفروضة عليهم بصدق وأمانة في أمر خالقهم.

ويتحقق هنا مبدأ من مبادئ غرايس Grice الحوارية وهو الافتراض المسبق Présupposition، فالمعلومات المرسلة من المخاطب موجودة في شعور المتلقي لذلك فالصلاة من دعائم الإسلام يعرفها كل مسلم، كما يعرف نبيه محمد -صلى الله عليه وسلم- وأنّ الله-عزّ وجلّ- أمرنا أن نصلي عليه، وقد استبشر النبي- صلى الله عليه وسلم- بهذا الطلب وتوقيع ذلك في قوله: " إنه أتاني ملك فقال: يا محمد، إن ربك يقول:" **أَمَا يُرضِيكَ أَنْ لاَ يُصلِّي عليْكَ أحَدٌ من أُمَّتِكَ إلاَّ صَلَّيْتُ علَيْهِ عَشْرًا...**"

ففي بداية الحديث يريد المتكلم إفادة المتلقي بخبر جديد، فقوله: "إنّ رسول الله- صلى الله عليه وسلم- جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه فقلنا: إنا لنرى البشر في وجهك ؟ ".

فالوظيفة التواصلية في هذا المقام هي إعلامية، هدفها الإفادة، والحالة هنا هي رؤية الرسول- صلى الله عليه وسلم- ودلائل السرور والابتهاج بادية على محياه الكريم، فأراد القوم أن يعرفوا سبب هذه البشر، وهذا التخصيص بالحال أي الهيئة التي عليها صاحب الحال عند ملابسة الفعل له، فجاء الحال جملة " والبشر يرى في وجهه" والحال قيد في عاملها وصف لصاحبها.

ويظهر إصرار القوم على معرفة ذلك في جملة" إنا لنرى البشر في وجهه" فالتوكيد المضعف بـ "إن" و اللام ، دلالة على قوة الفعل، وأن المتكلم يريد الاستفهام ضمنيا لمعرفة سبب ذلك ، فظاهره الخبر وأما كنهه فالاستفهام.

وتشكيلة الخطاب في هذا الحديث كالآتي:

- خطاب أبي طلحة قوله: ←أن رسول الله-صلى الله عليه وسلم- جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه فقلنا: إنَّا لنرى البشر في وجهك"

- خطاب الرسول- صلى الله عليه وسلم- فقال ← إنه أتاني ملك.

- خطاب الملك ← فقال: يا محمد: إن ربك يقول....

- خطاب الله تعالى← يقول:" أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا، ولا يسلم عليك إلا سلمت عليه عشرا".

فنلاحظ كل خطاب مدعما برابط التوكيد "إنّ " وهذا فيه تقوية للفعل ليجعل المتلقي يتابع بقية الكلام بكل اهتمام. والتوكيد في منظور التداولية فعل كلامي غرضه التواصل كذلك النداء الوارد في خطاب الملك: يا محمد . والنداء كما نعلم غرضه تنبيه المخاطب لأهمية الخطاب.

كما يتقدم الفعل الإنجازي حرف من حروف الاستفتاح وهي"أما" وتحمل للمخاطب ملاطفة في صيغة الاستفهام " أما يرضيك ..." والهدف منه هو تأكيد الخبر للمخاطب أن كل من صلى عليه له عشر حسنات، وكل من سلم عليه له عشر حسنات.

والغرض المتضمن في هذا الفعل الإنجازي هو حث المسلمين على الإسراع في عمل الخير بالصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم- فعند البخاري من " الأدب المفرد " وغيره بإسناد صحيح عن أنس بن مالك - رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم – قال : « من صلَّى علي واحدة صلى الله عليه عشرا، وحط عنه عشر خطيئات » [1](رواه البخاري)

فالصلاة عن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيها تذكير بالأعمال الصالحة و اتباع سننه وأن يواصل العبد حياته في طاعة الله ، فالذكر يكون متواصلا، ويصاحب الذكر العمل وتلك هي الفائدة المرتجاة .

ويتحقق التواصل إذا وجد باثٌ ومتلق ونص لتأمين الفهم السليم للغة عامة، ويشتمل مجموع العمليات التي يتبادل بها المتخاطبون التأثير .

1- عبد القادر عرفات، الأحاديث القدسية ، ص195 .

فالنص يشمل الأحاديث القدسية، والبَاثُّ هو الرسول –صلى الله عليه وسلم –فيما يرويه عن ربه، والمتلقي هم الناس كافة والمسلمون خاصة .

كما أن الأشياء الخارجية قابلة كي تكون أدوات تخاطب طالما أنها تدخل في دائرة الاهتمام وتؤثر بكيفية ما في توجيه سلوكنا، وقد رأينا ذلك في علامة البشر البادية على محيا نبينا الكريم –عليه الصلاة والسلام– فهي سمة لها تأثيرها في نفوس المتلقين مما حدا بهم إلى الاستفسار لإدراك كنهها، وهدف ذلك هو التعلم ثم العمل –كما أسلف ذكره–

ومن الأساليب الفعالة في تدعيم العملية التربوية، الحوار، وهدفه الإقناع، خاصة إذا كان بطريقة حسنة تعتمد على اختيار أرق العبارات وأخف الأساليب ونلمس ذلك في الحوار القائم بين آدم وربه في الحديث القدسي الثاني والعشرين، حيث يحاور آدم ربه في خشوع وتذلل، فقال: " **أيْ رَبِّ، أَلَمْ تخْلُقني بِيَدِكَ ؟ قال بلى، قال:** ..." وصولا إلى الفعل الإنجازي؛ **قال** "**أَرَأَيْتَ إنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَاجِعي أَنْتَ إِلَى الجَنَّة ؟ قَالَ: بَلَى** "

فالطلب موجه من الأدنى إلى الأعلى، حيث تصدر الخطاب في هذا الحديث بأسلوب النداء يحمل التضرع لله عزّ وجلّ، والخضوع لحكمته، " أي ربّ " فأداة النداء " أي " وهي لنداء القريب، فيها تذلل، والمتكلم حريص ألا يسمعه أحد، فهي مناجاة بين العبد وخالقه، وفي حديث آخر« يقول له الربّ عزّ وجلّ: " أمني تفرّ ؟ وإلى أين ؟ قال: ربّ لا ،استحيتك " أي لا يا ربّ، لا أهرب منك ولكني استحيت من ذنبي وقد اطلعت عليه » [1].

فمحتوى النداء جمل استفهامية؛ ألم تخلقني بيدك ؟ ألم تنفخ في من روحك ؟، ألم تسكني جنتك ؟ ...ألم تسبق رحمتك غضبك ؟...والاستفهام – كما أشرنا– من الأفعال الكلامية المتضمنة في القول و قد صنفه سيرل ضمن الأمريات، وغرضه الاستعلام وطلب الفهم، وهو من الوظائف التداولية بين المتخاطبين،إلا أنّ الجمل الاستفهامية الصادرة عن آدم – عليه السلام – إلى خالقه ليست من باب الاستعلام ولا طلب الفهم، لأنه يعلم أن الله خلقه ونفخ فيه من روحه، وأسكنه جنته، وأن رحمته سبقت غضبه ، لكن الغرض من ذلك هو

1- المرجع السابق، ص288 .

اعتراف وإقرار بربوبية الله وعظمته وقدرته ليصل إلى غايته المنشودة وكأن ما سبق تمهيد لنفسه ليهيئها إلى التضرع لله بخطاب فيه توسل ورغبة ورهبة .

وقد أدرك المولى عزّ وجل حرقته فكان يخفف عنه وقع السؤال بالاستجابة وكانت نتائج الحوار إيجابية، لأن الخطاب كان ناجحا مفيدا، ومستوفيا لكل الشروط التي هي من مطالب اللسانيات التداولية .

فكانت الإجابة قدر السؤال، ونرى في كل مرة الجواب (بلى) فالنفي مع النفي إيجاب، وهذا يفي بمبدأ التعاون الذي ذكره غرايس، والمتضمن القواعد الأربع وهي الكمية والنوعية والمناسبة والهيئة؛ فمساهمة المتخاطبين كافية لفهم معنى الجمل، كما أن المعلومات التي ذكرها آدم –عليه السلام– صحيحة وواضحة وخالية من الغموض ومناسبة للمقام الذي قيلت فيه .

وتعداد النعم استدراج لتحقيق الفائدة المتضمنة في الفعل الإنجازي "

أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصْلَحْتُ، أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الجَنَّة ؟ قَالَ : بَلَى "

فالاستفهام متبوع بأسلوب شرط : إن تبت و أصلحت...

حرف الشرط " إن " وهي للشك، لأن التوبة والإصلاح متعلقين بالإنسان والإنسان كثير الخطأ والنسيان، فلم يبن الفعل على اليقين .

كذلك جواب الشرط " أراجعي أنت إلى الجنة ؟ " جاء مصدرا بأسلوب استفهام والهمزة من حروف الاستفهام، تحمل معنى الشك في الفعل،" و الهمزة لطلب التصديق أو التصور" [1] ويطلب بها جواب لا يحتمل إلا الإثبات والنفي،وهذا تأكيد لقوة الفعل، لأن رغبة آدم – عليه السلام– ملحة للعودة إلى جنته التي أخرج منها جزاء معصيته ، فطفق يبحث عن الوسيلة الفعالة التي تعيده إلى ما كان عليه، فالنفي بعد الاستفهام (ألم) فيه حسرة وندم وبحث عن ركن شديد يأوي إليه .

والغرض من هذا الخطاب هو السعي إلى تحقيق منفعة روحية يطمح إليها كل من عرف قيمة وجوده في هذه الحياة، فطوبى للأوابين. والداعي إلى فعل الخير كفاعله، وهذا رسولنا الكريم وقد تهيأت له الأسباب لحمل هموم الأمة يدعو ربه أن يهدي الضال ويتوب عن المذنب ويتقبل العمل اليسير، ويلتمس

1- القزويني ،التلخيص في علوم البلاغة ،ص41 .

ذلك في أوقات الاستجابة كيوم الوقوف بعرفة وهي من أركان الحج –يكون الدعاء فيها مقبولا .

ويحملنا هذا العمل إلى الفعل الإنجازي الوارد في الحديث القدسي الثالث والعشرين : "...**دعا لأمته عشية عرفة** ..."

فالحوار في هذا الحديث يهدف إلى الإقناع ، ومقدمة هذا الخطاب؛ أن الرسول – صلى الله عليه وسلم– دعا لأمته عشية عرفة " فهذه جملة تقريرية غرضها الإخبار، وأن الله عز وجل – قد أجابه: " **إِنِّي غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلاَ الظَّالِمُ، فَإِنِّي آخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ** "

ويتصدر الجملة مؤشر تداولي وهو أداة التوكيد " إنّ " يليه فعل ماض غفرت وجملة استثناء، " ما خلا الظالم "، فقد غفر لجميع الناس وأخرج الظالم من تعميم حكم سابق بواسطة أداة استثناء " ما خلا "، وقد أكد أنه لم يغفر له حتى يأخذ حقّ المظلوم منه، لأن حكمه عادل في خلقه .

فكانت رغبة الرسول – صلى الله عليه وسلم– أن يشمل عفوه وحكمه كلّ الناس دون استثناء، وتجسدت هذه الرغبة في الخطاب الذي ترجى فيه الله تعالى مستهلا إياه بالنداء: أي ربّ، وفيه تضرع لله بأن يغفر للظالم، ويعطي حقّ المظلوم من الجنة، وأن الله ذو فضل عظيم، لكن لم تتحقق نتيجة الخطاب الثاني في حينها لقوله: " فلم يجب عشية " وهذا ما دفع الرسول – صلى الله عليه وسلم– إلى تكرار الدعاء في اليوم الموالي، في قوله: " فلما أصبح بالمزدلفة، أعاد الدعاء " .

والتكرار تأكيد للخطاب لما فيه من مرامي التداولية ، لأنها تهتم بالجانب الاستعمالي للغة، فكان أثر هذا التكرار ناجحا، وتحقق الغرض المنشود، وهو إجابة الله لدعاء نبيه، بأن يغفر للظالم لقوله: " فأجيب ما سأل "، وهنا ضحك النبي – صلى الله عليه وسلم– واستبشر استحسانا لما منّ الله به على عباده في ذلك اليوم المشهود ، يوم عرفة .

فكان ضحكه التبسم، فاستفسر أبو بكر وعمر عن سبب تبسمه، لأنه ما كان يفعل ذلك، وهما في ساعة متأخرة من الليل وهي ساعة التفرغ للعبادة، لقوله: فقال له أبو بكر وعمر: بأبي أنت وأمي، إن هذه لساعة ما كنت تضحك

فيها، فما الذي أضحكك ؟- أضحك الله سنك - " وهذه جملة اعتراضية دعائية، فأخبرهم أن عدو الله إبليس، لما علم بأن الله قد استجاب لدعائه وغفر لأمته، أخذ التراب فجعل يحثوه على رأسه حزنا منه وغيظا، فدعا بالهلاك على ما نزل به، فضحك عليه السلام من جزعه وحزنه على فوات الخير له وحصوله لأمته – صلى الله عليه و سلم " [1]

والغرض من هذا الفعل الإنجازي هو تلقين المخاطب وإقناعه بأن الدعاء مستجاب يوم عرفة، حتى يحافظ العبد على صلته بخالقه في أوقات العبادات ولا يفوت على نفسه مثل هذه الفضائل .

وأن القوة المتضمنة في هذا الفعل تتمثل في التغلب على المعاصي ووساوس النفس، وأن عدو الله أضعف من أن يقاوم، وأمره مضحك كما صوره الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

والدعاء قوة خطابية فعّالة تشحذ الهمم وتقوي العزائم و إنجازها عملي متصل بالحياة كلّها.

كما يحتوي هذا الحديث بعض الإشارات المكانية ذات مدلولات تداولية و يتحدد معناها في إطار المقام، نحو ذكر :عرفة و مزدلفة وهي تشير إلى أماكن عبادة وقت فريضة الحج، لا يعرفها إلا المسلم لأنها من شعائر دينه، وهذه التعبيرات لا يمكن أن تفهم إلا في إطار المعنى الذي يقصده المتكلم؛ كذلك الدعاء في هذا اليوم خاص بالمسلمين لا غير، والدعاء إنشاء في مجال الممكن ومظهره في هذا الحديث جرى في صيغة فعل ماض " دعا " مسند إلى فاعل "- النبي صلى الله عليه وسلم- " ، ومن دعا الله لا يقنط أبدا من رحمته، لأنه كرمه مطلق، وفي الحديث إرشاد للأمة إذا طلبت من خالقها مسألة أن تعزم وتعظم الرغبة أي تبالغ في ذلك بتكرار الدعاء والإلحاح فيه كما فعل النبي –عليه الصلاة والسلام– حتى غفر الله للظالم، ومن هنا ندرك أن فضل الله على عباده لا يعد ولا يحصى – وكما يقال: لا صغائر في مقابل عدل الله ولا كبائر في مواجهة فضله – والحديث القدسي الرابع والعشرون ينبض بهذا الكرم اللامحدود

1- ينظر الأحاديث القسية ، ص183 .

" فعن النبي – صلى الله عليه وسلم – فيما روى عنه ربه تبارك وتعالى أنه قال: يا عبادي ..."

فتضمن الفعل الإنجازي في هذا الحديث أفعال النداء وأفعال الأمر وأفعال التقرير. وغرضها الإبلاغ والإفهام والإفادة، فهي تعالج قضايا خاصة بأحوال المسلمين، وذلك في أسلوب تداولي .

فالخطاب موجه إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم– ومنه إلى المسلمين، فأفعال الكلام المنجزة في هذا الحديث فيها تفاعل بين المرسل والمرسل إليه ومن نماذجها النداء: " يا عبادي " فأداة النداء " يا "، والمنادى " عبادي " و قد تكررت عشر مرات، وكما ذكرنا أن النداء من وسائل التنبيه ولفت اهتمام المخاطب لما سيلقي إليه من قول أما مضمون النداء ما جاء في الجمل الموالية له و هي :

- يا عبادي ← إنّي حرمت الظلم
- يا عبادي ← كلكم ضال إلا من هديته
- يا عبادي ← كلكم جائع إلا من أطعمته
- يا عبادي ← كلكم عار إلا من كسوته
- يا عبادي ← إنكم تخطئون بالليل و النهار
- يا عبادي ← إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، و لن تبلغوا نفعي فتنفعوني
- يا عبادي ← لو أن أولكم و آخركم...كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم
- يا عبادي ← لو أن أولكم و آخركم...كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم
- يا عبادي ← لو أن أولكم و آخركم ...قاموا في صعيد ...
- يا عبادي ← إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ...

ثم تأتي الجمل الطلبية :

- لا تظلموا – فاستهدوني– فاستطعموني– فاستكسوني– فاستغفروني–

تظهر قوة الفعل الإنجازي، في دعوة الله عزّ وجلّ الناس بأن يلتزموا أوامره لما فيها من خير .

والإفادة تكمن في رغبة الرسول – صلى الله عليه وسلم– أن يبلغ المسلمين مجموعة من التعاليم الإلهية، فتوصلهم إلى بر النجاح وتنفعهم في حياتهم العملية .

فتنوع الخطاب في هذا الحديث وكثر فيه التكرار الذي يعد من الأفعال الكلامية التي تهدف إلى التأكيد مثل: " كلكم جائع..." " كلكم عار..." " لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم و جنكم ..."

كذلك التأكيد بالحصر في قوله : " إنما هي أعمالكم أحصيها لكم .."

وهذا التنوع يتسم بالبعد التداولي يهدف إلى تفعيل التواصل بين المخاطب والمخاطَب، وغرس القيم الأخلاقية في نفوس الناس، وكذلك فيه تلقين العقيدة .وفتح نوافذ العقل على أعماق الشريعة، فنجد الرسول –صلى الله عليه وسلم– يهتم بكل جوانب الحياة الإنسانية، ويصوغها في شرعه صياغة أخلاقية تتضمن الجانب النظري والجانب العملي .

واحتوت لغة هذا الحديث كما رأينا كل وسائل التأثير لتوجيه سلوك الناس الوجهة الصحيحة لفهم مقاصد الشريعة .

ووفرة المؤشرات التداولية من نداء وتوكيد وطلب وحصر وشرط أعطت قوة للفعل الإنجازي، غرضها تنبيه المخاطبين إلى إنجاز عمل فيه فائدة لهم، ويحقق مصالحهم أينما وجدوا .

وهذا حرص من النبي – صلى الله عليه وسلم– على أمته حتى تكون قوية معتصمة بحبل الله المتين وركنه الشديد، وحبه لدينه جعله يرغب في أن يدخل الناس كافة فيه، محاولا أن يهيئ لهم الأسباب كما فعل مع قريش عندما طلبوا منه أن يدعو الله لهم ليجعل الصفا ذهبا، طمعا في زخرف الدنيا ومادياتها، ولكن الله وعدهم بما هو أفضل وأبقى، وتوقيع ذلك في الحديث القدسي الخامس والعشرين، « قالت قريش للنبي – صلى الله عليه وسلم – أدع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا، و نؤمن بك :... »

فالفعل الإنجازي: " **إِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَ الرَّحْمَةَ** "

جاء الخطاب في المقدمة متضمنا لجملة طلبية: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا، ونؤمن بك ..." فالمخاطب قريش والمخاطَب الرسول –صلى الله عليه وسلم –. والغرض من الفعل الكلامي هذا هو تحقيق فائدة آنية وهي الطلب من الله عزّ وجلّ أن يجعل الصفا ذهبا، وإن حصل هذا يتحقق الإيمان .

فبادر الرسول – صلى الله عليه وسلم– ليتأكد من قولهم : " وتفعلون ؟ " والاستفهام مؤشر تداولي لتقوية الفعل السابق؛ " ونؤمن بك" وهو تأكيد للمعنى، ويؤول هذا إلى حرص النبي – صلى الله عليه وسلم – على هداية الناس، ورغبته في تبليغ رسالة الإسلام بشتى الوسائل، أساسها الإقناع وطريقتها صياغة خطاب لا إكراه فيه ولا انغلاق ليتسنى للآخر استيعاب آليات الدعوة وتفهم الخطاب، ومن ثم يتحقق الاعتقاد.

فحملت أفعال الكلام المعاني المباشرة فيها جدال بالتي هي أحسن ليفهمه المخاطب قبل أن يتأثر بمقصده.

وعندما تيقن من قصدهم دعا الله لهم، فأتاه جبريل – عليه السلام – فقال: « إن ربك يقرأ عليك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم أبواب التوبة والرحمة " قال: " بل باب التوبة والرحمة » .

فكان جواب الله –عزّ وجلّ– بأسلوب غايته الوصول إلى عقل الإنسان وإلى بصيرته فتتولد الفكرة النابضة بالحق، المذعنة لناموس الكون دون جدال ولا مراء، في خطاب يتساوى فيه الفعل أو الترك، ومهمته الاختيار أسندت للرسول – صلى الله عليه وسلم – " إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبا...وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة " فالقضية عقائدية، وما كان الرسول الكريم صاحب العقل النافذ أن يميل إلى أهواء قومه، لأنه يعلم أن النفس البشرية ضعيفة لا تقاوم الإغراء، ويعلم أيضا أن غضب الله شديد، وأن وعده قاطع لا محالة، والإشكالية هي كيف يتوصل إلى إحداث الإقناع واستحضار الإرادة التي تخدم هدف الحديث في إصلاح الناس، و هدايتهم إلى الإيمان، وإن كانوا لا يدركون ذلك، والغلبة في هذا المقام تكون للفطرة السليمة، فانبرت حكمة الرسول – صلى الله

عليه وسلم– في الاختيار ما هو أفضل وأبقى لأمته حرصا على منفعتهم فقال: " بل باب التوبة والرحمة "

وهذه النتيجة مرتبطة بقانون الإفادة في إطار تداولي يهدف إلى إقناع الآخر عن طريق مخالفة ما يدعون إليه لأن فيه هلاكهم، ويختار لهم الأفضل الذي فيه نجاتهم ليحملهم على إدراك وتصور الرحمة الإلهية التي أوحى بها السياق النصي .

فكانت الأفعال مباشرة ومؤثرة في مخاطبة النفس، تستجيب للبعد الإصلاحي الذي اتبعه الرسول– صلى الله عليه وسلم– في الدعوة إلى الله، لأن الموقف عقائدي يخص قيمة الإنسان في المجتمع التي لا تأتي إلا بعبادة الله وحده والإيمان به واللجوء إليه إذا كثرت الذنوب واشتدت الكروب فباب رحمته واسع، وما عنده خير .

فالقوم ← دعوا الرسول دعا ربه ← أجاب الله عن طريق جبريل

القوة المتضمنة في القول ← تقبل التوبة و الرحمة .

والغرض منه حث الإنسان على التمسك بحبل الله والاعتصام به ليغفر له، فكنوز الدنيا فانية ورحمة الله باقية.

وما نلحظه في الأحاديث القدسية تلك المقدرة التواصلية Communicative Compétence التي ذكرها ديل هايمز D.Hymes (1972) وهي أن نتجاوز وصف الصيغ المستعملة في اللغة لنركز على وجوه المعرفة المشتركة بين المتكلم والسامع ثم على الاستعدادات الإدراكية لكلا الطرفين واقترح جمبرز John Gumperz(1982) تعديلا آخر لها، وهو المعرفة الاتصالية هي معرفة الأدوات اللسانية، والاتصالية التي يملكها المتكلمون والمستمعون من أجل أن يخلقوا حالة معينة تمكنهم من الانخراط في الحديث لجعله مستمرا [1].

وتتجلى هذه المقدرة الاتصالية عبر سطور الحديث السادس والعشرين في أرقى صورة من صور الخطاب .

1- مازن الوعر ، نظرية تحليل الخطاب واستقلالية نحو الجملة ، مجلة الموقف الأدبي ، العدد 385 -2003- ص04 .

وما يلاحظ في هذا الحديث وفرة أسلوب الحوار، وتنوع الجمل بين الخبر والإنشاء.فالخبر تتضمنه الجمل الآتية :

- إن عبدا أصاب ذنبا وربّما قال: أذنب ذنبا .
- ثم مكث ما شاء الله ثم أصاب ذنبا أو أذنب ذنبا .
- ثم مكث ما شاء الله ...

والخبر فيه تقرير، حيث تترتب مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به، ويلجأ الإنسان إلى الخبر بدافع الحاجة التواصلية، والتعبير عما في النفس .

أما الجمل الإنشائية فهي تتضمن طلب العبد من ربّه أن يغفر له، في قوله : ربّ أذنبت ذنبا وربما قال: أصبت فاغفر " فالطلب هنا من الأدنى إلى الأعلى، فهو دعاء ، واعلم أن أصل الدعاء أن يكون على لفظ الأمر ، و إنما استعظم أن يقال أمر، و الأمر لمن دونك ، الدعاء لمن فوقك " [2].

والجملة كما نلاحظ تتضمن نداء ثم إقرارا ثم طلبا، وقد تكررت لتكرار الذنب، والتكرار من منظور التداولية يفيد التأكيد، فالعبد مصر على التوبة، حيث يلجأ كل مرة يذنب فيها إلى خالقه فيدعوه أن يغفر له. وهو متيقن أن العفو بيده سبحانه.

ويظهر كرم الله –عزّ وجلّ– بلا حدود، في تلبية دعائه كل مرة في قوله: أعلم عبدي أن له ربًّا يغفر الذنب و يأخذ به، غفرت لعبدي ...حتى يقول غفرت لعبدي ثلاثا فليعمل ما شاء ".

وسمة هذا الخطاب اللطف واللين، "أعلم عبدي " فالاستفهام يخرج إلى غرض الخبر، ويفيد التقرير، أن العبد فعلا قد علم أن هناك إلٰها يجب أن يؤوب إليه المذنب ليغفر له، وقد تكررت الجملة ، فكلما تكرر الطلب تكرر الجواب. ويحمل دائما نتيجة متوقعة .

لأن الخطاب إذا أسفر عن نتائج سلبية فإنه سيفقد دوره التأثيري، أما إذا " استند إلى نسق من الاستنتاج المنطقي الذي تفرضه التراكيب اللغوية للخطاب فإنه يؤدي إلى التواصل والحوار ".[1]

2- البغدادي (أبو بكر محمد بن سهل بن السراج النحوي)، الأصول في النحو ، تحقيق عبد الحسين الفتلي ، مؤسسة الرسالة بيروت،ط3 ،1988 ،ص170 .
1- آمنة بلعلى ، ص09 .

وقد تحقق ذلك كما رأينا في الفعل الإنجازي " غفرت لعبدي " فالنتائج إيجابية ومؤثرة والتواصل مستمر بين الطرفين، في حوار بناء، " لأن ما تفرزه البنية اللغوية للخطاب تجعل الحوار مؤسسا على ما يقتضيه سياق التراكيب، ومن ثم تفهم مقاصد المخاطب فيتمكن من محاورته بالطريقة التي تفرض التواصل وتأثير صاحب الحجة الأقوى".(2)

وهذه الأمثلة في الحديث القدسي تدل على أن الخطاب فيه من أساليب الحوار ومظاهر التواصل ما يعجز الدارس عن الإلمام به، وهي أساليب –كما لاحظنا– متصلة بمعاني أفعال الكلام، ونجد قوة الفعل في جملة: " فليعمل ما شاء " قال الإمام النووي في هذا المعنى: " مادمت تذنب ثم تتوب، غفرت لك، وأنه لو تكرر الذنب مائة مرة، أو ألف مرة، أو أكثر، وتاب في كل مرة قبلت توبته وسقطت ذنوبه، ولو تاب عن الجميع توبة واحدة بعد جميعها صحت توبته " (3) .فصيغة الجملة الطلبية " فليعمل " جاءت لمطلق العموم: " ما شاء " وهكذا يتحقق مبدأ الفائدة، وتطابق الأقوال الأفعال، وهذا غرض تربوي وإصلاحي تهدف إليه رسالة الإسلام بكل أبعادها .

ونحاول تلخيص ما ذكر في الجدول الآتي:

الأفعال الإنجازية	**اغراضها**	**مؤشراتها**
الحديث الأول : «أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني »	– يندرج ضمن صنف الوعديات فالله يعد عبده بالتقرب إليه ما دام يذكره و يعبده	– الضمائر: " أنا "، "ياء المتكلم"،"هاء الغائب"، " هو " – الشرط: "إذا "،" إن"..

2- المرجع نفسه، ص10 .
3- الأحاديث القدسية ، ص292.

الحديث		
الحديث الثاني : « إن الله وملائكته يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر ...»	– يندرج ضمن التقريرات يفيد استمرار طواف الملائكة على حلقات الذكر	– التوكيد : " إن " – الحوار : –القسم: " و الله " – الشرط : " إذا ، " لو "
الحديث الثالث : : « من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج »	–يندرج ضمن الأمريات فيها أمر ضمني لكل مصل أن يقرأ الفاتحة في صلاته	–الشرط : " مَن "،" إذا " – التكرار: كرر الفعل ثلاثا
الحديث الرابع : « أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك .فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته»	– يندرج ضمن الأمريات وفيه توجيه، وإرشاد إلى قراءة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة لما لها من فضل عظيم	– الطلب : أبشر – القصر:إلا أعطيته
الحديث الخامس : « يا ابن آدم، تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنًى، وأسد فقرك... »	– يندرج ضمن الأمريات وغرضه الموعظة والإصلاح	– النداء : " يا ابن آدم " – الطلب : تفرغ
الحديث السادس : « اقره وارقه فإن منزلك عند آخر آية تقرِؤها»	– يندرج ضمن الأمريات فيه حث على قراءة القرآن و مدارسته	– الطلب :" اقره وارقه " –التوكيد: " إنّ "
الحديث السابع : «...فيقولون يا جبريل ، ماذا قال ربّك ؟ فيقول :	– يندرج ضمن الإخباريات فكل ما أنزله الله هو حقّ	– النداء : " يا جبريل " –الحوار

الحقّ، الحقّ »		
الحديث الثامن : « ...إنّ الله عز وجل يباهي بكم الملائكة »	- يندرج ضمن الإخباريات فيه حث على الانشغال بذكر الله	- التوكيد : "أنّ " - الحوار
الحديث التاسع : « من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين...»	- يندرج ضمن الوعديات يعد الله الذاكرين بالجزاء العظيم	- الشرط " مَن " - التفضيل : " أفضل "
الحديث العاشر: « أخرجوا من النار، من ذكرني يوما، أو خافني في مقام »	- يندرج ضمن الأمريات من ذكر الله وخافه يدخل الجنة	- الطلب : " أخرجوا " - الشرط : " مَن "
الحديث الحادي عشر : « ...من يدعوني، فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له »	- يندرج ضمن الوعديات حث العباد على ذكر الله وطلب معونته	- الاستفهام : " مَن " -التكرار: تكرار أسلوب الاستفهام
الحديث الثاني عشر : « ...وعزّتي لأنصرنك ولو بعد حين »	- يندرج ضمن الوعديات يعد الله نصر المظلومين وقبول دعواتهم	- القسم :" وعزّتي " - التوكيد: " لأنصرنك " - الشرط : " لو "
الحديث الثالث عشر :	- يندرج ضمن الوعديات	- التوكيد : " إنَّ "

«...إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ...لقيتك بقرابها مغفرة ...أغفر لك... »	فمهما كانت الذنوب يغفرها الله إذا لجأ العبد إلى خالقه	–الشرط : " ما " – النداء : " يابن آدم "
الحديث الرابع عشر : «..اكتبوها كما قال عبدي »	– يندرج ضمن الأمريات فيه حث على ذكر الله	– الطلب : " اكتبوها " – الحوار
الحديث الخامس عشر : ...فإني قد أعطيته ما رجا، وأمّنته ممّا يخاف »	– يندرج ضمن التقريريات يخبر الله أن وعده نافذ	– التوكيد : إني – التحقيق: "قد أعطيته "
الحديث السادس عشر : «...فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، فإن توضأ،...فإن صلى... »	– يندرج ضمن الإخباريات وهو الالتزام بطاعة الله في كل وقت	– الشرط : " إن " – الترتيب مع التعقيب : " فإن ..."
الحديث السابع عشر : « لما خلق الله عز وجل آدم –عليه السلام – قال: واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك... »	– يندرج ضمن التقريريات تقسيم الأعمال المنجزة بين المتخاطبين .	– التفصيل بعد الإجمال : " أمَّا التي لي ..."
الحديث الثامن عشر : « ...من قال: بسم الله توكلت على الله لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كفيت ووفيت وتنحى عنه	– يندرج ضمن التقريريات إرشاد الناس إلى التواصل الرباني فيتحقق لهم الأمن والحفظ	– أسلوب القصر : " إلا بالله " –الإقرار : كفيت ووقيت

الشيطان »		
الحديث التاسع عشر : «...ألا أدلك على كلمة من تحت العرش ...؟ تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فيقول الله عز وجل: أسلم عبدي واستسلم »	يندرج ضمن الوعديات كل من ذكر الله سلم عقابه	– العرض : " ألا" – الإقرار: " أسلم "
الحديث العشرون : «...قال : ابن آدم . اركع لي من أول النهار أربع ركعات ، أكفك آخره »	–يندرج ضمن الأمريات الأمر لأداء صلاة النافلة فيه حفظ للإنسان يقيه نهاره	– النداء : " ابن آدم " – الطلب : " اركع "
الحديث الواحد والعشرون : «...يقول: أما يرضيك أن لا يصلي عليك أحد من أمتك إلا صليت عليه عشرا... »	– يندرج ضمن البوحيات رفع لمقام النبي–صلى الله عليه وسلم– بصلاة الناس عليه	– العرض: " أما " – القصر: " إلا صليت ..."
الحديث الثاني و العشرون : «...قال أرأيت إن تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة ؟ قال: بلى »	– يندرج ضمن البوحيات اعتذار آدم في ندم و حسرة لكن رحمة الله واسعة	– الشرط : " إن " – الرجاء : " أراجعي "
الحديث الثالث و العشرون : «...دعا لأمته عشية عرفة، فأجيب: إني قد غفرت لهم ما خلا الظالم...»	– يندرج ضمن التقريريات يخبرنا أن الله يغفر ذنوب عباده إذا أنابوا إليه مخلصين	– التوكيد : " إنّ " – التحقيق : " قد غفرت لهم "
الحديث الرابع و العشرون :	– يندرج ضمن الأمريات	– النداء : " يا عبادي "

« ...يا عبادي إنّي حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته...»	ينهانا الله –عز وجل– عن الظلم فيما بيننا، ويأمرنا بطلب الهداية و كل النعم منه .	– التوكيد : " إنَّ " – النهي : " لا تظالموا " – الطلب : " استهدوني "
الحديث الخامس والعشرون: «...إن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة...»	– ينـدرج ضمن الوعديات يعد الله عباده بأن يستجيب لهم	– الشرط : " إن " – الوعد : " فتحت لهم ..."
الحديث السادس والعشرون: «...أعلم عبدي أن له ربّا يغفر الذنب ويأخذ به، غَفَرتُ لعبدي »	– ينـدرج ضمن البوحيات يتوسل العبد لربه ويعترف له بذنبه، و الله غفور رحيم	– التوكيد : " أنَّ " – الإقرار : " غفرت "

بعد هذا الحصر للأفعال الإنجازية وأغراضها و مؤشراتها نستخلص أهم ميزاتها :

1- **الإيجاز** : قد اتسم الفعل الإنجازي في الأحاديث القدسية بالإيجاز والاختصار ويغني هذا عن التفصيلات المملة، لأن المقام إبلاغ المتلقين، و الكلام الموجز يستهوي القلوب ويطمئن النفوس .

وقال العقاد في ذلك: " أقوى الإبلاغ في كلام النبي – صلى الله عليه وسلم – هو اجتماع المعاني الكبار في الكلمات القصار، بل هو اجتماع العلوم الوافية في بعض كلمات وقد يبسطها الشارحون في مجلدات " [1]

2- شيوع أسلوب الشرط :

والشرط من الأساليب التي تحمل سمة التجدد والتغيير، لأن جمله في الغالب فعلية ويتميز الشرط أيضا بالاختصار، ونسقه: أداة و جملة الشرط و جوابه .

1- العقاد (عباس محمود) ، عبقرية محمد ، دار الكتاب العربي ،1969 ، ص117 .

فهو أسلوب مباشر وواضح ومؤثر في المتلقين .

3- شيوع أسلوب التوكيد :

التوكيد من الأساليب التي تتفق ومهمة التبليغ والتعليم وهي خاصية متداولة مع الذين يتلقون الكلام أوّل مرة، فينتابهم الشك ويستغلق عليهم الفهم فتكثر تساؤلاتهم، فيضطر المبلّغ أن يؤكد قوله بأساليب متعددة ولذلك لها بعد تداولي عميق في توضيح المعنى وتحقيق التأثير .

4- شيوع أسلوب القسم :

القسم في الأحاديث القدسية ألفاظه كالآتي: " والله " ، و" عزَّتِي " ، والقسم توكيد هدفه هداية النفس البشرية إلى الطاعات .

5- أسلوب النداء :

إن النداء الموجه إلى ربّ العزة متضمن معنى الدعاء ، فيجعل الإنسان في معية خالقه فيحس بقربه منه، يجيبه في كل آن، فيتذوق طعم الإيمان، وألفاظه: "ربّ "، " أي ربّ "، وأفعال الأمر المباشرة نحو: " اغفر لي " أما النداء الموجه إلى العباد فألفاظه : " ابن آدم "، " يابن آدم "، " يا عبادي " ففيه ملاطفة ورفق ولين لتهذيب النفوس والسمو بها إلى عالم الطهر والجلال

6- أسلوب التكرار :

يقوم النبي – صلى الله عليه وسلم – بتكرار بعض الألفاظ والعبارات إذا تطلب المقام ذلك، وغرض التكرار التوكيد، لترسيخ المبادئ القويمة في عقول المستمعين، لأن درجة الفهم عند المتلقين تتفاوت، فبالتكرار يتمكنوا من استيعابها والعمل بها .

7- أسلوب الحوار:

فهذه السمة شائعة في الأحاديث القدسية، فمرة يكون بين الله وملائكته، ومرة أخرى بين النبي– لى الله عليه وسالم– والملائكة، وحينا بين النبي –صلى الله عليه وسلم– والناس

والغرض من الحوار التبليغ والتعليم والإرشاد والتوجيه، وهو تواصل حي بين الطرفين الغاية منه الإقناع.

بالإضافة إلى ما سبق نجد بعض السمات المميزة التي تكسب الفعل الإنجازي قوة، كالإشارات والحركات وعبارات التنبيه ، وكل ذلك يساعد على توضيح القول وإدراك المعنى، وقد ذكرت السيدة عائشة – رضي الله عنها – أن حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان واضحا ومفهوما، فقالت : " كان كلام رسول الله –صلى الله عليه وسلم – كلاما فصلا يفهمه كل من يسمعه ".(رواه أبو داود).

الفصل الثانـي

الأفعال الكلامية في الأحاديث القدسية

دراسة وفق تصنيفات سيرلSearle

خصصت الفصل الأول لتعريف التداولية وذكرت بداياتها وأهم منظريها، وبعض ملامحها في تراثنا العربي، وطبقا لما جاء في الفصل النظري سأحاول في هذا الفصل التطبيقي دراسة الأحاديث القدسية – باب الذكر والدعاء– ضمن اللسانيات التداولية، معتمدة في ذلك على الأفعال الكلامية التي حازت اهتمام الباحثين، لأنهم رأوا أن وظيفة اللغة لا تقتصر على وصف وقائع العالم الخارجي، بل اللغة ممارسة وإنجاز أفعال بواسطة أقوال.

وقد قام الفيلسوف الانجليزي جون أوستين John Austin بتقسيم الجملة إلى قسمين: " وصفية Constatif وإنشائية Performatif ، وبنى هذا التقسيم على أساس أن الجملة الانشائية لا تصف أي شيء ولايمكن الحكم عليها بمعيار الصدق أو الكذب، ولا تستعمل لوصف الواقع بل لتغييره، وعندما نتلفظ بها ننجز عملا ". [1]

ثم أعاد النظر في هذا التقسيم، ورأي أن التقسيم السابق غير كاف، واقترح حلا آخر، فقسم الجمل إلى: أفعال إنجازية أولية Primary Performative وأفعال إنجازية صريحة Explicate Performative وذكر لهما مثالين هما:

- أعدك أن أكون هناك
- سأكون هناك

فالمثال الأول صريح لأنه يتضمن الوعد، أما المثال الثاني فالمقام هو الذي يحدد دلالته إن كان وعدا أو لا، والإنجازيات الصريحة أيسر في إدراك معناها[2] .

ثم ميز بين ثلاثة أنواع من الأعمال اللغوية؛ العمل القولي، والعمل الإنجازي والعمل التأثيري، وأقر بأن كل جملة نتلفظ بها توافق على الأقل العمل القولي والعمل الإنجازي .

ورغم هذا الجهد برزت مشاكل أخرى تصدى لها أوستين بالبحث عن حلول ملائمة، إلى أن توصل في محاضرته الأخيرة (الثانية عشرة) بتقديم تصنيف للأفعال الكلامية على ما أسماه " قوتها الإنجازية " فجعلها خمسة أصناف: الحكميات والأمريات والوعديات والسلوكيات والتبيينيات، إلا أنه لم

1- ينظر Austin , Quand Dire C'est Faire , P.41

2- ينظر محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة ، ص66 .

يكن راضيا بهذا التقسيم،" ولم يستطع أوستين أن يحقق ما سعى إليه من وضع نظرية متكاملة للأفعال الكلامية...فقد خلط بين مفهوم الفعل قسما من أقسام الكلام والفعل حدثا اتصاليا،ولم يقم تحديده للأفعال وتصنيفه لها على أساس راسخ، فتداخلت فئاتها ودخل في بعض الفئات ما ليس منها،ولكنه برغم ذلك وضع بعض المفهومات المركزية في النظرية" [1] إلا أن وريثه الفيلسوف الأمريكي جون سيرل John Searle، عدل في كثير من هذه التصنيفات وأصبحت تعرف بالمرحلة الأساسية الثانية للنظرية ،" ولقد أعاد تناول نظرية أوستين وطور فيها بعدين من أبعادها الرئيسة هما: المقاصد والمواضعات. وبالفعل يمكننا اعتبار الأعمال اللغوية والجمل التي أنجزت بواسطتها وسيلة تواضعية للتعبير عن مقاصد وتحقيقها...» [2] ورأى سيرل أن الفعل الكلامي لا يقتصر على مقصد المتكلم بل له ارتباط بالمواضعات اللغوية والاجتماعية .

كما حول اهتمامه من الفعل المتضمن في القول إلى القوة المتضمنة في القول، كما ميز ما بين الأفعال الإنجازية المباشرة Direct وغير المباشرة Indirect، وقدم تصنيفا بديلا لما قدمه أستاذه أوستين، يقوم على ثلاثة أسس منهجية هي: الغرض الإنجازي، واتجاه المطابقة وشرط الإخلاص، وجعلها خمسة أصناف: التقريريات والوعديات والأمريات والإيقاعيات والبوحيات، وعلى هذا الأساس ظهرت على يده نظرية منتظمة لاستعمالات اللغة قائمة على أسس منهجية واضحة .

فارتأيت أن أدرس الأحاديث القدسية ضمن هذه التصنيفات دراسة تحليلية تداولية .

وتصنيفات سيرل كالآتي:

1- التقريريات Assertifs: والغرض منها هو التقرير... ولنجاح هذه التقريريات يشترط حيازة المتكلم على شواهد ترجح صدق محتوى القضية ويدخل هذا الصنف مثل:(أنكر ، لخص ، أجاب ، أكّد ...)

1- المرجع نفسه ، ص 70 .

2- آن روبول و جاك موشلار ، التداولية اليوم علم جديد في التواصل ، ص33 .

2- الوعديات Promissifs: والغرض منها هو الوعد... والشرط العام لها هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل وصمنها: (التزم، تعاقد، وعد...)

3- الأمريات Directifs: وغرضها الطلب... ويشترط فيها أن تعبر القضية عن فعل مستقبل للمخاطب وضمنها: (ترجى، وصى، أمر...)
4- الإيقاعيات Déclaratifs : والغرض منها إحداث تغيير في العالم حتى يطابق المحتوى القضوى (أي المضمون المستفاد من القول) ويدخل في هذا الصنف أفعال مثل (استقال، عرّف، سمّى، قرّر...).
5- البوحيات Expressifs : والغرض منها التعبير عن موقف حيال الواقع من ضمنها: (هنأ، شكر، رحّب، عزّى، اعتذر...)[1]

وفيما يلي نحاول أن نقسم الأحاديث القدسية –باب الذكر والدعاء– ضمن هذه التصنيفات

1- التقريريات Assertifs: أو الإخباريات، والغرض الإنجازي فيها هو نقل المتكلم واقعة ما من خلال قضية يعبر بها عن هذه الواقعة، وأفعال هذا الصنف تحتمل الصدق والكذب، واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم Words –to– World ، شرط الإخلاص فيها يتمثل في النقل الأمين للواقعة و التعبير الصادق عنها، وإذا تحققت الأمانة في النقل فقد تحقق شرط الإخلاص وإذا تحقق شرط الإخلاص أنجزت الأفعال إنجازا ناجحا أو تاما وإلا أصبحت أخبارا لا معنى لها .

أما الأحاديث القدسية –الذكر والدعاء– المندرجة ضمن التقريريات فهي :

1- الحديث القدسي الثاني: ما جاء في فضل ذكر الله تعالى وكلمة التوحيد:

« إنَّ لله مَلائِكَةً، يطَوفُونَ في الطُّرقَ يَلْتَمِسُوَن أهْلَ الذِّكْرِ، فإذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوا؛ هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكم. قال: فيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إلى السَّماءِ الدنْيَا...» [2]

1- ينظر طالب سيد هاشم الطبطبائي ، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب ، منشورات جامعة الكويت، 1994 ،ص72، 73 .
2- الشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونه ، الأحاديث القدسية ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ،2001، ص 184 .

2- الحديث القدسي الرابع: في فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة «**فقَال هذا بَابٌ منَ السَّماءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لمْ يُفْتَحْ قَطْ إلاَّ اليَوْمَ ، فَتَنَزَّلَ منهُ مَلَكٌ فقال: هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرْضِ، لمْ يَنْزِلْ قَطْ إلاَّ اليَوْمَ...**»[1]

3- الحديث القدسي السابع: إذا تكلم الله تعالى بالوحي « **إِذَا تَكَلَّمَ الله بِالوَحْي، سَمِعَ أَهْلُ السَّماءِ للسَّمَاءِ صَلْصَلَةٌ كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ على الصَّفَا. فَيُصْعَقُونَ، فلا يَزَالُونَ كذلكَ حتى يَأْتيهِم جِبْرِيل...** »[2]

4- الحديث القدسي الثامن: مباهاة الله تعالى ملائكته بمجالس الذكر «...**أمَّا إِنِّي لمْ أسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لكُمْ، ولَكِنَّهُ أتَانِي جِبريلُ فَأَخْبَرَنِي؛ أنَّ الله عزّ و جلَّ يُبَاهِي بِكُم المَلاَئكَةُ** »[3]

5- الحديث القدسي الرابع عشر: ما يقوله من الدعاء عقب الصلاة «...**فقال النَّبِي – صلى الله عليه وسلم–: لقَدْ ابْتَدَرهاَ اثْنَا عَشَر مَلَكًا، فمَا دَرَوا كيْفَ يكْتُبُونَها حتَّى سَأَلُوا رَبَّهُم عزّ وجلَّ، فقال: أُكْتُبُوها كَمَا قالَ عَبْدِي** »[4]

6- الحديث القدسي الخامس عشر: في فضل قيام الليل و الدعاء فيه «**ألاَ إنَّ الله يَضْحَكُ مِنْ رَجُلَين، رجُلٌ قَامَ في لَيْلَةٍ بَارِدَة مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِه و دِثَارِه، فتَوَضَّأ ثمَّ قَامَ إلَى الصَّلاَةِ...** »[5]

7- الحديث القدسي السادس عشر: حال العبد إذا نام عن صلاة الليل قال « **يَعقدُ الشَّيطَانُ على قَافِيَة رَأْسِ أَحَدِكُم إذَا نَامَ ثَلاثَ عُقَدٍ، يَضْرِبُ علَى مكَانِ كلِّ عُقْدَة...**»[6]

8- الحديث القدسي السابع عشر: العهد الذي اتخذه الله تعالى ، في إجابة من دعاه قال: « **لمَّا خلَقَ الله عزّ وجلّ آدمَ عليهِ السَّلام قال: وَاحِدَةٌ لِي، ووَاحِدَةٌ لَكَ، ووَاحِدَةٌ بَيْنِي وبَيْنَكَ...** »[7]

1- المرجع السابق ،ص171 .
2- المرجع نفسه ، ص177 .
3- المرجع نفسه ، ص 188 .
4- المرجع نفسه ، ص61 .
5- المرجع نفسه ، ص 64 .
6- المرجع نفسه ، ص67 .
7- المرجع نفسه ، ص197 .

9- الحديث القدسي الثامن عشر: في فضل دعاء الخروج من البيت « **مَنْ قالَ يعْنِي-إذَا خرَجَ مِنْ بيتِهِ- بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ علَى الله، لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بالله، يُقَالُ لهُ كُفِيتَ ووُقِيتَ وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَان** »[1]

10- الحديث القدسي الثالث والعشرون: في دعاء النبي -صلى الله عليه وسلم- لأمته يوم عرفة « **أنَّ النَّبِيَ -صلى الله عليه وسلم- دَعَا لأُمَّتِهِ عَشِيَةَ عَرَفَة، فَأُجِيبَ،إنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلاَ الظَّالِمُ، فَإنِّي آخِذٌ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ...** »[2]

2- الوعديات Promissifs: وغرضها هو الوعد،أي أن يلزم المتكلم نفسه بفعل شيء في المستقبل، واتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات World to Words ، وشرط الإخلاص هو القصدية Intentionnalité ويدخل فيها أفعال الوعد والوصية .

والأحاديث القدسية المندرجة ضمن الوعديات هي :

1- الحديث القدسي الحادي عشر: الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل قال: « **يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تبَارَكَ وتَعَالى كلَّ لَيْلَة إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِر، فيقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ** » [3]

2- الحديث القدسي التاسع عشر: في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله قال: «**أَلاَ أُعَلِّمُكَ -أو قال- أَلاَ أَدُلُّكَ علَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الجَنَّة ؟ تقُولُ: لاَ حَوْلَ ولاَ قُوَّةَ إلاَّ بِالله....** » [4]

3- الحديث القدسي الثاني عشر: ما جاء في الدعوات التي لا ترد

« **ثَلاثَة لاَ تُرَدُّ دَعوتُهم، الصَّائِمُ حتَّى يُفْطِر، وإِمَامٌ عَادِلٌ، دَعوَةُ المَظْلُوم، يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الغَمَامِ، ويَفْتَح لهَا أبْوابَ السَّمَاوَات ...**» [5]

1- المرجع السابق ، ص202.
2- المرجع نفسه ، ص 181 .
3- المرجع نفسه ، ص198 .
4- المرجع نفسه ، ص 189 .
5- المرجع نفسه، ص 201 .

4- الحديث القدسي الثالث عشر: في فضل دعاء الله و رجائه « **قَالَ ابْنَ آدم مَا دعَوتَنِي ورَجَ ْوتَنِي غَفَرْتُ لكَ على ما كانَ فِيكَ، ابْن آدمَ إنْ تَلْقَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً ...**» [1]

5- الحديث القدسي التاسع: قراءة القرآن وذكر الله « **قَالَ رَسُولُ الله –صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ الرَّبُ عزَّ وجلَّ: مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي، أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِين...** » [2]

3- **الأمريـات Directifs:** وتعرف أيضا بالتوجيهات والغرض هو توجيه المتكلم رسالة إلى المخاطب لفعل شيء ما واتجاه المطابقة فيها ما العالم إلى الكلمات World to Words وشرط الإخلاص فيها يتمثل في الرغبة الصادقة ويدخل في هذا الصنف: نصح،وأمر، واستفهم، واستعطف ...

والأحاديث القدسية المصنفة ضمن الأمريات هي :

1- الحديث القدسي الثالث: في فضل فاتحة الكتاب. قال: « **مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمَّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاج » ثَلاثًا غَيْرَ تَمَام، فَقِيلَ لأبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ، فقالَ: اِقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ ...**»[3]

2- الحديث القدسي الخامس: في التفرغ لعبادة الله والتوكل عليه . قال : إن الله تعالى يقول :« **يَابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلأُ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدُ فَقْرَكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً وَلَمْ أَسُدَ فَقْرَكَ** »[4]

3- الحديث القدسي السادس: في الحث على الإكثار من قراءة القرآن . «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ: اِقْرَهْ وَارْقَه، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا** »[5]

4- الحديث القدسي العاشر: في كرامة من ذكر الله يوما .قال: « **يقُولُ الله: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ، مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ** »[6]

5- الحديث القدسي العشرون: في فضل صلاة الضحى. « **قَالَ : ابْنُ آدَمَ اِرْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتِ أَكْفِكَ آخِرَهُ** »[1]

1- المرجع السابق ، ص 293 .
2- أحمد عبد الجواد ، الدعاء المستجاب ، مكتبة المجلد العربي بالأزهر بالقاهرة ، ص 19 .
3- عبد القادر عرفات العشا حسونة ، الأحاديث القدسية ، ص167 .
4- المرجع نفسه ، ص25 .
5- المرجع نفسه ، ص175 .
6- المرجع نفسه ، ص196 .

6- الحديث القدسي الرابع والعشرون: في تحريم الظلم .« **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ علَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَّالَمُوا، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ...** » [2]

7- الحديث القدسي الخامس والعشرون: في فتح باب التوبة « **أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ ! قَالَ -صلى الله عليه و سلم- " وَتَفْعَلُوَن ؟ قَالُوا: نَعَمْ** ... » [3]

4- **الإيقاعيـات Déclaratifs:** وتسمى كذلك الإعلانيات و آداؤها الناجح يتمثل في مطابقة محتواها القضوي للعالم الخارجي، واتجاه المطابقة فيها اتجاه مزدوج، أي من الكلمات إلى العالم، ومن العالم إلى الكلمات ولا تحتاج إلى شرط الإخلاص

فإذا أدى -مثلا- الأستاذ فعل تعيين الطالب رئيسا للقسم أداء ناجحا فهو رئيس القسم وهكذا..." وأهم ما يميز هذا الصنف من الأفعال عن الأصناف الأخرى أنها تحدث تغييرا في الوضع القائم، فضلا على أنها تقتضي عرفا غير لغوي" [4]
إلا أن الأحاديث القدسية -الذكر والدعاء- لا تتضمن هذا الصنف من الإيقاعيات .

5- **البوحيـات Expressifs** :وتسمى أيضا التعبيريات والغرض منها التعبير عن مشاعر حيال الواقع، يتوفر شرط الإخلاص، وليس لهذا الصنف اتجاه مطابقة فالمتكلم لا يحاول أن يجعل الكلمات تطابق العالم الخارجي ولا العالم الخارجي يطابق الكلمات، وكل ما هو مطلوب الإخلاص في التعبير عن القضية ويدخل في هذا الصنف أفعال : شكر، هنأ، اعتذر، عزى، رحب ...

فالأحاديث القدسية -الذكر والدعاء- التي يتضمنها صنف البوحيات هي :

1- المرجع السابق ، ص 152 .
2- المرجع نفسه ، ص 289 .
3- المرجع نفسه ، ص 294 .
4- محمود أحمد نحلة ، ص80 .

1-الحديث القدسي الأول: في فضل ذكر الله « **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا معه إذا ذَكَرَنِي، فإِنْ ذَكَرَنِي في نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ في نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ في مَلإٍ خَيْرٌ مِنْـهُمْ ...** »[1]

2- الحديث القدسي الحادي والعشرون: في فضل الصلاة والتسليم على النبي -صلى الله عليه وسلم- فقال « **إِنَّهُ أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُول: أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ لاَ يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلاَ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْكَ عَشْرًا** »[2]

3- الحديث القدسي الثاني والعشرون: توبة الله تعالى على ابن آدم -عليه السلام- « **قَالَ: أَيْ رَبِّي أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ ؟ قَالَ: بلَـَى، قَالَ: أَيْ رَبِّي أَلَمْ تَنْفُخْ فِي مِنْ رُوحِكَ ؟ قالَ: بَلَى...** »[3]

4-الحديث القدسي السادس والعشرون: في رحمة الله تعالى لعباده ولو تكررت معصيتهم « **إِنْ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، ورُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذُنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ فَاغْفِرْ فَقَالَ رَبُّهُ: أعلم عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ...** »[4]

وإثر هذا التقسيم يمكننا حصر الأحاديث القدسية -الذكر والدعاء- حسب تصنيفات سيرل في الجدول الآتي :

التقريريات	الوعديات	الأمريات	الإيقاعيات	البوحيات
10أحاديث	05 أحاديث	07 أحاديث	لا شيء	04 أحاديث

وعليه يكون تصنيف الأحاديث القدسية -الذكر والدعاء- حسب عدد كل صنف كالآتي :1- التقريريات

2- الأمريات

3- الوعديات

4- البوحيات

أما الإيقاعيات فلا وجود لها .

1- عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ، ص165 .
2- المرجع نفسه ، ص 192 .
3- المرجع نفسه ، ص 287 .
4- المرجع نفسه ، ص291 .

استقر سيرل على هذا التصنيف بعد أن ألغى تصنيف أستاذه أوستين، فالتقريريات عنده تتضمن جزءا من قسمين عند اوستين هما: الحكميات والتبيينات، كما أن الأمريات تحتوي على جزء كبير من الحكميات والسلوكيات الأوستينية .

فنلاحظ أن للتقريريات الحظ الأوفر في أحاديث الذكر والدعاء، لأن المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم والمقام يتطلب ذلك .

وللتقريريات شروط للأداء الإنجازي تتأتى من الشروط التداولية التي تتأسس بالنظر إلى طبيعة المتكلم، وهو الرسول –صلى الله عليه وسلم– والكلام منقول عن ربّ العزّة –جل جلاله– فهو كلام صادر من موضع قوة لا تتوفر للمتكلم العادي .

أما الأمريات فاتجاه المطابقة فيها من العالم إلى الكلمات، ويتحقق النجاح في المطابقة بتغيير العالم، وكذلك يخص هذا الاتجاه الوعديات .

وفي البوحيات يرى سيرل انعدام مسؤولية أي طرف في تحقيق المطابقة

ولم نسجل حضور الإيقاعيات في الأحاديث القدسية –الذكر والدعاء– لأن اتجاه المطابقة مزدوج، ولا تتحقق المطابقة إلا باتجاه الكلمات والعالم .

ويعد تصنيف سيرل في اللسانيات التداولية من أهم التصنيفات لأنه مبني على أسس علمية متماسكة في رأيه .

ويمكننا الآن عرض هذا التصنيف بالتحليل بدءا بالتقريريات لورودها بنسبة أكبر في أحاديث الذكر والدعاء .

التقريريات

1– الحديث القدسي الثاني :[1]

–عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–

« **إنّ لله تَعَالَى مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُوَن أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادَوا؛ هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا. قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمِدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ قَالَ : فَيَقُولُ: هَلْ**

1- كل أحاديث الذكر و الدعاء مدونة في الملحق .

رَأَوْنِي؟ قَالَ فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللهِ، مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً ، وَأَشَدُّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرُ لَكَ تَسْبِيحًا، قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّة. قَالَ: يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ يَقُولُونَ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا ، قَالَ فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَم فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ: يَقُولُونَ مِنَ النَّارِ، قَال يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : فَيَقُولُونَ لاَ وَاللهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ : يَقُولُ فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَّد لَهَا مَخَافَةً، قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنُ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمْ »

(متفق عليه واللفظ للبخاري)

أقف في البدء على الأفعال الكلامية المشكلة للبنية اللغوية في الأحاديث وقد رأينا كيف حوّل أوستين اللغة من وسيلة إلى غاية، وأن الفهم الجيد للغة يحل جميع مشكلات المعرفة ويجعل سبلها واضحة، وأننا لا نحصل نظريا على أي شيء دون استعمال اللغة، فرأى فتجنشتين wittgenstein أن وظيفة اللغة ليست مجرد تقرير الوقائع أو وصف العالم والتعبير عن الفكر وإنما لها وظائف عديدة، كما سانده أوستين في طرحه هذا وبين أن هناك نوعا آخر من العبارات لا تصف العالم ولا نحكم عليها بصدق أو كذب، فإذا نطقت بها أنجزت فعلا، وتؤدي اللغة دورا أساسيا في نظرية الفعل التواصلي باعتبارها الوسيط الأساسي للتواصل بين الذوات " فاللغة ليست مجرد نسق من الرموز له تركيبه النحوي ومعجمه وصوتياته، أو له خصائصه الدلالية فقط، بل ينظر للغة من منظور خصائصها التداولية " [1]

وتظل الأفعال الكلامية من أهم المجالات في الدرس التداولي، بل لأن التداولية في نشأتها الأولى كانت مرادفة للأفعال الكلامية.

1- عطيات أبو السعود ، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين ، ص 108 .

ولنقف على الأفعال الواردة في هذا الحديث وهي: يطوفون، يلتمسون، وجدوا، يذكرون، تنادوا، فيحفونهم، فيسألهم، قال، يقولون، يسبحونك، يكبرونك، يحمدونك، يمجدونك ، فيقول، رأوني، فيقولون، رأوك، رأوني، فيقولون، رأوها، يتعوذون، يقولون ...أشهدكم، غفرت، جاء، يشقى .
فنلاحظ تكرار الفعل " قال : 22 مرة "، وتكرار الفعل " يقول 09 مرات "
تكرر الفعل " يقولون 07 مرات "

نلاحظ أن هذا الحديث قد تضمن العديد من الأفعال، الماضية والمضارعة والأمرية وهذه الأقسام التي دأب علماء النحو عليها .
قال سيبويه: " وأما الفعل فأمثلته أخذت من لفظ أحداث الأسماء وبُنيت لما مضى ولما يكون ولم يقع وما هو كائن لم ينقطع " [1]
ثم راح يفصل ذلك " فأما بناء ما مضى فذهب وسمع ومكث، وحمد وأما بناء ما لم يقع فإنه قولك آمرا: اذهب، واقتل، واضرب، ومخبرا: يقتل ويذهب ويضرب ويُقتل ويُضرب، وكذلك بناء ما لم ينقطع وهو كائن إذا أخبرت." [2]
وعندما نقف مع القول السابق نلحظ أن سيبويه قسم الزمن إلى أقسام ثلاثة لا تتعداها، وقد سار علماء النحو على هذا النمط إلى يومنا هذا .[3]

وكثرة الأفعال في هذا الحديث تدل على الحركة والحيوية وتصنيفها كالآتي :

1- سيبويه أبو بشر ، عمرو بن قنبر ، الكتاب، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الكتب العلمية ، بيروت، ط$_3$ ،د ت ،ج1، ص12 .
2- المرجع نفسه ، ج1 ، ص12 .
3- ابن يعيش (موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي) ، شرح المفصل للزمخشري قدم له إيميل بديع يعقوب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط$_1$ ،2001 ،ج3 ، ص82 .

الماضي	المضارع		الأمر
وجدوا	يطوفون	يكبرونك	لا شيء
تنادوا	يلتمسون	يحمدونك	
قال تكررت اثنين وعشرين مرة	يذكرون	يمجدونك	
رأوني تكررت مرتين	يحفونهم	يسألوني	
رأوك تكرر مرتين	يسألهم	يسألونك	
رأوها تكرر مرتين	يقول تكرر تسع مرات	يتعوذون	
غفرت	يقولون تكرر سبع مرات	أشهدكم	
جاء	يسبحونك	ليشقى	

يبلغ العدد الإجمالي للأفعال 62 فعلا، كما ورد تصنيفها في الجدول، وتتقسم إلى أفعال ماضية 32 فعلا، وأفعال مضارعة 30 فعلا .

فنجد في الفعل الماضي أغلبه تكرار للفعل " قال " والفعل " رأى ".

يقول ابن مالك: " وينصرف الماضي إلى الحال بالإنشاء، وإلى الاستقبال بالطلب والوعد، وبالعطف على علم استقباله وبالنفي بـ "لا" و"إن" بعد القسم ويحتمل المضي والاستقبال بعد همزة التسوية وحرف التحضيض وكلما وحيث ويكون صلة أو صفة لنكرة عامة ..." [1]

وقد أفادت الأفعال الماضية التقرير، أما الأفعال المضارعة فهي للحال والاستقبال.

ويوضح المبرد أن الفعل المضارع يفيد الحال و الاستقبال معا دون تحديد ثابت لكلا الزمنين، و إذا أريد تحديد ذلك قال : "وإن أدخلت على هذه الأفعال السين

1- ابن مالك ، تسهيل الفوائد و تكميل المقاصد، حققه و قدم له محمد كامل بركات ، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، القاهرة (د ط) ، 1968 ، ص05 .

وسوف صارت لما يستقبل وخرجت من معنى الحال و ذلك قولك سأضرب وسوف أضرب " [1] .

وبذلك فيترجح المضارع للحال إذا تجرد من القرائن، ويُخلص للاستقبال بظرف مستقبل أو بمصاحبة ناصب، أو لو المصدرية أو حرف تنفيس (السين أو سوف)، وينصرف إلى الماضي غالبا بعد لم ولمّا الجازمتين ولو الشرطية و"إذ" و"ربما" و"قد" في بعض المواضع .

فدلالة الأفعال الواردة في هذا الحديث القدسي فعل باق، وليس كالفعل الذي يخضع للإسناد الوضعي، فهو فعل فان يأتي في وقت معين لظاهرة زمنية محددة ثم ينتهي [2].

وللأفعال بكل أصنافها ذات أبعاد تداولية، فلها قوى متضمنة في القول كما يقول سيرل أي ملء اللفظ بقوة إنجازية معينة، "والقوة التعبيرية هي الصيغة التي يخرج بها الكلام كأن يكون وعدا أو تهديدا أو التماسا أو تقريرا..."[3] وهذا ما نلمسه في الأفعال الآتية: يطوفون، يلتمسون، يذكرون، يحفونهم، يسألهم...فالفعل القضوي هنا يعبر عن تلك الحركية التي يقوم بها الملائكة من طواف والتماس وحفّ، وكذلك الذاكرون لله من الناس الحريصون على مدارسة العلم والمواظبة على الصلاة والذكر والدعاء ابتغاء الأجر، أما القوة المتضمنة في هذه الأفعال فهي إنجازهم هذه الأعمال، ولولا ذلك لما ساح الملائكة في الأرض ولا طافوا في الطرقات ولا جالوا مشارق الأرض ومغاربها، ولا جلس هؤلاء الناس لذكر الله ودعائه واستغفاره رجاء طاعته وخضوعا لأوامره .

أما الفعل الناتج عن القول فهو ما دل على ترك أثر في الواقع، ويتجلى ذلك في محبة الله لعباده، وإظهار العناية بهم، وتسخير الملائكة ليشهدوا عليهم إكراما لهم وبيان شرف منزلتهم .

1- المبرد(أبو العباس محمد بن يزيد) ، المقتضب ، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ، عالم الكتب ،بيروت،(د ط) ،(د ت) ،ج4 ، ص81 .

2- ينظر فتحي عبد الفتاح السخي ، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ، مكتب الفلاح ، الكويت ،ط1 ، 1984 ، ص129 .

3- محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري (إستراتيجية التناص) ، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت ، ص 140 .

ونجد أن الحديث هذا يبين فضل مجالس الذكر والذاكرين وفضل الاجتماع على ذلك وأن جلسيهم يشاركهم جميع الفضائل إكراما لهم حتى وإن لم يكن من الذاكرين .

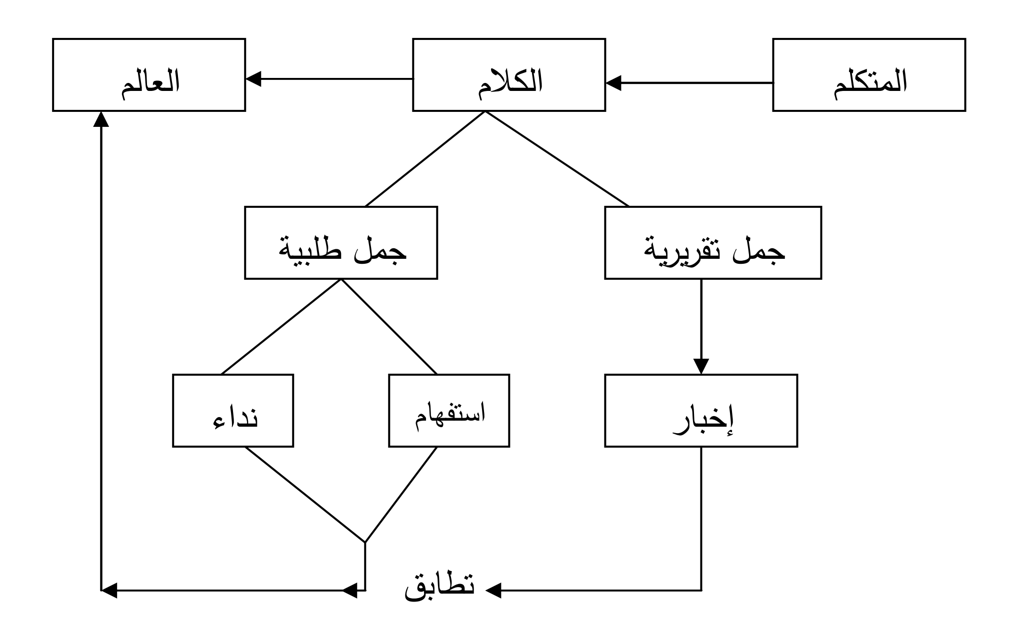
فاتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من الكلمات إلى العالم، لأن هذا الصنف يتضمن التقريريات، ونلاحظ أن الجمل التقريرية هي الأوفر حضورا: " يطوفون في الطرق " و" يلتمسون أهل الذكر " و" فإذا وجدوا قوما " و" يذكرون الله تنادوا " و" فيحفونهم بأجنحتهم " و" فيسألهم ربهم " و" يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك " و" يسألونك الجنة " و" فأشهدكم أني غفرت لهم ".

أما الجمل الطلبية فهي: " هلموا إلى حاجتكم " و" مايقول عبادي ؟" و" هل رأوني ؟ " و" كيف لو رأوني ؟ " و" فما يسألون ؟ " و" و هل رأوها ؟ " و" كيف لو أنهم رأوها ؟ " و" مم يتعوذون ؟ " و" هل رأوها ؟ " و" كيف لو رأوها ؟ " .

ونتوصل إلى أن الغرض من هذا الحديث هو إخبار الرسول –صلى الله عليه وسلم– الناس قيمة الذكر ومن يتصف به من عباد الله الذاكرين أن لهم شرف المنزلة الرفيعة عند خالقهم، ومن جهة أخرى فيه حث للناس على الاقتداء بهم لنيل الكرامة التي خصهم الله بها .

فالرسول –صلى الله عليه وسلم– في مقام تبليغ رسالة إلى الناس فجاء الحديث حاملا للبعد التداولي المتضمن لكل الشروط، كاختيار لكل غرض أسلوب معين، فلا يخرج عن مقتضى المضمون وإثبات صحة محتواه القضوي،والحالة النفسية التي تعبر عنها، وهي الاعتقاد الجازم بصحة المضمون، فالمتكلم هو الصادق المصدوق والمضمون فيما يرويه عن ربّه،و هكذا تتحقق المطابقة

ونلخص ذلك في الشكل الآتي :



ففي كل حديث تقابلنا قوة الفعل الذي يلزمنا بقضية محتواة في كلام رباني يدعونا إلى التميز بهذه الصفة كما جاء في الحديث التالي :

فعن ابن عباس –رضي الله عنه– قال: بينما جبريل قاعد عند النبي – صلى الله عليه وسلم– سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه ، فقال: « **هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةُ البَقَرَة، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ** » رواه مسلم .

يتضمن الأفعال الآتية:

سمع– رفع– قال– فتح– لم يفتح– نزل– فقال– لم ينزل– نسلم – أبشر – أوتيتهما – لم يؤتهما – لن تقرأ – أعطيته –

وأفعاله تتنوع بين الماضي و المضارع والأمر حسب الجدول الآتي :

الماضــي	المضــارع	الأمــر
سمع	– لن تَقَرَأَ	– ابشر
رفع	أعطيته	
قال تكرر ثلاث مرات		
فتح		
لم يفتح		
نزل تكرر مرتين		
لم ينزل		
سلم		
أوتيت		
لم يؤتهما		

فالزمن الغالب في هذه الأفعال هو الماضي الذي يفيد التقرير وتكون المطابقة فيه من الكلمات إلى العالم، فصيغة هذه الأفعال هو الماضي من الناحية الزمنية لأنه يفيد تقرير الحقائق، فجبريل –عليه السلام– يبلغ الرسول –صلى الله عليه وسلم– أن ما نزل اليوم –وهو فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة– سيظل عمله قائما في المستقبل ما دام الناس يقرؤون القرآن. وقد قال ابن مالك:

" وينصرف الماضي إلى الحال بالإنشاء وإلى الاستقبال بالطلب والوعد .." [1]

فالله –عزّ وجلّ– فضل أمته على سائر الأمم بما فيه خير الدنيا والآخرة، وفيه إشارة إلى ما تتضمنه هذه الآيات –الفاتحة وخواتيم البقرة– من معاني الإيمان والتوحيد والإحسان والدعاء .

والجمل المشكلة لهذا الحديث هي :

1- ابن مالك ، تسهيل الفوائد ، ص05 .

الجمل التقريرية	الجمل الطلبية
سمع نقيصا رفع رأسه فقال: .... فتح اليوم لم يفتح قط فنزل منه ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط فسلم و قال أوتيتهما لم يؤتهما لن تقرأ أعطيته	– أبشر بنورين

فنلاحظ حضور الجمل التقريرية لأن المقام يتطلب ذلك، وهو إبلاغ قضية واضحة للتأثير في المتلقين وهذا ما ترمي إليه التداولية، فالحديث يعج بالحركة لكثرة الأفعال الدالة على ذلك:سمع، رفع رأسه، فتح، ونزل، سلم... فتوحي بالتفاعل والانتقال والحيوية، ومنها الوصول إلى تحقيق الهدف، وهذه هي القوة الفاعلة التي تحملها الأفعال بغرض إحداث أثرها الإيجابي في المستمعين. ويتضمن الحديث ما تدعو إليه التداولية وهو القصدية والتأثر والإيجاز .

فكانت الجمل مختصرة ولم تتعرض مثلا لذكر سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة .كما أجملت لنا سبب نزولها، ويرشدنا الحديث إلى تتبع ما جاء في كتب المفسرين وشرّاح الحديث والإيجاز سمة للحديث النبوي الشريف بصفة عامة ،

وهذا يعطينا أبلغ صورة عن خصائص الأسلوب في الأحاديث القدسية، وكما قيل: " أحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره، ومعناه في ظاهر لفظه " [1]
وأبلغ صورة للإيجاز درجت في الحديث التالي المقتبس من قوله تعالى : ﴿ **حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلَيُّ الكَبِير**﴾[2]
عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : « **إِذَا تَكَّلَم الله بِالوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا ، فَيُصْعَقُونَ، فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيهِمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ، فزعَ عن قُلُوبِهِمْ . قال: فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيل ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ ؟ فيَقُولُ: الحَقَّ، فَيَقُولُونَ: الحَقَّ، الحَقَّ** » (رواه أبو داود)
فالأفعال الواردة في هذا الحديث هي :

الماضي	المضارع
تكلم	فيصعقون
سمع	يأتيهم
جاءهم	فيقولون تكرر مرتين
فزع	فيقول
قال تكرر مرتين	فلا يزالون

فعدد الأفعال إثنا عشر فعلا، والأحاديث المصنفة ضمن التقريريات نجد الغالب فيما هو الفعل الماضي، ثم يليه المضارع، وقد يصرف المضارع إلى الماضي بـ: لم ولمّا الجازمتين ولو الشرطية ، أما إذا نفي فيتخلص للاستقبال أو الحال .
أما في هذا الحديث فقد توازنت الأفعال الماضية والأفعال المضارعة، دلالة على التجدد والانتقال من حال إلى آخر .
أما الجمل فأساليبها كالآتي :

الجمل التقريرية	الجمل الطلبية

1- الجاحظ(أبو عثمان عمرو بن بحر) ، البيان و التبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ ، مصر،ج1، ص 47.
2- سورة سبأ ، الآية 23 .

إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء فيصعقون فلا يزالون حتى يأتيهم حتى إذا جاءهم فزع عن قلوبهم قال ، فيقول ، فيقولون	– النداء : يا جبريل – الاستفهام : ماذا قال ربّك ؟

فنرى أن الجمل التقريرية أكثر من الطلبية، لأنها تتضمن الخبر، وهذا الجانب هو الفعال في تبليغ الرسالة إلى المتلقين والخبر هو الأصل في كل كلام وأنفع في تلقي العلم بين باث الرسالة ومستقبلها إذا توفر البعد التداولي المتمثل في نية المخاطب واستجابة المخاطب. والجمل الخبرية لها دلالتها حسب المقام الذي تورد فيه فالمتكلم حريص على تبيان ما في نفسه وما تنطوي عليه النفس تؤول إلى الرغبة في الكلام ومنه تتولد الجملة الخبرية، وإذا كانت الجمل ضمن صنف التقريريات Assertifs بلغة سيرل ففيها إدراج مسؤولية المتكلم عن صحة ما يتلفظ به، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– ينقل إلى الناس هذا التقرير مضمنا إيَّاه حقائق صادقة، وأن الله –عزّ وجلّ– إذا تكلم بالوحي فهو حقّ، لا جدال في ذلك، وعلى المتلقين التسليم بذلك، وهذا ما نجده في قوله: فيقولون: " الحقَّ، الحقّ " .

أما الجمل الطلبية فهي اثنتان؛ الأولى جملة النداء: " يا جبيريل " والثانية جملة استفهام: " ماذا قال ربك ؟ " فوظيفة النداء هو لفت الانتباه وإثارة اهتمام السامع لتحصل الفائدة،وهو دال على التقرير والتأكيد.

أما جملة الاستفهام فنجد المتلقين يطلبون الفهم، " ماذا قال ربك ؟ " ، وللاستفهام دور هام في اللغة حيث تكتسب المعارف وتتسع المدارك ويتحقق شرط الفائدة وهذا ما تسعى إليه اللسانيات التداولية .

والغرض من هذا الحديث هو إبلاغ رسالة عقائدية للمتلقين، والمتمثلة في أن القرآن المنزل من السماء إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم– بواسطة جبيريل– عليه السلام– هو كلام الله الحق، وأن وقعه شديد فيصعق له أهل السماء قبل أهل الأرض .

ويظل ذكر الله محور هذه الأحاديث لنتعلم كيف نتداوله عمليا في حياتنا فلا نَضِلّ ولا نُضَلّ .

فعن أبي سعيد الخذري –رضي الله عنه– قال: **خَرَجَ مُعَاوِيَةُ علَى حَلقَةٍ فِي المَسْجِدِ فقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ فَقَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله. قالَ: آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إلاَّ ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ الله –صلى الله عليه وسلم– أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَإِنَّ رَسُولُ الله –صلى الله عليه وسلم– خَرَجَ عَلَى حَلقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ.فقَالَ « مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ فقَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله وَنَحْمُدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ، وَمَنَّ بهِ عَلَيْنَا. قَالَ: " آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إلاَّ ذَاكَ " قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إلاَّ ذَاكَ، قَالَ " أَمَا إِنِّي لَمْ اَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةٌ لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ الله –عزّ وجلّ– يُبَاهِي بِكُمُ المَلاَئِكَةَ »**

رواه مسلم

ولنا في هذا الحديث فسحة أخرى حيث تتشكل بنيته من الأفعال الآتية :

الماضي	المضارع

خرج تكرر مرتين قال تكرر ست مرات قالوا تكرر أربع مرات جلسنا تكرر مرتين لم أستحلفكم تكرر مرتين هدانا منّ أتاني أخبرني	نذكر مكرر مرتين نحمده يباهي

فالأفعال الماضية الدالة على التقرير لها النصيب الأوفر في هذه التشكيلة حيث بلغت عشرين فعلا بما فيها المكرر، وكثرة الأفعال تجعل نص الحديث ينبض بالحركة والنشاط، فيتحقق الهدف التواصلي والمطلب التداولي، فنلاحظ الأفعال: خرج وقال وجلس وأتى وأخبر... فيها تواصل وتفاعل ومنتهاه التأثير وتحقيق الفائدة فكل من المتكلم والسامع في حوار وتخاطب، والجدال قائم على القصدية، وشرط الإخلاص .

أما الأفعال المضارعة فهي أربعة، دالة على الحاضر المستمر إلى المستقبل فما دام الذكر والحمد قائمين، سيظل الله -عزّ وجلّ-، يباهي بهم الملائكة، والمباهاة هنا هو الثناء عليهم وإظهار فضلهم لديهم .

وإذا انتقلنا إلى الجمل نجدها قسمين :

أ- جمل تقريرية

ب- جمل طلبية

الجمل التقريرية	**الجمل الطلبية**
خرج معاوية جلسنا نذكر الله	ما أجلسكم ؟ مكررة آلله ما أجلسكم إلا ذاك (2)

والله ما أجلسكم إلا ذاك (2)	لم أستحلفكم تهمة خرج على حلقة جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا منّ علينا لم أستحلفكم أتاني جبريل فأخبرني يباهي بكم

بالاستناد إلى هذه الجمل نرى أن هذا الحديث تداولي كغيره من الأحاديث السابقة لوفرة الأفعال والجمل التقريرية، وكذلك الجمل الطلبية –رغم قلتها– ساهمت في تفعيل الخطاب بين المتحاورين، بالإضافة إلى الغرض الذي نستنتجه من تداول معاوية نفس العمل الذي قام به الرسول –صلى الله عليه وسلم– مع الصحابة وذلك اقتداء به، وهذا تدعيما للفعل وتبليغ ما تعلمه إلى الآخرين .

أما جملة النفي : لم أستحلفكم تهمة لكم " التي قالها الرسول –صلى الله عليه وسلم– ثم كررها معاوية إتباع سنته –عليه السلام–، فلها مدلولها في الكلام، فيرى علماء الأصول أن النفي في نظرية الخبر هو " شطر الكلام كله " [(1)].

لأنه قسيم الإثبات في الخبر، وقد عرف فخر الدين الرازي (606هـ) الخبر بأنه: " القول المقتضى بصريحه نسبة معلوم إلى معلوم بالنفي أو بالإثبات "[(2)]

وأن المنفي هو ما ولي أداة النفي، ففي الجملة " لم أستحلفكم " فالنفي هنا للفعل الذي هو استحلافكم إياه. وقيل: " إن استحلاف النبي –صلى الله عليه

1- جلال الدين السيوطي، معترك الأقران في إعجاز القرآن، حققه أحمد شمس الدين،دار الكتب العلمية، بيروت،ط1 ،1988،ج1،ص322.
2- فخرالدين محمد بن عمر الرازي ،نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين ، دار العلم للملايين ، بيروت، لبنان ط1 ، 1985 ، ص149 .

وسلم– لهم مع أنه علم ذلك من إخبار جبريل –عليه السلام– له، فيحتمل أنه سرور بهم كما يفعله بعض الناس بهم، فإنه لا يقصد به إلا السرور." [1]

ولذلك فالنفي هنا من منظور تداولي هو إنكار للإثبات" وهو أن ينفي القائل أمرا وجملته خبرية... ويكون النفي بالاسم: أنت غير مقيم،أو بالفعل: أنا لست مقيما، وبالحروف التالية:لم/ لمّا (الجازمتان للمضارع)،لن / أخوات ليس(إن/ ما /لا / لات) وتقوم أدوات النفي بتحديد زمن الفعل في السياق الكلامي".[2]

وجملة النفي " لم أستحلفكم " تندرج ضمن نفي الافتراض المسبق، المتعلق بالقضية المشتقة من الجملة، فهذه الجملة تفترض مسبقا أن الصحابة الذين خرج إليهم رسول الله –صلى الله عليه وسلم – وهم في حلقة ذكر قد حلفوا بالله تعالى: " والله ما أجلسنا إلا ذاك " والنفي هنا لا يغير الافتراض المسبق .

أما الجمل الاستفهامية الواردة في الحديث " ما أجلسكم ؟ آلله ما أجلسكم إلا ذاك ؟ " فقد ذكرنا غرضها التداولي في الحديث الأسبق .

بقي أن نحلل جملة القسم: " والله ما أجلسنا إلا ذاك " ، فالقسم في منظور النحاة هو أسلوب من الأساليب، وهو " الحلف واليمين " [3] وأحرفه أربعة هي: " اللام " و " الواو " و" التاء " و" الباء ".وقسمه النحاة إلى قسمين: استعطافي وغير استعطافي

" فالاستعطافي هو جملة طلبية يراد بها توكيد معنى جملة طلبية أخرى مشتملة على ما يثير الشعور والعاطفة .

وغير استعطافي وهو ما جيء به لتوكيد معنى جملة خبرية وتقوية المراد منها نحو: والله إنك لشريف المقصد، يخبر عن شرف مقصدك ويؤكد خبره هذا بما يقويه وهو: القسم " [4] ..

فجملة القسم " والله ما اجلسنا إلا ذاك " تندرج ضمن القسم الثاني، قسم غير استعطافي والغرض منه توكيد الجواب .

ونرى هذا عند سيبويه بقوله " الحلف توكيد " [1] وقال أيضا: " اعلم أن القسم توكيد لكلامك ". [2]

1- عبد القادر عرفات ،الأحاديث القدسية ، ص189 .

2- صالح بلعيد ، النحو الوظيفي ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،1994 ، ص58 .

3- عبد السلام هارون ، الأساليب الإنشائية في النحو العربي ، مكتبة الخانجي ، مصر ،1979 ، ص162 .

4- عباس حسن ، النحو الوافي ، دار المعارف القاهرة ،1963 ،ج2 ، ص362 .

وفي منظور سيرل نجد القسم الاستعطافي يندرج ضمن الأمريات ، والقسم غير الاستعطافي ضمن التقريريات، والحلف توكيد لصدق الحالة التي كانوا عليها وهي جلوسهم في حلقة ذكر، والذكر عبادة وقربى لله، وبشرى بالجزاء الأوفى الذي لا يقدره في ملكوته إلا الرحمن سبحانه، وهذا ما نلمسه في الحديث عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: **جَاءَ رَجُلٌ وَالنَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم– في الصَّلاَةِ فقال: « الحَمْدُ لله حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ –صلى الله عليه وسلم– في الصَّلاَةِ فقال: أَيُّكُمُ القَائِلُ كَذَا وَكَذَا ؟ قَالَ فَأَرِمَ [3] القَوْمُ، قال : فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مِرَارٍ فقال رَجُلٌ: أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلاَّ الخَيْر ، فقال النّبي –صلى الله عليه وسلم– لَقَدْ ابْتَدَرَهَا اِثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرُوا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمُ –عزّ وجلّ– ، فَقَالَ: أُكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي ».** (رواه أحمد)

فأفعال هذا الحديث هي :

الماضي	المضارع	الأمر
قال تكرر تسع مرات جاء قضى أرم أعادها قلتها أردت ابتدرها دروا سألوا	يكتبونها	– اكتبوها

فوفرة الأفعال الماضية في هذا الحديث لدليل عل قصدية رسالة الإسلام وأن النبي –صلى الله عليه وسلم– جاء رسولا مرشدا ومعلما الناس دينهم على

1- سيبويه ، الكتاب ،ج3، ص497 .
2- المرجع نفسه ،ج3 ، ص 104 .
3- أرم القوم : سكتوا و ذلك لظنهم أنهم ارتكبوا محظورا .

أسس قوية مستمدة من توجيه الله –عزّ وجلّ–، فالماضي هو تقرير للحقائق، والمقام مناسب لذلك والنبي –صلى الله عليه وسلم– يقرر قاعدة عامة في الإسلام وهي أن الله تبارك وتعالى يرفع شأن الذاكرين الله الحامدين له.

ولذلك يكثر هذا الصنف من التقريرات لأن رسالته تبليغ الحق والخير والإرشاد إلى الصالح من القول والعمل .

أما الأفعال الأخرى فهي قليلة، فعل مضارع "يكتبونها" وفعل أمر "اكتبوها" فجاءت مجاورة للخبر، وهذا قمة البلاغة في هذا الحديث.

والجمل هي كالآتي:

الجمل التقريرية	**الجمل الطلبية**
جاء رجل – فقال	– أيكم القائل كذا وكذا ؟
فلما قضى النبي	– اكتبوها.
فارم القوم	
فأعادها	
فقال رجل	
أنا قلتها	
ما أردت بها...	
فقال النبي...	
لقد ابتدرها	
يكتبونها	
حتى سألوا.	

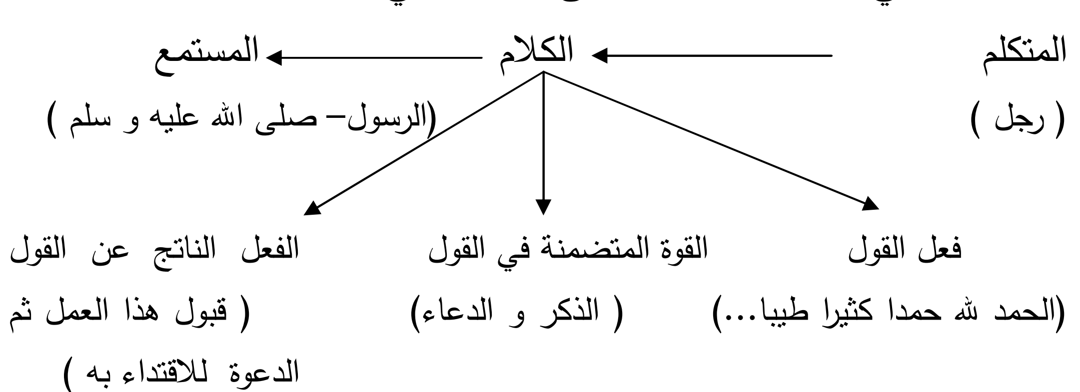
فالجمل المشكلة لهذا الحديث في معظمها خاضع لأسلوب التقرير لأن طبيعة النصوص الدينية تتطلب ذلك، فراوي الحديث " أنس بن مالك "–رضي الله عنه– يخبرنا عن قضية بدءا بجملة " جاء رجل " ثم ذكر كل الظروف المتعلقة به لأنه يمثل بؤرة القضية " فالفعل الذي أنجزه بقوله "الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه " تضمن ذكر الله أثناء الصلاة بطريقة لم يعهدها الناس حتى الملائكة لم يدروا كيف يكتبونها، وترك هذا القول أثرا . وهذا ما عبر عنه المعاصرون

بالفعل التأثيري ، فمبجرد التلفظ بهذه الجملة أُنجز فعلا، فهو لم يصف ولم يخبر، وبمعيار أوستين ملفوظ إنجازيEnnoncé Performatif ،فبكلامه هذا أحدث أثرا وهذا الفعل الناتج عن القولActe Perlocutoire في منظور اللسانيات التداولية .

وما إلحاح النبي –صلى الله عليه وسلم– لمعرفة صاحب القول إلا لفعاليتها وقوتها ليكون قدوة لبقية المصلين فينشغلون بذكر الله عقب الصلاة، وهو توجيه وتعليم الناس كافة لما فيه خير الدنيا والآخرة، وهذا الإلحاح فيه توكيد لتوصيل المعلومة حتى يحفز الصحابة على المبادرة في الخيرات والسعي للتزود بالحسنات، وقد قيل « **إِنَّ أُمَّ سَلِيمٍ غَدَتْ عَلَى النَّبِيِ –صلى الله عليه وسلم– فقالت: عَلِّمْنِي كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي صَلاَتِي، فَقَالَ: " كَبِّرِي الله عَشْرًا ، وَسَبِّحِي الله عَشْرًا، وَاحْمُدِيهِ عَشْرًا ثُمَّ سَلِي مَا شِئْتِ، يَقُولُ : نَعَمْ، نَعَمْ** »[1]

(رواه الترمذي)

فالفعل الكلامي عند أوستين يكون على الشكل الآتي :



إذا كان النطق بالجملة الأولى هو فعل القول من موضوعات الدراسة البنيوية ، فإن النوع الثاني والثالث من اهتمامات الدراسة التداولية .

وبنية القول المقتبس من قوله تعالى: ﴿ **وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا** ﴾[2]

فهو عن عبد الله بن مسعود –رضي الله عنه– أنه قال: « **أَلاَ إِنَّ الله يَضْحَكُ إِلَى رَجُلَيْنِ ، رَجُلٌ قَامَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدِة مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِهِ وَ دَثَارِهِ ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ ، فَيَقُولُ الله –عزّ وجلّ– لِمَلاَئِكَتِهِ مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا**

1- عبد القادر عرفات ،الأحاديث القدسية ، ص 61 .
2- سورة الإسراء ، الآية 79 .

صَنَعْ ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدكَ، وَشَفَقَةً مِمَّا عَنْدكَ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا، وَأَمَّنتُه مِمَّا يَخَافُ » (رواه الطبراني)

فمرتكزات هذا الحديث الأفعال ونصنفها كالآتي :

الأفعال الماضية	الأفعال المضارعة
قام تكرر مرتين	يضحك
توضأ	فيقول تكرر مرتين
حمل	فيقولون
صنع	يخاف
أعطيت	
رجا	
أمنته	

فالأفعال الماضية ثمانية أفعال دالة على الحركة، وعلى إنجاز أعمال؛ فالفعل قام ذكر مرتين، قام من فراشه، وقام إلى الصلاة، فالقيام انبعاث بعد سكون فيه حيوية وتجديد، وهو سلوك اجتماعي، فزمنه النحوي ماض، لكن زمنه التداولي الاستقبال، أما الفعل قام إلى الصلاة : فالقيام هنا إنجاز فعل العبادة، ولا يخفي علينا ما فيها من حركات، وأعمال منظمة، وأقوال متبعة، والفعل الكلامي الحقيقي هو الفعل الإنجازي Acte Illocutoire

والفعل الماضي الذي يصنف ضمن التقريريات لا يمكن أن يصف الأحداث مجرد الوصف وإنما يحمل فعلا كلاميا له تأثير في العالم .

وتنوع الأفعال في نص هذا الحديث له دلالة على التغيير أيضا " لأن الفعل يدل على التجدد والحدوث،والاسم على الاستقرار والثبوت، ولا يحسن وضع أحدهما موضع الآخر"[1] فيتضمن الفعل معنى الحدث، فالقيام والوضوء والصلاة تستلزم غاية مرجوة وهي الرجاء والشفقة.

والفعل المضارع " يضحك " في قوله: " ألا إن الله يضحك إلى رجلين " له معنى خاص، يقول أبو سليمان الخطابي: " الضحك الذي يعتري البشر عندما يستخفهم أو يستفزهم الطرب، غير جائز على الله –عزّ وجلّ– ، وهو منفي عن صفاته.

[1]- الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله) البرهان في علوم القرآن ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ،ط3، 1980 ،ج4،ص66 .

ومعناه في صفة الله –عزّ وجلّ– الإخبار عن الرضى بفعل أحدهما، والقبول للآخر ومجازاتهما على صنيعهما الجنة ". [1]

وقال الإمام البخاري : " معنى الضحك الرحمة ". [2]

والفعل " يخاف " دال على ما ينتظر الإنسان يوم القيامة إن أساء العمل أو قصر في الواجبات وأهمل الطاعات، فالخوف مما هو كائن في المستقبل، فوعده الله –عزّ وجلّ– بأن يؤمنه من الخوف، استحسانا ورضى لما قدم من عمل الخير .

وهنا نجد أن الأفعال الواردة في هذا الحديث قد حققت الفائدة المرجوة وهي غاية التداولية .

وجمل هذا الحديث هي :

جمل خبرية	جمل إنشائية
ألا إن الله يضحك	ما حمل عبدي هذا على ما صنع ؟
رجل قام في ليلة باردة	ربنا رجاء ما عندك وشفقة مما عندك
فتوضأ	
قام إلى الصلاة	
فيقول الله –عزّ وجلّ–	
فيقولون	
فيقول : إني قد أعطيته ما رجا	
وأمنته مما يخاف	

والخبر كما بينا –سابقا– يندرج ضمن صنف " التقريريات " حسب مصطلحات سيرل والغرض المتضمن في القول هو التقرير. وهو في منظور النحاة أهم من الإنشاء إذ " الخبر أصل والإنشاء طارئ عليه " [3].

كما اهتم العلماء العرب في دراستهم للجملة على مبدأ " الإفادة " لذا بين السكاكي أن موضوع علم المعاني " هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة

1- عبد القادر عرفات ،الأحاديث القدسية ، ص65 .
2- المرجع نفسه ، ص66 .
3- السكاكي ، مفتاح العلوم ، ص 141 .

وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ".[1] فأساليب الإخبار هي إفادة المخاطب بما تضمنته .

ويبين البلاغيون أن هناك غرضا آخر للخبر يتمثل في إفادة المخاطب أن المتكلم عالم بالحكم ويسمون هذا الغرض لازم الفائدة فنرى أن الجمل الخبرية في هذا الحديث تحمل مدلول الإفادة التي تحققت من خلال إنجازية الأفعال الكلامية عبر الاستعمال .

والجمل الحوارية القائمة بين الله –عزّ وجلّ– وملائكته تندرج ضمن تداولية الفيلسوف بول غرايس H.P Grice الذي سمى هذه الظاهرة بـ : الاستلزام الحواري L'implication Conversationnelle –كما ذكر سابقا–، ووضع لها مجموعة من القواعد السلوكية العامة منها : قاعدة الكم حيث تكون مساهمة المتخاطبين بالقدر الكافي دون زيادة أو نقصان ويتحقق هذا في الجمل الآتية: " ما حمل عبدي هذا على ما صنع ؟ فيقولون : ربّنا رجاء ما عندك وشفقة مما عندك، فيقول: فإني أعطيته ما رجا، وأمنته مما يخاف " .

كما تجسدت قاعدة الكيف ، لأن إجابة الملائكة كانت صادقة ومطابقة للواقع، دون تحريف، ومساهمتهم في الحديث أيضا كانت مناسبة للمقام، وهذه قاعدة المناسبة ، وما جاء في الحوار كان مختصرا وبعيدا عن الغموض حيث يفهمه السامع كيفما كان مستواه الثقافي وهذه قاعدة الهيئة، وهنا يتحقق مبدأ التعاون الذي أشار إليه غرايس بين المتحاورين، فإذا لم تنجز قاعدة من تلك القواعد السلوكية السابقة يستوجب حصول ظاهرة الاستلزام الحواري .

وهكذا نخلص إلى أن هذا الحديث يرتكز على قاعدة تواصلية هامة غرضها إبلاغ الناس أن العمل الصالح مهما كان يتقبله الله –عزّ وجلّ– ، وكذلك فيه حث الناس على نبذ الكسل والخمول والإقبال على العمل رغبة ورهبة وهو ذكر الله في كل وقت، وهذه مرامي التداولية . ألا ترى في الحديث المروي عن أبي هريرة تأكيدا للحديث السابق من حيث الحض على تداول عبادة الصلاة .

1- المرجع السابق ، ص77 .

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: « **يَعْقِدُ الشَّيطَاُن علَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثَ عُقَدٍ. وَيَضْرِبُ علَى مَكَانِ كُلِّ عُقْدَةٍ، عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَر الله انْحَلَّتْ عُقْدَة. فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَة فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَة، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفسِ كَسْلاَن** »" متفق عليه "

فتشكيلة أفعاله كالآتي :

الماضي	المضارع	الأمر
نام	يعقد	أرقد
استيقظ	يضرب	
ذكر		
انحلت تكرر ثلاث مرات		
توضأ		
صلى		

يلاحظ في هذا الحديث وكأنه تفسير للحديث السابق حيث يبين المثبطات التي تجعل الإنسان يفضل النوم على القيام من أجل ذكر الله ودعائه والتقرب إليه بالصلاة فالأفعال متضمنة للنمط الحركي النابض بالحياة الدال على استمرارية الوجود، والسمة البارزة في هذه الأحاديث هي تواجد الزمن الماضي المقرر لما سيأتي في تداولية صريحة حاملة محتوى قضوي، فالأفعال: قام واستيقظ وذكر وانحلت وتوضأ وصلى كلها تستلزم قضية مع إسناداتها، فتتولد عنها القوة الإنجازية التي تساهم في العملية الإبلاغية .

أما المضارع الدال على الحال والاستقبال فنجد الفعل " يعقد " فهو من العقد، لقوله تعالى : ﴿ **وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ** ﴾[1] وقيل " هو مِن عُقد القلب، وتصميمه، فكأنه يوسوس في نفسه ويحدثه: بأن عليك ليلا طويلا فتأخر عن القيام ". [2]

وهذا من أعمال الشيطان الذي يؤثر في تثبيط النائم كما يؤثر السحر في الإنسان .

1- سورة الفلق ، الآية 04 .
2- عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ، ص 67 .

وفي مسند أحمد وغيره بإسناد صحيح من حديث جابر –رضي الله عنه– **قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم–:** « **مَا مِنْ ذَكَرٍ وَلاَ أُنْثَى إلاَّ وَعَلَى رَأْسِهِ جَرِيرٌ مَعْقُودٌ ثَلاَثَ عُقَدٍ، حَيْثُ يَرْقُدُ، فَإِنْ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ الله تَعَالَى، انْحَلَّتْ عُقْدَة ، فَإِذَا قَامَ فَتَوضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَة، فَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ انْحَلَّتْ عُقْدَهُ كُلُّهَا** » [1](رواه أحمد)

أما الجمل فأسلوبها خبري في الغالب و هي :

الجمل الخبرية	الجمل الإنشائية
يعقد الشيطان	عليك ليل طويل فارقد
إذا هو نام	
يضرب على مكان	
فإن استيقظ	
ذكر الله	
انحلت عقدة تكررت ثلاث مرات	
فإن توضأ	
فإن صلى	
أصبح نشيطا	
أصبح خبيث النفس	

فقد تواتر في هذه الجمل أسلوب الشرط .

فإن استيقظ ←جملة الشرط ـــــ انحلت عقدة ←جواب الشرط

فإن توضأ ← جملة الشرط ـــــ انحلت عقدة ←جواب الشرط

فإن صلى ← جملة الشرط ـــــ انحلت عقدة ←جواب الشرط

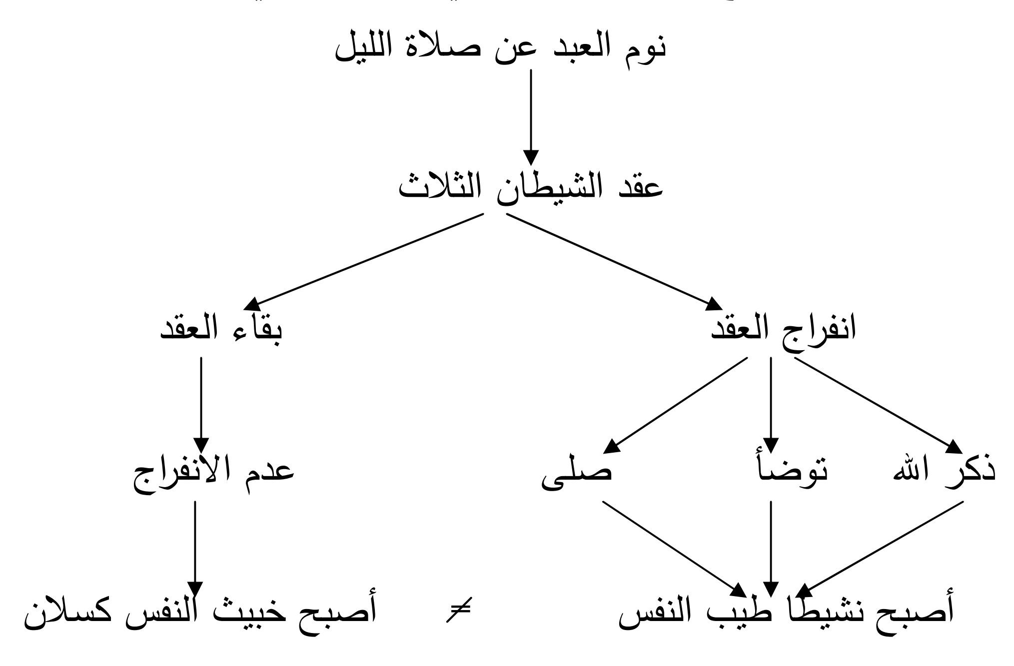
فتكرار الشرط هنا يفيد التأكيد، وهذا يخدم الغرض التداولي لأن تكرار العمل ضمان تحقيقه،" وجدوى التوكيد أنك إذا كررت فقد قررت المؤكدو ما علق به في نفس السامع، ومكنته في قلبه...وفائدة التأكيد تمكين المعنى في نفس المخاطب

1- المرجع السابق ، ص67 .

"[1] والعلاقة بين الشرط وجوابه قائمة على الارتباط النسبي؛ لأن الجواب حاصل من الشرط مرتب عليه، وقد أفاد الشرط معنى التلازم فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة و إن توضأ انحلت عقدة وإن صلى انحلت عقدة، وهذا فيه حث على ذكر الله تعالى عند القيام من النوم .

وقوله: فأصبح نشيطا طيب النفس، وذلك لتحرره من عقده وكأنه تحرر من قيد ، وإن لم يفعل ذلك رضخ لاستيلاء الشيطان عليه والنتيجة " أن يصبح خبيث النفس كسلان " .

وغرض الحديث تربوي فيه هداية للناس أن يعتصموا دائما بذكر الله ويلتزموا بطاعته، ويبتعدوا عن الكسل لما فيه من آثار سلبية تقضي على طاقة الإنسان وحيويته. ويمكننا إيضاح بنية هذا الحديث في المشجر الآتي :



وإذا امتلأت الأفعال الكلامية قوة كان تأثيرها إيجابيا، فتنزع نفس الإنسان إلى عمل الخير وهذا حافز يسهم في تفعيل التواصل بين العبد وخالقه وكلما توجه إليه بالدعاء أجاب . لقوله تعالى: ﴿ **وَقَالَ رَبّكُمْ اُدعُونِي اَسْتَجِبُ لَكُمْ** ﴾[1]

عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال : « **لَمَّا خَلَقَ الله –عزّ وجلّ– آدَمُ عَلَيه السَّلام قَالَ: وَاحِدَةٌ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَمَّا الَّتِي لِي، تَعْبُدِني وَلاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ، فَمَا عَمِلْتَ مِن شَيْءٍ**

1- ابن يعيش ، شرح المفصل ، ج2، ص221 .
1- سورة غافر ، الآية 60.

جَزَيْتُكَ بِهِ، وَأَنَا أَغْفِرُ، وَأَنَا غَفُورٌ رَحِيم وَأَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، مِنْكَ المَسْأَلَةُ وَالدُّعَاءُ، وَعَلَيَّ الإِجَابَةَ وَالعَطَاء »

(رواه الإمام أحمد)

يتوزع هذا الحديث بين الجمل الفعلية و الجمل الاسمية؛ فالجمل الفعلية تبرز استمرار الحدث، فكان حضورها موازيا للجمل الاسمية و تصنيفها كالآتي :

الجمل الفعلية	الجمل الاسمية
خلق الله آدم	واحدة لي
قال:	واحدة لك
تعبدني	واحدة بيني وبينك
لا تشرك بي شيئا	أنا أغفر
عملت من شيء	أنا غفور
جزيتك به	منك المسألة والدعاء
أغفر	عليَّ الإجابة و العطاء

فالفعل: " خلق " دال على مواصلة الله –عزّ وجلّ– خلق الناس إلى أن يرث الأرض ومن عليها، فما دام الله يخلق بني آدم تظل هذه المقولة موجودة بفاعليتها فلا تتغير.

أما الفعل " تعبدني " ففيه تشريع العبادة، فبعد الإجمال جاء التفصيل والتوضيح أولاها عبادة الله –عزّ وجلّ– وثانيها جملة النهي " ولا تشرك بي شيئا" تتضمن التحذير والتنبيه، فالفعلان مترابطان بأداة عطف فالجملة الثانية هي توكيد للأولى، أي عبادة الله وحده من دون غيره، فلكل جملة قضية ولكن كل واحدة تكمل الأخرى .

فوظيفة الخلق عبادة الله، لذلك جاءت في المقام الأول من التفصيل والشرح؛ " أما التي لي: تعبدني و لا تشرك بي شيئا "

والجمل الاسمية في النص واسمها الثبات والاستقرار، فالمقام مناسب لذلك فنرى قوله: " واحدة لي، وواحدة لك، وواحدة بيني وبينك " فهذه حقائق ثابتة أقرها الله

تعالى تبارك وتعالى لعباده، فإن عملوا بها نالوا كرامة الفوز في الدنيا والآخرة وقوله تعالى: وأنا أغفر، وأنا غفور، فالفعل: " أغفر " يدل على استمرارية المغفرة، والاسم:" غفور" تدل على الثبات على المغفرة. والتكرار هنا توكيد الفعل والتزام المولى – جلّ جلاله – على إنفاذ وعده لعباده وهذا الوعد مطلق لا شك فيه .

وإذا تتبعنا المنحى التداولي لهذا الحديث نخلص إلى أن كل العناصر المؤدية إلى الإفادة وإلى تحقيق عملية التواصل كانت ناجحة، بدءا من الإيجاز، والإجمال ثم التفصيل والتوضيح، كذلك توفر الجمل المتضمنة للقوة الإنجازية، مثل: " أغفر، أنا غفور، وجزيتك، وعلي الإجابة والعطاء " فيؤدي إلى تحقيق شرط الإخلاص .

ولعل الفاحص لهذه اللبنات تستقطبه تلك المعاني الثقيلة وزنا لعمقها وقوة الملاءمة بينها وبين اللفظ، وكل هذه المعاني تتميز بدقة صادقة، لأنها صيغت في قالب الحقيقة، وأدرج أداؤها وفق ما يتطلبه حال السامع حتى تبلغ المرام، ويتحقق التواصل، فلاحظنا كيف كانت الأحكام مجملة، ثم عقبها التوسع في بعض المعاني لغاية الوضوح والتطبيق .

ونصل إلى غرض الحديث المتمثل في تحفيز الناس على الإكثار من الذكر والدعاء، واللجوء دائما إلى الله –عزّ وجلّ– وقد وعد عباده بالاستجابة لقوله : ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمْ اُدعُونِيَ أَسْتَجِبْ لَكُمْ** ﴾[1]

ويظل رسولنا الكريم يتدرج بنا نحو مراتب السمو بتعليمنا ما ينفعنا ويرفعنا ويحفظنا وهذا ما ورد عن أنس بن مالك –رضي الله عنه– قال: **قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : « مَنْ قَالَ – يعني –إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ– بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلَى الله، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله ، يُقَالُ لَهُ كُفِيتَ وَوُقِيتَ وتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَان »** "رواه الترمذي، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب ..."

إذا تتبعنا نفحات هذا الدعاء أفاض علينا من وحيه ما تعجز الألسنة على وصفه، فميزة هذا القول مصوغ في قالب ذي عبارات متوازية وموجزة وسهلة

1- سورة غافر ، الآية 60.

ومفيدة، لا ينقصها شيء من الوضوح والفصاحة كما قال الرافعي: " واتسق له من هذا الأمر على كمال الفصاحة والبلاغة ما لو أراده مريد لعجز عنه " [1]

عباراته فيها تقرير بعبودية الله وحده لا شريك له وذلك بتوقيع جملة: " بسم الله توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله " .

نلاحظ هذا الإقرار والاعتراف الذي يندرج ضمن الأفعال الآدائية Performatifs التي قدمها أوستين ضمن الأفعال الكلامية، فالنطق بهذا الدعاء يبين الخضوع التام لربّ العزّة فلا قدرة ولا قوة إلا بإذن الله تعالى ومشيئته .

أما جملة " يقال له " التي وردت في صيغة المبني للمفعول، فلم يذكر فاعلها لأنه معلوم لدى الخاص والعام ،كذلك الأفعال: " كفيت ووقيت "، فتقول له الملائكة حيث يتلفظ بهذا الدعاء " كفيت " أي كفاك الله تعالى أمرك وأعانك عليه و وفقك فيما تبتغي وتسعى إليه، " وقيت " أي وقاك الله تعالى وجنبك كل ما يؤذيك ويضرك وجعلك في كنفه وحمايته " [2].

فالمنطلق هو قصدية هذا الحديث والمتمثلة في الدعاء عند الخروج من البيت والنتيجة هو الأثر المترتب بعد إخلاص النية لله تعالى ، وزيادة في الأجر والثواب، ويبعد الله تعالى الذاكر عن طريق الغواية في قوله: " وتنحى عنه الشيطان ".

ونخلص إلى أن الفعل الإنجازي في هذا الحديث ما تضمنه قول الدعاء " بسم الله توكلت على الله ..." والأثر الذي أحدثه هذا الفعل يتمثل في النتائج الإيجابية التي يحققها الذاكر بعد إنجازه العمل المطلوب منه .

فالدعاء من أخلص الطاعات وأجل العبادات، وهو صلة بين العبد وربه ما دام في قلب المسلم نبض الإيمان بالله -عزّ وجلّ- ، تخفق له السرائر وتلهج بذكره الألسنة، فتتضمنه أفعال لغوية تحمل قوة دافعة إلى بلوغ المراد، ويتحقق هذا الإنجاز في الحديث المروي عن عبد الله بن كنانة بن عباس بن مرداس السّلمي، أنّ أباه أخبره عن أبيه « **أَنَّ النَّبِيَ -صلى الله عليه وسلم- دَعَا لأُمَّتِهِ عَشِيَةَ عَرَفَة، فَأُجِيبَ: إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلاَ الظَّالِمُ، فَإِنِّي آخُذُ**

1- مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب ، دار الكتاب العربي ، بيروت ،طء ،1999 ،ج2،ص 300.

2- عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ، ص203 .

لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ، قَالَ: أَيْ رَبِّ،إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَ المَظْلُومَ مِنَ الجَنَّة، وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ، فَلَمْ يُجِبْ عَشِيَةً، فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالمُزْدَلِفَة، أَعَادَ الدُّعَاءَ فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَل، قَال: فَضَحِكَ رَسُولُ الله –صلى الله عليه وسلم– أَوْ قَالَ تَبَسَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرْ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، إِنَّ هَذِهِ لَسَاعَةً مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا، فَمَا الذِّي أَضْحَكَكَ ؟ –أَضْحَكَ الله سِنَّكَ– قَالَ إِنَّ عَدُوَّ الله إِبْلِيس لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الله –عزّ وجلّ– قَدْ اسْتَجَابَ دُعَائِي وَغَفَرَ لأُمتي، أَخَذَ التُّرابَ وجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَدْعُو بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ، فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ »

(رواه ابن ماجة)

فالأفعال الواردة في الحديث هي :

الأفعال الماضية	الأفعال المضارعة
دعا – أجيب تكرر مرتين غفرت : تكرر مرتين قال تكرر خمس مرات شئت ، أعطيت ، لم يجب ، أصبح أعاد، سأل، فضحك ، تبسم ، أضحكك أضحك ،علم ، استجاب ، غفر، أخذ جعل، أضحكني، رأيت	آخُذُ تضحكُ يحثوه يدعو

نلاحظ أن عدد الأفعال في هذا الحديث قد بلغت اثنين وثلاثين فعلا، فالفعل الماضي بما فيه الأفعال المكررة بلغ ثمانية وعشرين فعلا، والأفعال المضارعة أربعة أفعال.

وتوفر الأفعال في النص يضفي عليه حركة ونشاطا، وهذه الحركية تنزع إلى التغيير وتأبى الثبات على حال، فمن دعاء واستجابة وغفران وتبسم كلّها تحمل قوى إنجازية والزمن الغالب هو الماضي ليناسب الغرض الذي هو تقرير الحقيقة الخارجية، جاءت مدعمة بالتوكيد فيقول: إني قد غفرت، فإني آخذ، فأعاد الدعاء، فيه تكرير وهو من وظائف التداولية، " و التكرير أبلغ من التأكيد ،و هو من محاسن الفصاحة، وقد قيل الكلام إذا تكرر تقرر "[1].

1- السيوطي ، الإتقان في علوم القرآن ،ج2،ص86 .

فتنوع الجمل أيضا له عامل تأثيري في المخاطب، فنجد الجمل الإخبارية وجمل الاستفهام والدعاء، ولكن نسجل حضور الإخباريات أكثر شأنها شأن الأفعال، وما الاستفهام والدعاء، " ما الذي أضحكك ؟ " و" أضحك الله سنك " إلا لتفعيل العملية التواصلية بين المتكلمين .

واتجاه المطابقة فيها من الكلمات إلى العالم، فغفرت وأعطيت و أجيب فهي حقائق أخبرنا عنها النبي –صلى الله عليه وسلم– يمتلك كل الأسس الأخلاقية التي تؤدي إلى صحة محتوى القضية، وصبغتها اللغوية الدمج، أي بين الكلمات والعالم .

والغرض التداولي من هذا الحديث هو أن الله تعالى في يوم عرفة يعتق كل الناس من النار وأن فضل هذا اليوم عظيم، فضله الله على سائر الأيام، وفيه دعوة ضمنية لمن حضر هذا المكان في هذا اليوم أن يتقرب إلى الله بالدعاء، لأنه يوم يباهي الله بعباده الملائكة، فمن قصده راجيا رحمته وخائفا من عذابه ، فيجده الكريم الذي يغفر ويرحم ويعفو.

وتكمن قوة الفعل الكلامي خاصة في الفعل " أجيب " أي تحقق الغرض .

الوعديات

من سمات الوعديات الواردة في الأحاديث القدسية ما ذكر عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : «**يَتَنَزَّلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلّ لَيْلَةٍ إلى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حَيْثُ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرِ فيَقُولُ : مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِبْ لَهُ، مَنْ يَسْأَلْنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ** » (متفق عليه)

و كان حضور الأفعال كالآتي :

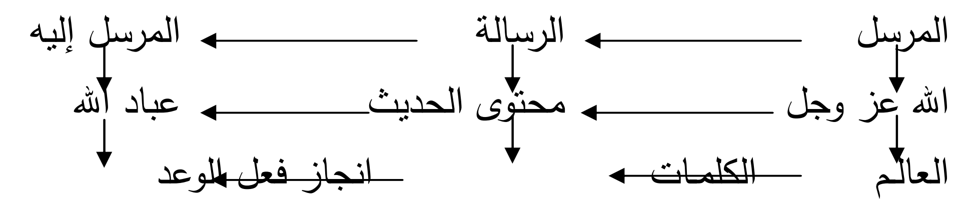
الفعل المضارع
يتنزل
يبقى
فيقول
يدعوني
أستجيب

يسألني
أعطيه
يستغفرني
أغفر

فالملاحظ حضور الأفعال الدالة على الحال والاستقبال، لأن الفعل المضارع صالح لكليهما، وجملة هذه الأفعال تتضمن الوعد، وعد المؤمن الذي يدعو ربّه في ساعة من الليل بأن يستجيب له ويعطيه ما سأل ويغفر له ذنوبه.

وهذا التزام من المرسل بأن يفعل شيئا في المستقبل، ونجد اتجاه المطابقة في هذه الأفعال من العالم إلى الكلمات، وشرط الإخلاص هو القصد Intention والمحتوى القضوي فيها هو أن يفعل المتكلم شيئا في المستقبل، وهذا ما يتضمنه صنف الوعديات عند سيرل .

ونوضح ذلك حسب الشكل الآتي :



جاءت أفعال هذا الحديث لهداية الناس إلى فضل الدعاء في وقت معين، وهي أفعال مضارعة تحوي خاصية الاستمرار.

أما الجمل فهي طلبية إذا استثنينا الجملتين الخبريتين : " يتنزل ربّك " و " يبقى ثلث الليل" حيث كانتا في المقدمة تمهيدا للحديث .

الجمل الطلبية هي :

من يدعوني ← جواب الطلب : فأستجيب له

من يسألني ← جواب الطلب : فأعطيه

من يستغفرني ← جواب الطلب : فأغفر له

تحمل هذه الجمل قضية تحفيز الناس على الإقبال إلى الدعاء والسؤال والمغفرة فخرجت عن غرضها الظاهر الذي هو الطلب إلى غرض آخر هو الحث والحض .

أما الأفعال: استجيب، وأعطيه، وأغفر له، فهي تتضمن الوعد، فلا ننظر إلى قوة هذه الأفعال كما حددتها المعاجم اللغوية(Les verbes) وإنما هي أفعال (Actes) نقوم بها خلال كلامنا .

أما الفعل: يَتَنَزَّلُ " في قوله " يتنزّل ربّنا تبارك و تعالى كل ليلة ..." فهذه مسألة اختلف فيها العلماء، وذهب أئمة السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراء الظواهر على مواردها، وتفويض معانيها إلى الله تعالى " [1].

وقال الإمام الشافعي: " لله أسماء وصفات لا يسمع أحد ردّها...لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، فنثبت هذه الصفات، وتنفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه فقال سبحانه وتعالى: ﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ "[2].

فمواصفات التداولية تنطبق على مجرى هذه الأفعال وقوله: " من يدعوني فأستجيب له " فالدعاء يكون للخير، وينهى أن تكون الدعوة فيها إثما أو قطيعة رحم.

كذلك قوله: " من يسألني فأعطيه " فالسؤال فيه خضوع وتذلل لربّ العزة، حيث يتوجه إليه بكل جوارحه، مخلصا النية لله مفتقرا لرحمته ولنعمه، وقوله : " من يستغفرني فأغفر له "، فطلب المغفرة تكون عقب الطاعات حتى يتزود العبد بالحسنات عسى الله أن يمحو بها السيئات ، ويتوب عمّا كسبت جوارحه من خطايا وآثام .

والغرض من ذلك هو دعوة الإنسان للتمسك بالدعاء والاستغفار في الوقت المذكور، وينبهه أن آخر الليل أفضل من أوله لإنجاز فعل الطاعات .

ويوصلنا هذا أن أفعال الوعد تحقق النجاح طبقا للشروط المتوفرة في المقدمة، فلنتزود من معين النبوة لنحافظ على الارتباط الوثيق بخالقنا، ونظل نطرق الأبواب ونسأل الله أن يقدر لنا الخير، ورسولنا الكريم حريص علينا أن نكون أمة قوية معتصمة بحبل الله المتين، فيوجهها إلى كنز من كنوز الجنة في الحديث المذكور .

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال:« **أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَوْ قال –أَلاَ أَدُلُّكَ– عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الجَنَّةِ ؟**

1- عبد القادر عرفات ،الأحاديث القدسية ، ص199 .

2- المرجع نفسه ، ص199 .

تَقُولُ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّ ةَ إلاَّ بِالله، فيَقَوُلُ الله عزّ وجلّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ »
(رواه الحاكم)

فعناصره التداولية تتمثل في :

1- الغرض الإنجازي وكما حدده سيرل؛ إلزام المتكلم نفسه بأداء فعل ما ويتمثل في قوله –صلى الله عليه وسلم– " ألا أدلك على كلمة من تحت العرش، من كنز الجنة ؟ " فالرسول –صلى الله عليه وسلم– ألزم نفسه بأن يدل المؤمن على فعل يجعله من المقربين إلى الله تعالى، الثاوين في جناته تحت عرشه، فالجملة وإن تضمنت صيغة سؤال، إلا أن هدفها الإرشاد إلى ما ينفع الناس، فهو لا ينتظر جوابا عن سؤاله، بل السؤال فيه تنبيه للسامع حتى يتلقى رسالة .

2- اتجاه المطابقة في هذا الحديث كانت من العالم إلى الكلمات، والمسؤول عن إحداث هذه المطابقة هو المتكلم أي الرسول –صلى الله عليه وسلم– فرسالته إلزامية، فعن طريقها ألزم نفسه بالفعل .

3- تحديد الحالة النفسية والمتمثلة في شرط الصراحة، وفي صنف الوعديات هي صدق المتكلم في فعل الشيء الموعود به، والنبي –صلى الله عليه وسلم– قصد أن يعلم الناس الكلمة وهي " لا حول ولا قوة إلا بالله " وقد فسرها الرسول –صلى الله عليه وسلم– بقوله: " لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله " (رواه البزار)

وهذه الكلمة تجعل الله عزّ وجلّ يقول: أسلم عبدي واستسلم، أي فوّض العبد أموره كلها إلى الله تعالى، وانقاد بنفسه لله مخلصا له الدين.

4- تحديد نمط الإنجاز وشرطه العام هو قدرة المتكلم على أداء ما يلزم به نفسه، وقد اتضح دلك من خلال الحديث، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– هو قدوتنا في كل الأقوال والأعمال

ويمكننا تلخيص العناصر السابقة في الجدول الآتي :

الوعديات	الغرض	اتجاه	القصدية	نمط الإنجاز

	الإنجازي	المطابقة		
ألا أدلك ... تقول،لا حول ... يقول الله: أسلم عبدي واستسلم	وعد النبي– ص– المؤمن أن يدله على ما يقربه إلى الله و وعد الله العبد أن يتولى أموره	الرسول – ص– مسؤول عن تحقيق النجاح بالتزامه بتنفيذ الوعد	نية النبي – ص– أن يعلم الناس ما ينفعهم في الدنيا والآخرة	بتوفر الشروط السابقة صار فعل الوعد فعلا إنجازيا ناجحا

فكان الرسول –صلى الله عليه وسلم– يذكر هذه المقولة ضمن دعاء الخروج من المنزل ودخوله، وهذا ما سبق ذكره في الحديث الثامن عشر

والدعاء زاد زوّد الله به المؤمنين الذين أخلصوا النية، فمن فتح الله له باب الدعاء فتح له أبواب الرحمة ، فلا يترك الطالب من ربه، فإنه متعبد بالدعاء، ومن الذين تستجاب دعوتهم ثلاثة، فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– :« **ثَلاَثَةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ، الصَّائِمُ حتَّى يُفْطِرْ، وَإِمَامٌ عَادِل، وَدَعْوَةُ المَظْلُومِ، يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الغَمَامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عزّ وجلّ : وَعِزّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينْ** » (رواه مسلم)

نستشف من خلال هذا الحديث أن أفعال الوعديات تتجلى في أسمى معانيها، فالتوقيع فيها قاطع لا محالة فالذين لا ترد دعوتهم ثلاثة أصناف؛ الصائم والإمام العادل والمظلوم، فيتقبل الله دعوتهم ويفتح لها أبواب السماوات، وينصرهم ويؤازرهم .

فنلمس قوة في الأفعال: " لا ترد، ويرفع، ويفتح، ولأنصرن" فيها حركية قوية وسرعة نفاذ، فالأفعال المضارعة مدعمة بقرائن فعّالة كالنفي والتوكيد وسرعة الاستجابة والقسم، وكل هذا يؤول إلى أن حكم الله ماض في عباده .

ولتحليل هذه العناصر التداولية وفق معيار سيرل في صنف الوعديات نلحظ أن الغرض الإنجازي في هذه الأفعال هو التزام الله –عزّ وجلّ– بتقبل الدعوات الثلاث الصادرة عن العباد .

كذلك توفر القصدية بشرط دوام الفعل، فالصائم دعوته مستجابة مادام صائما، والإمام العادل القائم حكمه على ما يرضي الله، ودعوة المظلوم على من ظلمه وأخذ حقه، فدعوته –كما جاء في الحديث– تحملها الملائكة فوق السحاب، وفيه إشارة لعلو شأنها حيث تفتح لها أبواب السماوات، ويؤكد ذلك قول النبي – صلى الله عليه وسلم– لمعاذ بن جبل –رضي الله عنه– حين بعثه إلى اليمن« **واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الله حِجَابٌ »**

(رواه البخاري)

فهي دعوة مقبولة و" لم يظهر أثر الاستجابة على الحال لحكمة لا يعلمها إلاّ الله " [1]

وهذه هي قدرة الله –عزّ وجلّ– فيما ألزم نفسه به اتجاه عباده .

جاءت معاني هذا الحديث صريحة لقوتها الإنجازية التي تتضمن المحتوى القضوي الذي بيناه فيما سبق، أما القصدية فهي ارتباط الفعل الإنجازي بمقصد المتكلم، وعلى السامع أن يبذل الجهد اللازم للوصول إليه، "والعملية التواصلية القصدية تفترض طرفين إنسانيين: مرسل ومتلق " [1] ويفترض أن يوصلنا البعد التداولي للغة إلى معرفة ما يمكنه وينويه المتكلمون من مقاصد موجهة نحو مستمعيهم .

والغرض بعد ذلك أن الأفعال الكلامية في هذا الحديث تمثل ركائز هذا البناء، لا تتعلق بالقول فقط بل هي أعمال مؤداها إنجاز وعد من الله إلى عباده في ظروف معينة ومقام محدد، ويبين الهدي النبوي أن تحصيل الوعد سهل بتصحيح القصد وفعل الطاعة .

والدعاء من مستلزمات الحياة لما فيه من نفع وفائدة، فينبغي أن يكون على رجاء الإجابة ولا يقنط من رحمة الله فإنه يدعو كريما لا تنفد خزائنه ولا يكرهه أحد على العطاء، فهو منزه عن ذلك، وخير مثال ما جاء عن أبي ذرّ –

1- عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ، ص 201 .

1- محمد مفتاح ، تحليل الخطاب الشعري ، ص 164 .

رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– يرويه عم ربّه: « **قَالَ ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ،ابْنَ آدَمَ إِنْ تَلْقَنِي بِقِرَابِ(ملء) الأَرْضِ خَطَايَا لَقِيُتَك بِقِرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمّ تَسْتَغْفِرْنِي، أَغْفِرُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي** » .(رواه أحمد)

فأول ما نلاحظه في هذا الحديث هو حضورالجمل الطلبية:

ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني ...

ابن آدم إنك إن تلقني بقراب الأرض خطايا ...

ابن آدم إنك إن تذنب حتى يبلغ ذنبك عنان السماء ....

نرى الجمل الطلبية المتمثلة في أسلوب النداء، وتكراره دليل على قصدية المرسل في إثارة انتباه المتلقي ليبلغه رسالة تحمل إفادة. ونذكر أن مبدأ الإفادة هي الفائدة التي يجنيها المستمع من الخطاب، وهي فائدة تواصلية ذات أبعاد تداولية تربط بين المتكلم والمستمع.

أما الأفعال الكلامية المتضمنة للوعد فهي تكرار للفعل " غفر" حيث ورد بصيغ مختلفة؛ غَفَرتُ، ومَغفرَةٌ، وتَستَغفرُني، وأَغفرُهُ، فغرضه الإنجازي وعد الله – عزّ وجلّ– لابن آدم أن يغفر له كل الذنوب ما دام العبد مواظبا على الدعاء والرجاء وحسن الظن بربه، وما اقتراف الذنب إلا في لحظات غفلة ونسيان، فينجز الله وعده و لا يبالي إن سأله سائل لم غفرت لفلان، فالله –عزّ وجلّ– منزه على أن يسأل، كما يعد بالمغفرة وإن كثرت الذنوب وعظمت " ولو بلغت ذنوبك عنان السماء " أي نواحيها و أطرافها، فالله الفعّال لما يشاء ويريد، ووعده رحمة منه لعباده وهو لا يخلف الميعاد .

ويظل التواصل الرباني يزداد قوة لأنه خالقهم وأحن عليهم من نفوسهم، فسخر لهم رحمته فتح لها أبواب السماء ووسع لها كل أرجاء الأرض حتى يقبل العبد على عمل الخير مهما ضاقت به السّبل ، فيقول: " إن تلقني بقراب الأرض خطايا لقيتك بقرابها مغفرة بعد أن لا تشرك بي شيئا ..."، كيف لا وقد وعد الله عباده بالاستجابة .

والغرض من هذا الحديث الرجاء العظيم، والبشرى للتائبين والحث على الإسراع بالتوبة، ويعطينا معنى صريحا بضم محتواها القضوي إلى قوتها الإنجازية، فلنسارع إلى عمل الخير ونحث بعضنا على تداول كل حديث فيه منفعتنا ورفعة لمقامنا، فعن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول الربُّ–عزّ وجلّ–: « **مَنْ شَغَلَهُ الْقَرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلاَمُ اللهِ عَلَى سَائِرِ الكَلاَمِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ** » (رواه الترمذي)

نقف على توقيع آخر لذكر الله ، فجمل هذا الحديث لا تنقل مضامين مجردة وإنما تؤدي وظائف؛ " من شغله القرآن ذكري عن مسألتي، أعطيته أفضل ما أعطي السائلين..."

فالوظيفة هنا مؤداها تفرغ المؤمن لقراءة القرآن وذكر الله –عزّ وجلّ– حيث لا يشغله سواهما، فلا يجد وقتا لسؤال الله تعالى، ونتيجة لهذه المقدمة يكون الفعل الإنجازي متمثلا في وعد الله لعباده هؤلاء بإعطائهم أفضل مما يعطي السائل، وهذه لفتة أخرى في حث المؤمنين على الانشغال بما هو أهم على المهم .

والغرض الإنجازي من الفعل الكلامي هو بيان ما لسنة النبي –عليه السلام– من أثر طيب في حياة الأمة، فطبقت من قبلهم قولا وعملا .

وقد أشار سيرل أن لكل فعل غرضا متضمنا في القول، ونجد هذا في الفعل " أعطى " فهو وعد من الله يتضمن قوة إنجازية حاصلة لا محالة ومستمرة على الدوام في إطار مواصلة الانشغال بتلاوة القرآن والعمل به وذكر الله بالتوبة و الاستغفار .

وتتمثل القيمة التداولية في إحلال الفعل محل الكلام، فحين يقول: "أعطيته أفضل ما أعطي السائلين "، تحمل هذه الجملة وعدا وتنفيذا لعمل ما، فتستبدل الصيغة الكلامية بحركة الإعطاء مادامت الظروف المحيطة بالفعل قائمة، فيحقق الفعل الإنجازي نجاحا.

ولتدعيم العمل ذكر أسلوبا بيانيا فيه تأكيد لأفضلية الانشغال بالقرآن وذكر الله كأفضلية الله على سائر العباد، والتوصيف هنا جاء لتقريب الصورة وتوضيحها .

وفي الوعديات نلمس درجة الشدة للغرض المتضمن في القول لأن الكلام في متناول المتكلم وقدرته، وتكون النتيجة مطمئنة استنادا إلى نية المتحدث .

وليس الحديث إشارة لإهمال الدعاء أو الاشتغال بالذكر عنه ، ولا هو من باب تفضيل الذكر على الدعاء، وإنما يعالج ما قد يعرض للعبد من اشتغاله بعموم الذكر عن خصوص الدعاء، وهنا يفوته أن يخص نفسه بدعاء يسأل فيه الله حاجته، وأن الله سبحانه يعطيه خيرا مما لو سأله على اعتبار أنه اشتغل بباب من أبواب الخير .[1]

الأمريـات

من الأحاديث المتضمنة لصنف الأمريات الحديث القدسي الثالث :

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: « **مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ** » **ثلاثًا، غير تمام، فَقِيل لأبِي هُرَيرَة : إنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإمَامِ . فَقَالَ: اِقْرَأ بِهَا في نَفْسِكَ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله –صلى الله عليه وسلم– يَقُولُ:** « **قَالَ الله تَعَالَى: قَسَّمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: " الْحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ " قَالَ الله تَعَالَى حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: " الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ " قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ : " مَالِكُ يَوْمُ الدِّينِ " قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً، فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي– فَإِذَا قَالَ: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:" اِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الذِّينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِم غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِم وَلاَ الضَّالِينَ "، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ** » .(رواه مسلم)

يندرج هذا الحديث بمعيار تصنيفات " سيرل " ضمن الأمريات .

1- ينظر: الأحاديث القدسية ، ص187 .

وغرضها يتمثل في محاولة المتكلم توجيه المستمع للقيام بأمر ما، وتكون الاستجابة للأمريات بالامتثال أو الامتناع. والقول الذي يطلب به شيء ما فهو أمر أو نداء أو طلب أو نصح...

وفي الأمريات نجد المتكلم يحمل المخاطب على فعل شيء أو ترك شيء واتجاه المطابقة تكون من العالم إلى القول .

ولهذا ففي الحديث أفعال متضمنة صنف الأمريات Directifs فالجملة الأولى: من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خِداج كررها ثلاثا ليؤكد وجوب قراءتها، والقول يتضمن أمر قراءة الفاتحة، وإلا كانت الصلاة ناقصة وغير مقبولة .

ونجد توقيع الأمر في قول أبي هريرة: " إنا نكون وراء الإمام، فقال: اقرأ بها في نفسك "، أي اقرأها سرّا بحيث تسمع نفسك.

وأم القرآن، اسم سورة الفاتحة، لأنها فاتحته كما سميت مكة أم القرى لأنها أصلها .

والأمر موجه لكل مصل لينفذ تعاليم هذا الحديث، فهو واجب، وهنا تبرز المطابقة التي أرادها سيرل والمتجهة من العالم إلى الكلمات، فالمتكلم وجه خطابا محتواه جملة " من صلى صلاة ..." فالأمر الضمني فحواه (اقرأ بأم القرآن في كل صلاة) والهدف رغبة المرسل في إنجاز فعل موجه إلى المرسل إليه لتنفيذه .

ولذلك نلاحظ أن الحالة النفسية المصاحبة لهذه الأمريات هي الرغبة في أن يقرأ المصلي في كل ركعة بفاتحة الكتاب ولا يتركها أبدا، وإلا بطلت صلاته فجاءت نتيجة الحديث مدعمة لفضل ما في المقدمة، فتتضمن فاتحة الكتاب من الصفات ما ليس لغيرها، ومن شرفها أن الله سبحانه وتعالى قسمها بينه وبين عباده ولا تصح القربة –الصلاة– إلا بها .

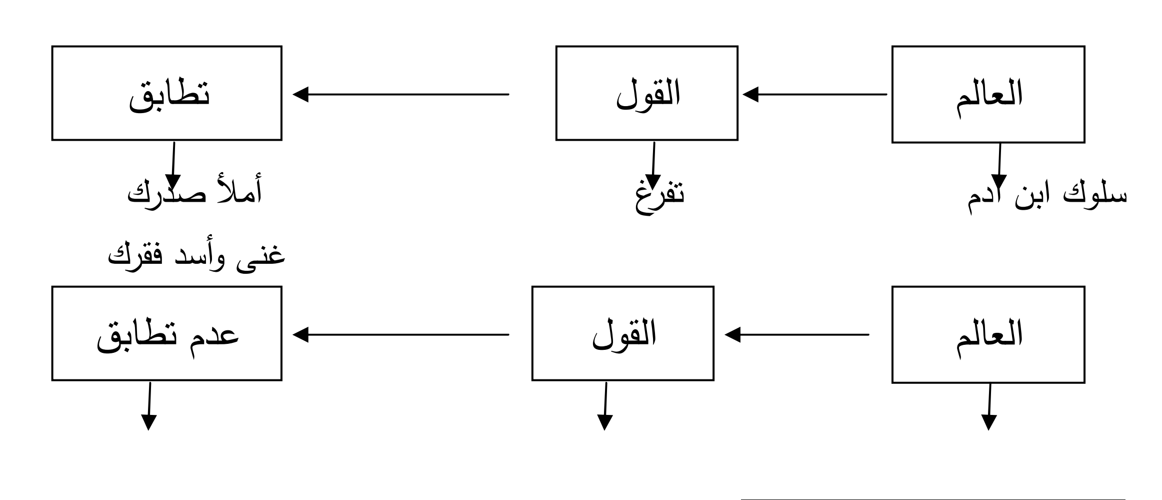
والصلاة صلة وتواصل دائم مع رب العزة وكل خطاب يرشدنا إلى أن نكون على صلة بالله تعالى وذلك عن طريق الذكر، والذكر عبادة يدعونا إليه –عزّ وجلّ–.

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال : «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ : يَابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلأْ صَدْرَكَ غِنى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ** » (رواه الترمذي)

فالجملة الطلبية المتضمنة لفعل الأمر هي: " تفرغ لعبادتي " حيث تحمل تعبيرا عن الرغبة في إنجاز فعل من قبل المخاطب، فالطرفان في هذا الملفوظ غير متناظرين، فالله –جلت قدرته– ينبه ابن آدم لشيء عظيم وهو لفظ الفعل " تفرغ"، والمطابقة فيها تكون من العالم إلى القول، كما بين سيرل في هذه التصنيفات والطرف الثابت في هذه الصيغة اللغوية هو القول " تفرغ " فهو الحالة المرجعية، وهناك طرف متحول وهو العالم المتمثل في سلوك" ابن آدم " ولابد من العالم أن يتجه إلى القول ليطابقه لانعدام المطابقة قبل التلفظ بالأمر، فطلب التفرغ لعبادة الله تغيير في سلوك المخاطب من حال إلى حال، فإن لم تحصل المطابقة يكون التقصير من المخاطب أي من سلوك ابن آدم ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَومٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِم** ﴾[1] فيكون المخاطب هو المسؤول في نجاح المطابقة .

وبعد ذلك يأتي جواب الطلب المتمثل في الجمل أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، فإن قصر المخاطب في تحقيق المطابقة تأتي النتائج عكسية لقوله: " وألا تفعل ملأت يديك شغلا، ولم أسد فقرك "

و يمكننا توضيح ذلك حسب الشكل الآتي :



1- سورة الرعد ، الآية 11 .

سلوك ابن آدم　　　عدم التفرغ　　　ملأت　يديك

شغلا ولم أسد فقرك

فيؤول التطابق إلى تحقيق النجاح، وعدم التطابق إلى الفشل وما يلفت الانتباه في هذا الحديث أن كل لفظة من ألفاظه تحمل معاني كثيرة، فالتفرغ لعبادة الله لا يقتصر على العبادات المفروضة فحسب، وإنما يشمل كل ما هو في طاعة الله من طلب علم وعمل، وكل ما ينفع العباد في الدنيا والآخرة .

وكل نص يحقق فائدة تعود على الفرد والمجتمع، وذلك مطمح الدراسات التداولية حيث نستشف عمليتها الإنجازية ما تتضمنه الأفعال الكلامية.

وجاء سرد هذا الحدث مفعما بحقيقة الصدق سهلا مؤثرا موجزا، ومن العبارات التي تتضمنه أفعالها قوة إنجازية قراءة القرآن لقوله تعالى: ﴿**وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً** ﴾[1]

فعن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال : « **يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: اِقْرَهْ وَارْقَهْ ، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا** » (رواه أحمد)

ففعلا الأمر في هذا الحديث: " اقره و ارقه " ، أي اقرأ القرآن وارتق في درجات الجنة، والهاء في الكلمتين للسّكت .

" وقد اتفق النحاة على أن فعل الأمر في اللغة العربية يفيد المستقبل أبدا، فإذا كان الأمر في الأساليب الوضعية يدل على مستقبل محدود ينتهي بانتهاء الأمر والطلب كما ينتهي الآمر والمأمور بانتهاء القول والقائل والزمن على حد سواء " [2]. فإننا نلحظ أن الأفعال الواردة في الأحاديث القدسية خالدة ومستمرة مادامت الحياة، ويحيلنا هذا إلى فعل معجز خالد من القرآن الكريم في أول اتصال السماء بالأرض قوله تعالى لرسوله الكريم: " **اِقْرَأْ**" فهذا الفعل خالد من الناحية الزمنية، لأن المتكلم خالد وباق، والمخاطب الجنس البشري كافة فهو مستمر حتى قيام الساعة .

1- سورة المزمل ، الآية 04 .
2- فتحي عبد الفتاح الدجني ، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم ، ص130 .

والحكمة هنا أن القراءة في الآية الأولى لم تزل قائمة يرددها الملايين، وفي آية أخرى نجد الفعل " اقرأ" أمرا لم يحدث مطلقا إلا بعد الموت في قوله تعالى: ﴿**اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا** ﴾ (1)

واستنادا لذلك نجد فعل الأمر الوارد في الحديث القدسي " اقرأ " لن يحدث إلا يوم القيامة، وهو زمن مطلق، فالقراءة تكون طواعية لا تخضع للشروط الكونية ولا اللغوية، لذلك لا يمكننا أن نقول إن المطابقة ناجحة لأن صاحب القرآن حقق فعلا إنجازيا وفق المعايير التداولية فأحدث تغييرا بقراءته للقرآن، ومن ثمّ نال الجزاء بحصوله على المكانة الرفيعة يوم القيامة

فعند هذا الحديث يتوقف الزمن بكل أبعاده، تنعدم المطابقة كليا. فقط يبقى الغرض المتداول بقراءتنا لهذا الحديث وهو حث الناس على قراءة القرآن وحفظه والعمل به وتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، لأن منزلة قارئ القرآن رفيعة الدرجات وعلى العبد أن يختار الدرجة التي يريد أن يرقاها .

فعسى أن نبادر إلى هذه العبادة فيقينا الله –عزّ وجلّ– نار الجحيم ، فعن أنس –رضي الله عنه– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال:

« **يقول الله تعالى: أَخْرِجُوا من النّار، من ذَكَرَنِي يومًا، أو خَافَنِي في مَقَامٍ** »

(رواه الترمذي **)**

فالجملة الطلبية المتضمنة للأمر كما نلاحظ هي: " أخرجوا من النار " ولا يتحقق إنجاز هذا الفعل في الحياة الدنيا، ولكن البلاغة النبوية تتجلى في الجملة التقريرية، في قوله: " من ذكرني يوما، أو خافني في مقام "، و كأننا نلمس دعوة من الله إلى عباده بأن يذكروه ويكون الذكر بإخلاص القلب وصدق النية وإلا كان كل الكفار يذكرونه بألسنتهم دون قلوبهم، وأمرهم كذلك بأن يخافوه والخوف هنا هو " كف الجوارح عن المعاصي والتزامها بالطاعات وإلا فهو حديث نفس وحركة ..."(1) لقوله تعالى:

﴿ **وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى فَإِنَّ الجَنَّةَ هِيَ المَأْوَى**﴾(2)

1- سورة الإسراء ، الآية 14 .

1- عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ، ص196.

2- سورة النازعات، الآية 41،40 .

فالإقرار في هاتين الجملتين لم يكن الغرض منه هو الإخبار، بل يتضمن فعلا إنجازيا أمريا، وبه نهتدي إلى التوسل بالعناصر التداولية المدرجة في صنف الأمريات، ففعل الأمر " أخرجوا " نراه فعلا غيبيا لا يتحقق إنجازه إلا في العالم الآخر، ولكن له ارتباط بالعمل الدنيوي لبني البشر مختزل في جملة: " من ذكرني يوما أو خافني في مقام "

وكما أشرت هي دعوة إلى ذكر وخوف، فالمطابقة فيها متجهة من العالم إلى القول: الإنسان ←يذكر الله ويخافه، والله يطلب منه ضمنا أن يسعى إلى تغيير العالم بسلوكه التعبدي حتى تتحقق المطابقة بينه وبين القول فيقوده إلى المطابقة الحقيقية المؤولة من فعلي (الذكر والخوف): ذكر وخاف .

ففي اللسانيات التداولية لا يقصر الفعل الإنجازي على الفعل اللغوي فكل لفظ يمكن أن يحمل المضمون الإنجازي والذي يحدد الغرض هو المقام فاللفظتان: ذكر وخاف تحملان –حسب رأيي– غرض الأمر، بمقارنتهما بالفعل الطلبي: " أخرجوا "، وهذا بمنظور تداولي، فالخروج متعلق على الذكر والخوف والمقام يبيّن أن الدعوة عامة فيها نصح وتوجيه إلى ما ينفع الناس في الدين والدنيا، ويتوالى هذا الأسلوب المتضمن للإرشاد فعن أبي الدرداء وأبي ذر –رضي الله عنهما– عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– عن الله عزّ وجلّ– قال: « **ابْنَ آدَمَ اِرْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ** »

(رواه الترمذي)

تصدر هذا الحديث أسلوب نداء، دلالة على تنبيه السامع لما سيلقى إليه والنداء من الإنشاء الطلبي، ويعد في اللسانيات التداولية من الأفعال الكلامية شأنه شأن الأفعال اللغوية الأخرى، كالإخبار والأمر والوعد والوعيد والمنادى وظيفة تستند إلى أحد مكونات الجملة بيد أن النداء فعل لغوي يشكل الجهة أو القدرة الإنجازية للجملة " [1]

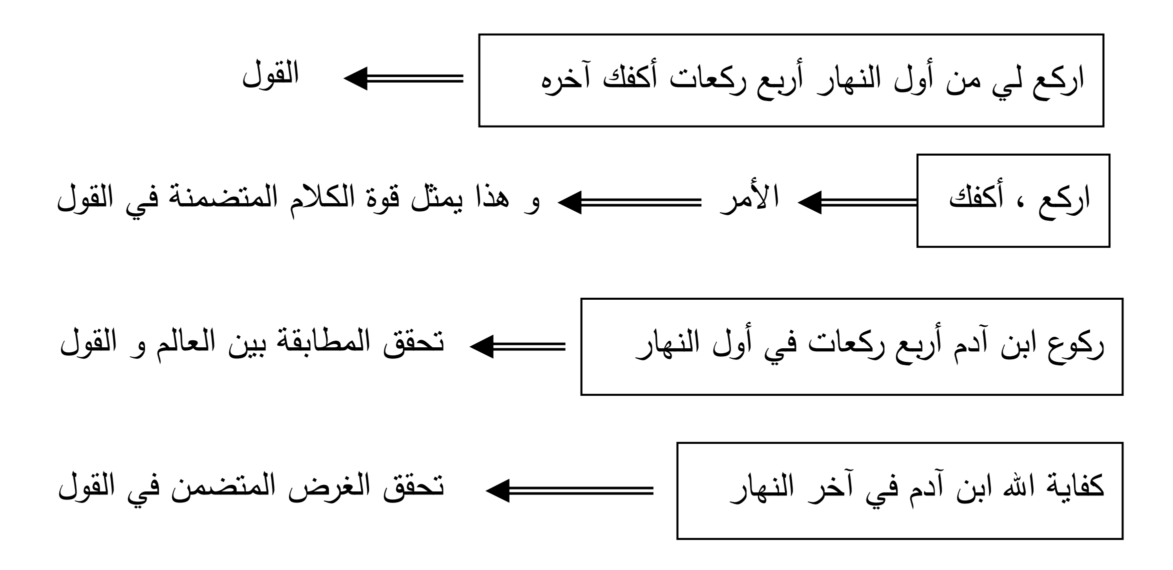
وتوقيع النداء ينبئ بلفت الانتباه إلى أمر ذي فائدة فكانت جملتا الأمر: " اركع لي و أكفك آخره "، فالله –عزّ وجلّ– أمر ابن آدم أن يركع من أول النهار أربع

1- أحمد المتوكل ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ، دار الثقافة ،ط1 ،1985 ، ص161 .

ركعات، والمقصود بها صلاة الضحى، فإن فعل ذلك سيكفيه الله في آخر النهار، والمعنى:" فرغ بالك بعبادتي في أول النهار، أفرغ بالك في آخره بقضاء حوائجك "[2] .

وصلاة الضحى هنا هي لذكر الله في وقت غير الفريضة، حتى يبقى العبد متواصلا مع خالقه في كل آن.

أما التوصيف التداولي في هذا الحديث فيمكن أن نجدوله في هذا الشكل :



وقد احتوى هذا الحديث القدسي كل مقومات عناصر التداولية حسب تصنيف .سيرل في الأمريات.

إن الأفعال الكلامية الواردة في الأحاديث القدسية متضمنة الشروط التي تعد من المهام الرئيسة في اللسانيات التداولية ونلحظها أكثر في الحديث المروي عن أبي ذرّ –رضي الله عنه– عن النبي صلى الله عليه وسلم– فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال:« **يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَّالَمُوا يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمُكُمْ، يَا عِبَادِي**

2– ملاحظة: " في هذا الحديث استحباب صلاة الضحى ، وهي سنة مؤكدة ، وأقلها عند الشافعية ركعتان وأفضلها ثمان ، ويجوز أن تصلى اثنتي عشر ركعة و فعلها ثمانية أفضل .
ويدخل وقتها بارتفاع الشمس إلى الزوال ، وصلاتها إذا مضى ربع النهار أفضل، ليكون في كل ربع من أرباع النهار صلاة، ينظر، الأحاديث القدسية ، ص 54 .

كُلُّكُمُ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ،فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمُ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمْ، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمُ ْوَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرُ.يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمُ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِيكُمُ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللهَ وَمَنْ وَجَدَغَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ » (رواه مسلم)

وفرة الأفعال في هذا الحديث، والغرض منها الطلب، وشرطها التعبير عن فعل مستقبلي يقوم به المخاطب.

فالمخاطب ← عباد الله ، و الأفعال (Actes) المطالبون بها هي :

ترك فعل الظلم ← لا تظالموا

طلب فعل الهداية ← فاستهدوني أهدكم

طلب فعل الطعام ← فاستطعموني أطعمكم

طلب فعل الكسوة ← فاستكسوني أكسكم

طلب فعل المغفرة ← فاستغفروني أغفر لكم

واتجاه المطابقة في هذا الحديث هو من العالم إلى الكلام، فالمخاطب هم عباد الله، والكلام ما تتضمنه الأفعال السابقة، فإن استجاب العباد لطلب الله –عزّ وجلّ– تحققت المطابقة، لأن المخاطب هنا هو المسؤول عن ذلك، والغرض الإنجازي في هذه الأفعال يتمثل في حمل المخاطب على :

الابتعاد عن الظلم وطلب الهداية من الله، والسعي في طلب الرزق من طعام وكسوة، وطلب المغفرة من الله تعالى .

ولا يمكن أن نتحدث عن الحالة النفسية المصاحبة لهذا الصنف من الأمريات بأن نقول أن للمتكلم رغبة في أن يقوم المخاطب بفعل شيء، لأن هذا

من خصوصيات البشر، بل نقول هي إرادة الله – عزّ وجلّ– أن يهدي عباده إلى الطريق المستقيم الذي ينفعهم في الدنيا والآخرة .

وإذا تتبعنا الحديث نلمس عظمة الله و قدرته التي تفوق أي تصور .

وقوة الإبلاغ واضحة نراها في تكرار أسلوب النداء " يا عبادي " والتكرار هو توكيد لضمان نجاح الرسالة .

كل ما رواه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ربّه غرضه إبلاغ فائدة للناس، وهذه الفائدة تكون فعالة إذا كانت إجرائية، والحديث القدسي المروي بأسلوب نبوي يكتسب قوة تفوق كل كلام البشر المألوف، فيتميز بلغته المنتقاة الموجزة، المحكمة السبك، البسيطة الواضحة يفهمها المتلقي كيف كان مستواه الثقافي، والغاية هي التقرب إلى الناس لتعليمهم دينهم كما أمر الله . ويتجلى ذلك في وحدة التجاوب بين الإنسان والرسول وخير دليل القول الصادر عن ابن عباس –رضي الله عنهما– قال: **قَالَتْ قُرَيْشُ للنَّبِي –صلى الله عليه وسلم– : أُدْعُ لَنَا رَبَّك أَنْ يَجْعَلَ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِكَ ! قَالَ – صلى الله عليه و سلم–: « وَ تَفْعَلُونَ ؟ » قالوا : نَعَمْ . قَالَ : فَدَعَا، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ: إنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ لَكَ :« إنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمُ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتَ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ» قَالَ :« بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَة »**

(رواه أحمد)

فمدار أفعال هذا الصنف من الأمريات كالآتي :

فالمتكلم في البدء هم قريش ←—— المستمع الرسول –صلى الله عليه وسلم–

الفعل هو " أُدع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا " .

والغرض الإنجازي محاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء فقريش تريد من الرسول–صلى الله عليه وسلم– أن يدعو الله –عزّ وجلّ– ليجعل جبل الصفا في مكة المكرمة ذهبا حتى يؤمنوا به .

وشرط الإخلاص هنا يتمثل في رغبة قريش أن يصبح الصفا ذهبا ليؤمنوا بالرسول –صلى الله عليه وسلم– والمحتوى القضوي هو دائما أن يستجيب السامع في المستقبل لتحقيق هذه الرغبة .

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– دعا ربه فعلا، وكان يأمل أن يتحقق ذلك رغبة منه في إيمان هؤلاء، وتحقيقا لغاية الرسالة السماوية .

نبين الخطاب في الشكل التالي :

قريش ←—— النبي ←——— يدعو الله ←——— جعل الصفا ذهبا

النبي ←——— يدعو الله ←——— تحقيق الرغبة ←——— الإيمان

الله(عز وجل) ←—تحقيق الرغبة ←——— عدم الإيمان ←——— العذاب الشديد

يحمل الدعاء التضرع والاعتراف بأن ربّ الكون ربّ واحد، فقوة الفعل تحمل عمق الفكرة وجلاء المعاني وأصالة الإحساس.

البوحيـات

تندرج البوحيات في الأحاديث القدسية المصدرة بآيات من كتاب الله العزيز. قال الله تعالى: ﴿ **وَلَذِكْرُ الله أَكْبَرُ** ﴾ [1]

وقال: ﴿**وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾[2].

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال النبي –صلى الله عليه وسلم– " **يَقُولُ الله تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** " (متفق عليه).

فالبوحيات Expressifs بمعيار سيرل هي الأفعال التي تعبر عن حالة نفسية المتكلم، وهي التعبير عن المشاعر إزاء الواقع، كتقديم الشكر أو الاعتذار أو الترحيب أو التهنئة، وهذه الأفعال إرادية، والوسيط الحامل لها هو اللغة.

ولذلك نجد أن الحديث يمثل هذا الصنف من البوحيات، فجملة " أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني "، فالظن ما تعتلج به النفس، أي " إن ظن أني أقبل أعماله الصالحة وأثيبه عليها، وأغفر له إن تاب، فله ذلك مني، وإن

1- سورة العنكبوت ، الآية 45.

2- سورة الأحزاب، الآية 35.

ظن أني لا أفعل به ذلك فيكون له ذلك" [1] والغرض الإنجازي من (الظن) هو التعبير عن الحالة النفسية المتمثلة في شرط الصراحة، أما اتجاه المطابقة فيراها سيرل في اتجاه فارغ، أي ليس لهذا النوع اتجاه مطابقة، إذ يغني عنه شرط الإخلاص الذي يؤول إلى إنجاح الفعل، وقوته الانجازية تضمنتها الجمل:" ذكرني......تقرب...........أتاني..".

وشرط الإخلاص Sincérité: ويتحقق حين يكون المتكلم مخلصا في أداء الفعل فلا يقول غير ما يعتقد، ولا يزعم أنه قادر على فعل ما لا يستطيع " [2].

وشرط الإخلاص من شروط الملاءمة عند أوستين فطورها سيرل وطبقها على كثير من الأفعال الانجازية.

وقيل معي " ظن عبدي بي " ظن الإجابة عند الدعاء وظن القبول عند التوبة وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة...ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقنا بأن الله يقبله ويغفر له لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد فإن اعتقد أو ظن أن الله لا يقبلها وأنها لا تنفعه فهذا هو اليأس من رحمة الله، وهو من الكبائر، ومن مات على ذلك وكل إلى ما ظن كما في بعض طرق الحديث المذكور" فليظن بي عبدي ما شاء" [3].

والفعل القضوي لهذه الجمل الواردة في الحديث هو الحمولة الدلالية المباشرة التي تحملها الجملة أي فعل القول، أما فعل القوة فيها فيتمثل في الطاقة الانجازية التي تتضمنها كل جملة، وفعل القوة هو الفعل الكلامي الحقيقي.

وما نلمسه أن هذا الحديث فيه ملامح البوحيات، فهناك شوق إلى ذكر الله و التقرب إليه بشتى الطاعات، ولله حسن الجزاء.

يشترط في البوحيات –كما ذكرنا– أن يعبر عنها بأفعال، ولكن قد تعبر عنها الحالات النفسية، فملامح الفرح البادية على الوجه تزيد في قوة الفعل كما جاء في المثال التالي:قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ، يَا أَيُّهَا الذِّينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[1].

1-عبد القادر عرفات ، الأحاديث القدسية ص 64

2- محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة، ص 48.

3-عصام الدين الصبابطي ، صحيح الأحاديث القدسية ،ص 187.

1- سورة الأحزاب، الآية 56.

عن عبد الله بن أبي طلحة، عن أبيه –رضي الله عنه– أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– جاء ذات يوم والبشر يرى في وجهه، فقلنا: إنا لنرى البشر في وجهك ؟ فقال: "**إِنَّهُ أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ لاَ يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلاَ يُسَلِّمُ عَلَيْكَ أَحَدٌ إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا** " (رواه أحمد).

فالفرائد الراسخة في الأصالة تطالعنا كل مرة يلآلئ لا نكاد نفقه لها كنها فما بوحياتها في هذا المنحى الخالد يا ترى ؟

في البدء نجد الجملة الفعلية: " جاء ذات يوم "، والمقصود الرسول–صلى الله عليه وسلم– والتوقيع في هذا الحديث في الجملة الحالية " والبشر يرى في وجهه "، وهذا من البوحيات النفسية التي أشار إليها سيرل، حيث تعبر عن انفعالات تظهر على ملامح المتكلم، وهي غير موجهة للمخاطب، وليس لها محتوى قضوي، ولا اتجاه مطابقة، فهي تعبير ذاتي خالص لان علامة البشرى التي بشر بها ظاهرة على وجهه، فكان رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إذا ظهر السرور على وجهه يكون له ضياء بلمع القمر[2] فلما سأله الصحابة رضوان الله عليهم عن سبب ذلك ، أخبرهم أن الملك بشره أن كل من صلى عليه أو سلم سيضاعف الله له الجزاء .

وهذا تفسير لمظهر الانفعال، فالرسول –صلى الله عليه وسلم– عندما أتى إلى الصحابة لم يعبر عن ذلك باللغة، بل كان الأمر باديا على محياه الكريم، لذلك سألوه عن كنه ذلك، والغرض هو الفائدة، فالمؤمنون كانوا يتسارعون لمعرفة كل جديد في دينهم رغبة في التعلم و التفقه والتقرب لله – عز وجل – ليس ما يتنزل من آيات الله فحسب بل حتى ملامح الرسول الكريم يريدون استقراءها حتى لا يفوتهم شيء إلا وتعلموه لقول الإمام الشافعي:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة   إلا الحديث وعلم الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا   وما سوى ذاك وسواس الشياطين[1]

فلا نبرح البوحيات في ما ذكر عن ابن عباس –رضي الله عنه– في قوله تعالى: ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾[2]

2- عبد القادر عرفات ،الأحاديث القدسية ،ص 287.
1- ديوان الشافعي .، دار الكتاب الحديث للطباعة والنشر، ط1، 2002 ،ص 75.

«قَالَ أَيْ رَبِّ، أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ ؟ قَالَ بَلَى.قَالَ: أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبَكَ ؟قَالَ بَلَى.قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتَ وَأَصْلَحْتَ أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الجَنَّة ؟قَالَ بَلَى» (رواه أحمد والبخاري ومسلم).

فصنف البوحيات في هذا الحديث نراها معبرة عن حالة نفسية تواقة إلى رحمة خالقها، وقد روى الحاكم " أن آدم كان رجلا طوالا كأنه نخلة سحوق، كثير شعر الرأس، فلما ركب الخطيئة بدت له عورته، وكان لا يراها قبل ذلك، فانطلق هاربا في الجنة، فتعلقت به شجرة، فقال لها: أرسليني ! قالت لست بمرسلتك، قال: وناداه ربه،يا آدم أمني تفر ؟قال:يا رب إني استحيتك"[3].

(رواه البخاري).

فالمتكلم هو آدم –عليه السلام– والأفعال الكلامية المتضمنة للبوحيات هي " أرأيت إن تبت وأصلحت، أراجعي أنت إلى الجنة ؟ "وغرضها الانجازي الندم وهو تعبير عن الحالة النفسية، أي تبيان عن حالة آدم عندما أسكنه الله الجنة، وعلمه بأن رحمته تسبق غضبه، فتوسل بهذه المعطيات لأنها حقائق ثابتة، وقد لاحظنا أن الفعل البوحي في هذا الحديث قد حقق النجاح لتوفر القصدية وشرط الصراحة في الخطاب .

فنلمح قمة التواصل الرباني بين العبد وخالقه، فالعبد المخطئ العاصي يتضرع لله بكل خشوع معبرا عن ندمه بأسمى ما تحمله اللغة من معاني الدعاء والتوبة والندم. فيستجيب الخالق " بلى" جواب في قمة الإعجاز فتتحقق الفائدة من الخطاب و هي من دعائم اللسانيات التداولية.

ويظهر الإعجاز في الآية الكريمة: ﴿ **أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ، وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[1]

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال سمعت النبي –صلى الله عليه وسلم– قال **«إِنْ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ:أَذْنَبْتُ ذَنْبًا أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ:رَبِّ أَصَبْتُ**

2- سورة البقرة ، الآية 37.
3- الأحاديث القدسية ص 287.
1- سورة الأنعام، الآية 54.

ذَنْبًا أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثُمّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ :أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فَقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلاَثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » (متفق عليه).

فلنتأمل هذا الحديث تعتلج به السرائر وتلهج بذكره الألسنة ما دامت الحياة، فبوحياته فيها قوة وتأثير نكاد نحس وقعها، فالمتكلم هنا هو العبد وتعبيراته غرضها الإنجازي الاعتراف بالذنب ثم الندم، يقول " رب أذنبت ذنبا فاغفر "فيفصح عن مشاعره اتجاه الواقع، فالذنب الذي اقترفه جعله يحس بحسرة، فقد خالف الواقع، وخالف الشرائع فيتحقق شرط الصراحة في هذا الفعل البوحي، وإلا لما تلقى القبول من الله –عز وجل– في قوله " أعلم عبدي أن له ربا يغفر الذنب ويأخذ به، غفرت لعبدي ". ويدل هذا على إخلاص العبد في هذا المقام، والله أعلم بسرائر عباده، فلو كان المخاطب بشرا لما استطاع أن يتحقق من إخلاص مخاطبه، وربما يعد إخلاصه افتراضا لنجاح الفعل الكلامي في التواصل وتحقيق المسار التداولي.

فالنادم هنا لا يفتأ يظهر ندمه كلما ارتكب ذنبا، والغافر لا يفتأ يغفر له كلما توجه إليه بنية خالصة، والله أعلم بخفايا الصدور.

وهذا الندم غير صادر عن اللسان بل ما ثبت معناه في الجنان.

وأن الندم والتوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة على الفور ولا يجوز تأخيرها سواء كانت صغيرة أو كبيرة.

ومن الهدى النبوي أن ندعو الله ليغفر لنا ويتوب علينا لقوله تعالى ﴿ **وَأَنِ اسْتَغْفِروا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ**﴾ [1]

1- سورة هود، الآية 03 .

خلاصـة :

من خلال هذا الفصل نتوصل إلى أن التداولية تجلت بوضوح في الأحاديث القدسية، فكان الفضاء مهيأ لتطبيق جل العناصر والشروط التي تتبنى عليها اللسانيات التداولية، فالأفعال الكلامية الواردة في هذه العينة من الأحاديث القدسية كانت من اهتمامات التداولية في دراسة مختلف استعمالات اللغة.كما أنّ الأفعال تتضمن الطابع النفعي الذي يقصد من ورائه التواصل بغية تحقيق فائدة عامة، وهذا الاتصال بين النبي –صلى الله عليه وسلم– والناس يؤدي إلى تواصل رباني حتى يبقى العبد في دائرة الاهتمام ويسلك الصراط المستقيم.

والحديث القدسي صادر عن الله فهو المنشئ له أولا، والرسول –صلى الله عليه وسلم–راوي له عن الله تعالى، فهو حديث نبوي ولكنه بوحي من الله تعالى، والخطاب في الحديث القدسي مبني على فعل الإقناع بواسطة أفعال الكلام المنجزة من خلال العبارات المتضمنة للذكر والدعاء، فتحقق الآثار والنتائج لأن التوقيع فيها هو إقناع الآخر من أجل الحوار والتواصل.

وما تضمنته السنة النبوية من أحاديث نبوية و أحاديث قدسية هو الوجه العملي لما ورد في القرآن الكريم، و رأينا أن الكلام الوارد في الأحاديث القدسية، باب الذكر والدعاء يتضمن قوة أفعال الكلام Actes de parole، التي من شأنها أن تكون الوسيلة للتأثير في العالم وتغيير السلوك الإنساني من خلال مطابقة الكلام لحال السامعين، والمعاني المستفادة منه ليتخذها المتلقي مشعلا ينير دربه في متاهات الحياة.

ولاحظت وجود قواعد جمالية من مميزاتها ألا يفرض المتكلم نفسه على المخاطب ومن ثم يسهم في نجاح التخاطب.

كذلك تنوع الأصناف، من تقريريات ووعديات وأمريات وبوحيات، وغياب الإيقاعيات لأن المقام في الأحاديث القدسية غير مناسب لها، توافر التقريريات التي تقوم على القاعدة الإخبارية لأن النبي –صلى الله عله وسلم– يسعى إلى إفهام الناس، وتوضيح المسلك المؤدي إلى صراط الله المستقيم،وأما الأمريات فهي توجيه المتلقين، فيها أمر ونهي حيث يجعل مضمونها متقبلا لدى المخاطب، فهي تحمل له الموعظة والإصلاح بأسلوب مقنع بعيد عن الإكراه

والتكلف، كذلك احتوت الوعديات والبوحيات كل الدلالات التي تحفز المخاطبين على الأفعال النافعة.

وتصنيف الأحاديث القدسية ضمن تصنيفات سيرل أظهر ثراءها المتميز وفعاليتها المؤثرة في العملية التواصلية، فيشكل تنوع الفعل اللغوي في الأحاديث القدسية اللبنة الأساسية في حقل اللسانيات التداولية حيث اتسم بإيقاع الحدث وحركيته وحيويته، وامتاز باب الذكر والدعاء في هذه الأحاديث بخصوصيته الإنسانية، وارتباطه بنفسية المتلقي مما يجعله أكثر استعمالا وأوسع تداولا.

قائمـة المصادر والمراجـع

المصادر و المراجـع

–القرآن الكريم،برواية ورش، عن الإمام نافع، موفم للنشر والتوزيع الجزائر،2003.

أولا : المصادر

01 – البخاري (أبو عبد الله محمد بن اسماعيل) ، صحيح البخاري ، ضبطه مصطفى ديب البغا ، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة (د ط) ،1992 .

02 – الشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونة، الأحاديث القدسية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى،2001 .

ثانيا : المراجع العربية

03 – إبراهيم مصطفى إبراهيم، نقد المذاهب المعاصرة، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الإسكندرية، الطبعة الأولى،2000.

04 – أحمد حسن صبره وسعد سليمان حمودة، التفكير الاستعاري والدراسات البلاغية، دار المعارف الجامعية،الاسكندرية، الطبعة الثانية 2000.

05 – أحمد عبد الجواد، الدعاء المستجاب، مكتبة المجلد العربي،القاهرة، (د ط) ،(د ت) .

06 – أحمد المتوكل ، الوظائف التداولية في اللغة العربية ،دار الثقافة ، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1985.

07 – أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2002.

08 – البغدادي (أبو بكر محمد بن سهل بن سراج النحوي) ،الأصول في النحو، تحقيق عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة بيروت،الطبعة الثالثة ،1988 .

09 – تمام حسان، الأصول،دراسة ابستمولوجية للفكر اللغوي عند

العرب، عالم الكتب، القاهرة،(د ط) ،2000.

10 - جميل عبد المجيد، البلاغة والاتصال، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ، الطبعة الأولى ،2000 .

11 - الجاحظ (أبو عثمان عمرو بن بحر) البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام محمد هارون، مكتبة الجاحظ بمصر، الجزء الأول، الطبعة الرابعة،1975 .

12 - الأحاديث القدسية، أعدته لجنة القرآن والحديث، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ،القاهرة ،مصر (د ط) ،(د ت).

13 - حسن محمد الكحلاني، فلسفة التقدم، دراسة في اتجاهات التقدم والقوى الفاعلة في التاريخ، مكتبة مدبولي،(د ط)،2003 .

14 - أبو الحسن نور الدين القاري، الأربعون القدسية، تحقيق طارق الطنطاوي دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، (د ط) ،(د ت)

15 - الرازي (فخر الدين محمد بن عمر الرازي)، نهاية الإيجاز في دراسة الإعجاز، تحقيق بكري شيخ أمين،دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى، 1985 .

16 -الزركشي (بدر الدين محمد بن عبد الله)، البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت،الطبعة الثالثة ،1980 .

17 - زكريا عميرات، الأحاديث القدسية الصحيحة،دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى،1997 .

18 - سعيد حسن بحيري، علم لغة النص ، المفاهيم و الاتجاهات ، الشركة المصرية العالمية للنشر ،لونجمان ،ط1 ،1997 .

19 - السكاكي (أبو يعقوب يوسف)، مفتاح العلوم ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر، الطبعة الأولى ،1937 .

20 - سيبويه (أبو بشرعمرو بن عثمان بن قنبر)، الكتاب، تحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون، دار الكتب العلمية ، بيروت،لبنان، الطبعة الثالثة ،1988 .

21 - جلال الدين السيوطي، الإتقان في علوم القرآن ، المطبعة الأزهرية مصر ، الطبعة الأولى ،1979 .

22 ـــ،معترك الأقران في إعجاز القرآن،حققه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ،1988 .

23 - ديوان الإمام الشافعي، دار الكتاب الحديث للطباعة والنشر، الطبعة الأولى،2002.

24 - شاهر الحسن، علم الدلالة السيمانتيكية والبراجماتية في اللغة العربية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، 2001 .

25 - صالح بلعيد، النحو الوظيفي،ديوان المطبوعات الجامعية،الجزائر، (د ط)،1994 .

26 - صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2000.

27 - صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، الطبعة الأولى،1996 .

28 - طالب سيد هاشم الطبطبائي، نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين والبلاغيين العرب،منشورات جامعة الكويت ،1994.

29 - طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الثانية،(د ت).

30 - ــ، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1998.

31 - ــ، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي،

الدار البيضاء، الطبعة الثانية،2000 .

32 - عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة،(د ط)، 1963 .

33 - عبد السلام هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، مكتبة الخانجي، مصر، (د ط)،1979 .

34 -عبد المجيد جحفة، مدخل إلى الدلالة الحديثة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2000.

35 - العقاد (عباس محمود)، عبقرية محمد (صلى الله عليه وسلم)،دار الكتب المصرية، (د ط)،1969

36 - عصام الدين الصبابطي، صحيح الأحاديث القدسية، دار الحديث، الطبعة الرابعة،1994 .

37 - عطيات أبو السعود، الحصاد الفلسفي للقرن العشرين، شركة الجلال للطباعة الاسكندرية، الطبعة الأولى،2002 .

38 - علي عزت، الاتجاهات الحديثة في علم الأساليب وتحليل الخطاب، شركة أبو الهول للنشر، الطبعة الأولى، 1996 .

39 - فاطمة الطبال بركة، النظرية الألسنية عند رومان جكبسون، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة الأولى،1993 .

40 - فتحي عبد الفتاح الدجني، الإعجاز النحوي في القرآن الكريم، مكتب الفلاح، الكويت، الطبعة الأولى،1984 .

41 - قاموس المصطلحات اللغوية والأدبية ، عربي –إنجليزي- فرنسي- تأليف إميل يعقوب وبسام بركة، ومي شيخاني، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الأولى،1987 .

42 - القزويني (جلال الدين بن عبد الرحمن)، التلخيص في علوم

البلاغة، حققه وشرحه عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت اللبناني،الطبعة الأولى ،1997 .

43 - قطبي الطاهر، بحوث في اللغة، الاستفهام البلاغي،ديوان المطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، 1994.

44 -كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، مكتبة النهضة، الطبعة الثالثة،2001.

45 -ابن مالك،تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد،حققه وقدم له محمد كامل بركات،دارالكتاب العربي للطباعة والنشر،القاهرة مصر،(د ط)،1968

46 - المبرد (أبو العباس محمد بن يزيد)، المقتضب، تحقيق محمد بن عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب ،بيروت، (د ط)، (د ت) .

47 - محمد بن سعد الدبل، الخصائص الفنية في الأدب النبوي، مكتبة العبيكات ، الطبعة الثانية، 1997 .

48 - محمد خطابي، لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب ، المركز الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى،1991 .

49 - محمد مفتاح، تحليل الخطاب الشعري،(استراتيجية التناص)، دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت،(د ط) ، (د ت) .

50 -محمد مهران رشوان، مدخل إلى الفلسفة المعاصرة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الثانية، 1984 .

51 - محمود أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 2002.

52 - محمود سليمان ياقوت، منهج البحث اللغوي، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى، 2000 .

53 – مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الخامسة، 1999 .

54 – معجم المصطلحات التربوية، إنجليزي –عربي مشيل تكلا جرجس، ورمزي كامل حنّا، مراجعة يوسف خليل يوسف، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى ،1998 .

55 – مهدي المخزومي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، منشورات المكتبة العصرية، الطبعة الأولى،1964 .

56 – ابن منظور (أبو الفضل جمال الدين بن محرم)، لسان العرب،دار صادر للطباعة والنشر، بيروت،الطبعة الأولى ،1997 .

57 – ميجان الرويلي و سعد البازعي ،دليل الناقد الأدبي ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، الطبعة الثالثة ،2002 .

58 – نصر حامد أبو زيد، إشكالية القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء،الطبعة السادسة،2001 .

59 – ابن هشام الأنصاري(جمال الدين بن عبد الله بن يوسف بن أحمد)، أوضح المسالك إلى ألفية بن مالك، قدم له : إيميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية بيروت ،الطبعة الأولى ،1997 .

60 – أبو هلال العسكري(الحسن بن عبد الله بن سهل)، كتاب الصناعتين، حققه مفيد قميحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ،لبنان، الطبعة الثانية ،1989 .

61 – ابن يعيش (موفق الدين أبو البقاء بن علي)، شرح المفصل للزمخشري،قدم له إيميل بديع يعقوب،دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الأولى ،2001 .

ثالثا : المراجع المترجمة

62 آن روبول، جاك موشلار، التداولية اليوم، علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003 .

63 – الجيلالي دلاش، مدخل إلى اللسانيات التداولية، ترجمة: محمد يحياتن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،(د ط) ،1992 .

64 – ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ترجمة: كمال بشر ، دار غريب للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعة 12، 1997 .

65 –فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، ترجمة: سعيد علوش، مركز الانتماء القومي، بيروت، ط1،1986 .

رابعا : المقالات و المجلات

66 –آمنة بلعلى، الإقناع، المنهج الأمثل للتواصل والحوار نماذج من القرآن والحديث، مجلة التراث العربي، دمشق، العدد 89،مارس 2003 .

67 – بشير إبرير، سمات التداول في الخطاب السياسي، خطاب الرئيس بوتفليقة، بمناسبة جائزة البابطين الثقافية نموذجا، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، العدد 10،2004 .

68 – جان سيرفوني، الملفوظية، ترجمة: قاسم المقداد، مركز تنسيق التعريب الرباط، المغرب، 1998 .

69 – لحسن توبي ، التعريف المصطلحاتي في بعض المعاجم العربية، مجلة اللسان العربي، العدد 46 ،1999.

70 – مازن الوعر، نظرية تحليل الخطاب واستقلالية نحو الجملة، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب، دمشق، العدد 385، 2003 .

71 - محمد العبد، النص الحجاجي العربي، دراسة في وسائل الإقناع، مجلة فصول، العدد 60، 2002 .

72 - معمر حجيج، التداولية بين اللسانيات والدراسات الأدبية مجلة الأثر، جامعة ورقلة، العدد02 ،2003.

خامسا:المواقع على الأنترنيت

73 - جون أوستين وجون سيرل، أفعال الكلام، ترجمة: منصور العجالي،http://www.alimbaratur.com .

74 - حسن مصطفى سحلول، نظريات القراءة والتأويل الأدبي وقضاياه،http://www.awu.dam.org.

75 - حسن يوسفي، المسرح ومفارقاتهhttp://www.awu.dam.org.

76 - رشيد بلحبيب، أثر العناصر غير اللغوية في صياغة المعنى، http://www.awu.dam.org .

77 - عبد الجليل منقور، النظريات الدلالية الحديثة، http://www.awu.dam.org

78 - عدنان بن ذريل، في البلاغة الجديدة، http://www.awu.dam.org

79 - لحسن توبي ، العائدة الخطابية ، مقاربة تداولية ، http://www.aralization.org.com.

سادسا: الرسائل الجامعية

80 - راضية بوبكري، الأحاديث النبوية في ضوء اللسانيات التداولية، الأربعون النووية نموذجا،رسالة ماجستير،جامعة عنابة لسنة 2001-2002.

81 - مسعود صحراوي ، الأفعال المتضمنة في القول، بين الفكر المعاصر والتراث العربي، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة لسنة2003-2004 .

سادسا: المراجع الأجنبية

- Austin (John .Langshaw), Quand dire c'est faire, Trad: Française de:Gilles Lan – Editions du Seuil,1970 82

- C.Rystal .David,The Cambridge Encyclopedia of Language , Cambridge , University ,Press,1989 83

- Levvinson (Stephen-C) ,Pragmatics, Combridge University ,Press,1983 . 84

- Petit la Rousse, Librairie, La Rousse, Paris –Edition, 1980. 85

مقدمـة

لعل من نافلة القول التأكيد على أن اللغة من أبرز المظاهر لدى البشرية، فهي واحدة من أهم وسائل الاتصال والتواصل بين الناس، لذلك تزداد حاجتنا لفهم اللغة التي نمارسها يوميا ، فنسعى للإلمام بها والتعرف على خصائصها وإمكاناتها، ومن ثمّ حظيت اللغة بنصيب وافر من الاهتمام والدراسة منذ عشرات القرون، وظهرت مدارس عديدة عبر هذه الفترات الزمنية، ولكن الثورة التي شهدها التفكير اللغوي المعاصر كان على يد العالم السويسري فردنان دي سوسير Ferdinand de Saussure، الذي أرسى " اللسانيات "، وتضمن موضوعها دراسة اللسان Langue وهو الجانب الأساسي في اللغة Langage على اعتبار أنه منظومة من العلامات والقواعد، وهو كنز جماعي موجود في الدماغ، ذو وظيفة اجتماعية مستقلة عن الأفراد، فالجانب الثانوي هو الكلام Parole المتعلق بالأفراد ويراه دي سوسير غير جدير بالاهتمام وتؤجل دراسته.

وكان من أهداف اللسانيات المعاصرة بناء نظرية عامة للقواعد حيث تسمح بوصف كل اللغات الإنسانية دون استثناء، كون اللغة مجموعة من القوانين يجمعها نظام واحد.

واستمر البحث في اللسانيات نحو التألق والازدهار بفضل جهود مجموعة من كبار علماء اللغة على سبيل المثال لا الحصر: بلومفيلد Bloomfield ورومان جاكبسون Roman Jakobson و أندريه مارتيني André Martinet ، وتشومسكي Chomsky...وغيرهم، وشهدت اللسانيات على أيديهم تحولا جذريا في مسارها خاصة اتصال المشتغلين باللغة ببعض العلوم الإنسانية كعلم الاجتماع وعلم النفس والفلسفة، فأدى هذا الاتصال إلى ظهور فروع جديدة للسانيات مثل اللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات التداولية .

فبرزت اللسانيات التداولية في الساحة الأمريكية كرد فعل على اللسانيات الوصفية، التي أقصت من دراستها الجانب الحي في اللغة وهو الاستعمال المتمثل في الكلام .

فالتداولية Pragmatique هي نتاج تيارات لسانية وفلسفية، ويعود الفضل في ظهورها إلى أعمال فلاسفة اللغة التحليليين بصفة عامة وإلى الفيلسوف البريطاني جون أوستينJohn Austin بصفة خاصة، عندما ألقى محاضراته في جامعة " هارفارد" ضمن برنامج " محاضرات وليام جيمس"، وكان هدفه في بادئ الأمر هو تأسيس اختصاص فلسفي جديد في فلسفة اللغة، فرأى أن وظيفة اللغة لا تنحصر في أن تنقل خبرا أو تصف واقعة أو توصل معلومة إلى المتلقي، وإنما في اللغة أفعال تنجز أو تحقق ما تحمله من المعاني بمجرد النطق بها، ولاحظ أن الكلام في اللغة يهدف دائما إلى التأثير في الآخر وإلى تحقيق غاية معينة، وأنّ المحادثة التي تتم بين المرسل والمرسل إليه فتداوليتها هي التأثير والتأثر، والكلام لا يعبر عن شيء فقط وإنما يفعل أيضا، فالكلام فعل .

وبهذا المنطق ندرس اللغة على أساس استعمالنا لها، ونبعدها عن تلك البدايات التي عبرت عنها بلغة رياضية صارمة.

فآثرت أن تكون اللسانيات التداولية هي الجانب التطبيقي في هذا البحث، حيث يكون تحليل اللغة إجرائيا يوصلني إلى فهم ما يحيط بي، نائية عن كل تحليل ميتافيزيقي تجريدي ، واخترت الأحاديث القدسية لتكون مناط هذا التطبيق التداولي، فاستفدت من النظريات اللسانية الحديثة في دراسة جانب من النصوص المقدسة الذي لم ينل حظه من الاهتمام في المكتبة العربية، لأن الدراسات التي حظي بها الحديث القدسي كانت مقتصرة على مجال التربويات والإرشاديات، أما جانبه اللغوي في إعرابه ونحوه ودلالته وألفاظه وتراكيبه ونظام جمله فإنها لم تشغل العلماء وربما يرجع سبب ذلك إلى تركيز اهتمامهم على دراسة الحديث النبوي الشريف لإجلاء معنى النص القرآني، لما يتضمن من علوم فقهية وأحكام شرعية .

فحصرت بحثي في باب منها فقط، وهو " الذكر والدعاء " لما يحمله من سمات التداول في بعدها التبليغي المتضمن لعناصر التواصل في أرقى تجلياته .

فلا أكتفي بمعرفة دلالتها ومقاصدها التبليغية فحسب وإنما أنظر إليها من ناحية أغراضها التواصلية التي تهدف إلى التأثير في المتلقي فترشده إلى فعلٍ أو تركٍ.

ومن المسوغات التي دعتني إلى اختيار هذا الموضوع هو تميز اللسانيات التداولية عن غيرها من الدراسات بالبعد الإجرائي والتطبيق العملي والتأثر والتفاعل الحسي بين المتخاطبين لتحقيق الفائدة والنهوض بالفكر الإنساني وتوجيهه إلى إرساء قواعد حضارية متينة لا تزول بزوال الأفراد ولا تكون مرتكزاتها منفعة آنية تنهار بمجرد سقوط الفكرة .

فأدرجت هذه العينة من الأحاديث القدسية في منظور اللسانيات التداولية وحاولت تتبع تفاعلاتها المختلفة، محاولة أن أجيب عن الإشكالات المطروحة:

- ما طبيعة التداولية ؟ وما أهدافها ؟ وكيف نشأت ؟
- من هم منظروها الأوائل ؟ وما موضوعها ؟
- هل لها جذور في تراثنا العربي العريق ؟
- كيف يمكن تحليل النصوص من منظورها ؟ ما خصائصها في الحديث القدسي ؟ وغير ذلك من الأسئلة التي دفعتني إلى أن أنجز هذه المذكرة الموسومة بـ: الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية .

فقسمت العمل إلى مدخل وثلاثة فصول؛ فصل نظري، وفصلين تطبيقيين.

في المدخل حاولت أن أقدم تعريفا موجزا اشتمل الجانب اللغوي والاصطلاحي لكل من الحديث القدسي واللسانيات التداولية .

أما الفصل الأول فكان الهدف منه هو البحث عن الجذور الأولى للتداولية في الفكر الفلسفي، واستجلاء معانيها عند منظريها الأوائل: بيرس Peirceوجيمس James، ثم الكشف عن معاني " مصطلح التداولية " الذي شاع في الدراسات المختلفة؛ فلسفية ولسانية وأسلوبية ومعرفية وبلاغية ونقدية بوصفه ترجمة للمصطلح الأجنبي Pragmatique

وتعزى قضية تحديد التداولية بكونها حقلا لدراسة اللغة إلى تشارلز موريس Charles Moris الذي كان له اهتمام بعلم الرموز اللغوية من ثلاثة

جوانب؛ الجانب النحوي والجانب الدلالي والجانب التداولي إلا أن التقدم الحاسم لهذا المنهج يعود إلى فلاسفة اللغة: أوستينAustin وسيرلSearle وغرايسGrice الذين اقتربوا من تحديد مجالها في جعلها دراسة للكيفيات التي تجعل الخطاب ناجحا، وتوفر الشروط اللازمة لاستمراره، بالاستناد إلى العديد من الإشارات وتحديدها لأنها تمثل العنصر الفعّال في الخطاب لتفسيره واكتشاف نظام تواصله، كالإشارات الشخصية والزمانية والمكانية والاجتماعية والنصية، والافتراض المسبق والاستلزام الحواري و أفعال الكلام، وما تتفرع عنها من عناصر ثانوية تسهم في تفعيل عملية التواصل، وذكرت قضية الحجاج لأهميته البالغة ودوره في إقناع المتلقين، كما أشرت إلى بعض ملامح التداولية في التراث العربي .

أما في الفصل الثاني فقمت بدراسة الأحاديث القدسية دراسة تحليلية تداولية وفق تصنيفات سيرل Searle الخمسة للفعل الكلامي؛ تقريريات ووعديات وأمريات، وإيقاعيات وبوحيات، وتضمنت الأحاديث أربعة أصناف لأن هذا التصنيف –حسب رأي سيرل– يقوم على منهج واضح محدد المعالم، وقد توصل إليه بعد خبرة وتجربة استغرقت سنوات من العمل .

ولاحظت أن " الذكر والدعاء " في الأحاديث القدسية قد خلا من صنف الإيقاعيات لطبيعة مادته النصية .

أما الفصل الثالث فقد خصصته لدراسة الفعل الإنجازي في الأحاديث القدسية، باعتباره أساس النظرية التداولية، لأنه يجسد الجانب الإجرائي في كل حديث، ثم عمدت إلى استخراج كل الإشارات التي تدعم قوة الفعل، وبينت غرضها .

وسار هذا التحليل وفق المنهج التداولي الذي أضاء لي بعض المسالك كنت أتلهف للكشف عن خفاياها وسبر مكنوناتها، ودفعني حرصي العملي أن أعرف كيف يمكن أن يكون الكلام عمليا ونافعا، وما الوسائل المحققة لذلك، فبدأت أقلب بصري في رفوف بعض المكتبات، فلم أجد ما يغنيني إلى أن اهتديت –بفضل الله وفضل أستاذي المشرف– إلى هذا البحث عسى أن أكون قد أمسكت بطرف البداية ولا أزعم غير ذلك.

أما مصادر البحث ومراجعه فقد لجأت إلى المصدر الأساسي وهو مدونة البحث " الأحاديث القدسية، للشيخ عبد القادر عرفات العشا حسونة" واعتمدت تحليل باب " الذكر والدعاء " .

أما بقية المراجع فهي متنوعة، منها مراجع عربية تراثية، كالكتاب لسيبويه و البيان والتبين للجاحظ، وكتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري، ومفتاح العلوم للسكاكي، ومراجع عربية حديثة: كنقد المذاهب المعاصرة لإبراهيم مصطفى، ومنهج البحث اللغوي لمحمود سليمان ياقوت ، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر لمحمود أحمد نحلة، وبلاغة الخطاب وعلم النص لصلاح فضل، والوظائف التداولية لأحمد المتوكل، وتجديد المنهج في تقويم التراث لطه عبد الرحمن...

ومراجع مترجمة كالمقاربة التداولية لفرانسواز أرمينكو، والتداولية اليوم لـ: آن روبول و جاك موشلار، والملفوظية لـ: جان سيرفوني، ومدخل إلى اللسانيات التداولية للجيلالي دلاش .

بالإضافة إلى بعض المراجع الأجنبية فرنسية وإنجليزية، والمجلات والدوريات وبعض الإصدارات العربية ومواقع عبر الانترنيت.

كما استفدت من بعض الرسائل الجامعية التي سبقت بحثي :

أولاها: رسالة ماجستير موسومة بـ: الأحاديث النبوية في ضوء اللسانيات التداولية، –الأربعون النووية أنموذجا – من جامعة عنابة لـ: راضية بوبكري

وثانيها: أطروحة دكتوراه في اللسانيات موسومة بـ: الأفعال المتضمنة في القول بين الفكر المعاصر والتراث العربي، جامعة باتنة لـ: مسعود صحراوي.

ولا يخلو أي بحث من صعوبات تعترض مسيرته، من أبرزها ندرة المراجع المتخصصة في اللسانيات التداولية ربما لحداثة الموضوع وانعدام الدراسات التطبيقية، إلا أنني لم أدخر جهدا من أجل توفير ما يمكن أن يفي بالغرض المطلوب.

« وصدق العماد الأصفهاني الذي وصف ما قمت به قائلا: ...إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا و قال في غده: لو غير هذا لكان أفضل، ولو

ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ... »[1]

وأقرّ أن عملي هذا لم يستوف كل أصول النظرية التداولية لما لها من زخم كبير من الأفكار والاتجاهات، ولكل عمل نقص، ومازال الموضوع غنيا بالبحث وأهيب بكل من يوجهني إلى موطن الزلل.

ولا يسعني في ختام هذا القول إلا أن أرفع تقديري واحترامي إلى كل أساتذتي الذين أسهموا في نجاحي، وكل امتناني و شكري لأستاذي المشرف الدكتور: بشير إبرير، الذي دعم مسيرة بحثي بإرشاداته وتوجيهاته .

وأحسب عملي هذا في ميزان حسنات كل من مد لي يد العون والمساعدة.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

1- كريم حسام الدين ، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة ،مكتبة النهضة المصرية ،الطبعة الثالثة 2001 ،ص ز.

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد خيضر بسكرة
كلية الآداب و العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الأدب العربي

الأحاديث القدسية
من منظور اللسانيات التداولية

باب الذكر و الدعاء –أنموذجا-

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في علوم اللسان

إعداد الطالبة : إشراف الأستاذ:

حورية رزقي **الدكتور بشير إبرير**

أعضاء لجنة المناقشة

الرقم	اللقب و الاسم	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	خان محمد	أستاذ التعليم العالي	بسكرة	رئيسا
02	إبرير بشير	أستاذ محاضر	عنابة	مشرفا و مقررا
03	دفة بلقاسم	أستاذ محاضر	بسكرة	عضوا مناقشا
04	بلعرج بلقاسم	أستاذ محاضر	قالمة	عضوا مناقشا

السنة الجامعية 1426-1427هـ 2005-2006 م


بسم الله الرحمن الرحيم

خاتمـــة

خاتمـة

وفي الختام أذكر أهم النتائج التي تمخض عنها هذا البحث :

– ظهرت التداولية عند الفلاسفة اليونان كطريقة في التفكير، وهي اليوم دراسة تهتم بالعلاقة القائمة بين المتلقين لتحقيق التواصل عن طريق الأفعال الكلامية مع مراعاة كل شروط نجاحها .

– ما توصل إليه الفيلسوف " أوستين " له أهمية في اللسانيات كون وظيفة اللغة هي التأثير في مستعمليها ولم يقتصر أداؤها على نقل الأخبار أو وصفها فحسب بل إذا نطق بها المتكلم ينجز فعلا ولذلك ميز بين نوعين من الأفعال: أفعال إخبارية، وأفعال أدائية .

– اهتم الفيلسوف الأمريكي " سيرل " بالفعل الكلامي، وقضى سنوات طويلة في البحث حتى توصل إلى وضع تصنيفات جديدة خالف فيها تصنيفات أستاذه أوستين، بحيث لا يكون للفعل قوة إلا إذا توفر المحتوى القضوى، واتجاه المطابقة وشرط الإخلاص .

– الغرض من الفعل الإنجازي في أفعال الكلام هو التزام المتكلم اتجاه المستمع بأداء عمل ما، أما اتجاه المطابقة هو أن يطابق السلوك لاحقا ما تم التعبير عنه سابقا، فإن وعدت بأن أسافر معك، فلا بد أن يتحقق الفعل وهو السفر ليطابق لفظ الوعد، والمسؤول في ذلك هو المتكلم .

– ويرتبط الفعل الإنجازي بمقصد المتكلم ويؤول هذا إلى قول الرسول – صلى الله عليه وسلم –: « إنما الأعمال بالنيات »

– يعد الاستلزام الحواري من أهم النظريات في الدرس التداولي بحث فيه الفيلسوف الأمريكي " غرايس " وقدم تصوره لهذا الجانب والأسس المنهجية التي يقوم عليها فكان له تأثيره في تطور البحث التداولي

– من العوامل التي لها دور هام في اللسانيات التداولية ولا يتحقق نجاح الفعل اللغوي إلا بحضورها هي: المتكلم والمستمع والقصد والسياق والمقام والزمان والمكان وكل الظروف المحيطة بالفعل، كما نجد للحجاج وظيفة إقناعية يستهدف

جمهور المستقبلين لإقناعهم برأي معين، أو وجهة نظر ما، أو دفعه لعمل شيء ما.

والسياق هو تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة، ويتحدد من خلالها المعنى المقصود.

- توفر هذه العوامل في باب " الذكر والدعاء " من الأحاديث القدسية ،اقتضت مجالا خصبا لتطبيق اللسانيات التداولية لعلاقتها الوطيدة بالحياة اليومية للفرد، فهي تمثل جانبا هاما في سلوكه لتوجيهه إلى ما هو أفضل .

- لاحظت أن الأفعال المنجزة في هذه الأحاديث هي أعمال أنجزت بأقوال، تضمنت قوة إنجازية، ومن أمثلتها: الوعد والأمر، والاستجابة والتأكيد،والترغيب و الترهيب، وذلك حسب سياقات ومقاصد كل حديث .

ترتبت عن قوة الفعل الإنجازي آثار يقصدها مرسل الخطاب ليحدث تغييرا في المشاعر والأفكار، وتمثل كما رأينا في الإقناع والإرشاد والنصح والهداية والتعليم والتوجيه والتقرير وغيرها، وهذا ما سماه " أوستين " الفعل الناتج عن القول Acte Perlocutoire .فالتداول تواصل وتفاعل وقول موصول بالفعل.

- توفر الإشاريات التداولية وتضافرها أعطت للفعل قوة إنجازية عالية، كالتوكيد والشرط و النداء والحال والتحضيض و القسم ...ولا تتحقق دلالتها اللغوية إلا في إطار فعل كلامي .

- جاءت كل الأصناف التي أدرج ضمنها الفعل الإنجازي في هذه العينة من الأحاديث القدسية مطابقة لشرط الصراحة Condition de Sincérité ، وقد رأينا ذلك في التقريريات والوعديات والبوحيات والأمريات، فكلها صريحة لأنها صادرة عن ذات صادقة، مستمدة أحكامها من الحقّ، وهذا يدعم مصداقية الفعل ويجعل المتلقي يعتقد في محتواه القضوي.

- نجاح الأفعال الإنجازية لتوفر القرائن الحالية المتمثلة في العناصر الخارجية عن النص، والتي تجعل المقام منسجما مع المقال، ومثال على ذلك: في الحديث الخامس والعشرين، عندما قالت قريش للنبي –صلى الله عليه وسلم-: " ادع لنا ربّك أن يجعل لنا الصفا ذهبا"، فالقرينة هي وجود جبل يسمى " الصفا"، وهو موجود في مكة المكرمة، وهناك رسول مبعوث لهداية الناس وهكذا ...

- سمة الإيجاز في الأفعال الإنجازية الواردة في الأحاديث القدسية، وهي سمة تتفق ومهمة التبليغ والتعليم التي تكفل بها الرسول -صلى الله عليه وسلم -في مجتمع كانت تغلب عليه الأمية، حيث جاءت تعاليمه للناس جديدة ومثيرة .

- التفصيل في القول، وكثرة الإشارات وعبارات التنبيه وتكرار الكلام واستخدام أساليب التوكيد وهذا لإيضاح المعنى وإبلاغه إلى كافة الناس، وكان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا لإثارة انتباه المتلقين وإدراك أهمية ما يقال.

- جُلُّ الأفعال الإنجازية بينة فصيحة، ألفاظها متداولة بين الناس معروفة وبعضها مستمد من القرآن الكريم، وقد يشعر المؤمن وهو يقرأ أحاديث الأذكار والدعاء أنه في عالم من الطهر والإخلاص ملؤه الجلال والخشوع يحس فيه بسعة الحرية في ظلال العبودية التامة لله وحده .

- وحسبنا قول الله تعالى: ﴿ **فَاذكُرُونِي أُذكُرُكُم** ﴾[1]

وقال: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُم ادعُونِي أَستَجِبُ لَكُم** ﴾[2]

1- سورة البقرة ، الآية 152 .

2- سورة غافر ، الآية 60 .

فهرس الموضوعات

مدخـــل

تعريف الأحاديث القدسية واللسانيات التداولية لغة واصطلاحا.

مدخل:

أخذت الشريعة الإسلامية أحكامها من القرآن الكريم، فهو الكتاب الذي يدين به المسلمون، وقد حدد كل ما يتصل بحياتهم، وتضمن التشريعات والأحكام وبين الحقوق والواجبات وكل ما ينفع الناس في معاشهم ومعادهم، ووردت هذه الأحكام في كتاب الإسلام مجملة، وقضت حكمة الله تبارك وتعالى أن تأتي السنة الشريفة فتأخذ من هذا النبع الفياض لتبسطه أمام الناس بالشرح والتفصيل والتيسير، فانبرى الرسول – صلى الله عليه وسلم – طوال حياته الكريمة في تفسير آيات الذكر الحكيم، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا ذكر لها حكما، وبين لها معنى.

﴿ **وَمَا يَنطقُ عَن الهَوَى إن هُوَ إلاَّ وَحيٌ يُوحَى** ﴾[1]

ولا شك في أن المصدر الأول لجميع الأحكام هو القرآن الكريم، أما المصدر الثاني فهو سنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من فعل أو قول أو تقرير. ومن لطائف السنة النبوية أن تجاورها الأحاديث القدسية التي هي مناط بحثي، فتناولت منها باب الذكر والدعاء من منظور اللسانيات التداولية، متوسمة البعد التداولي الذي يميزها،وقبل الخوض في التحليل والدراسة وإبراز خصائصها ارتأيت أن أستجلي مفهومها العام والخاص وأبين الفرق بينها وبين القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف ثم أذكر أهم مصنفاتها.

فما الحديث القدسي ؟

الحديث لغة: ضد القديم، والحديث هو الجديد والخبر وجاء في لسان العرب:

حَدَثَ: حَدَثَ أَمرٌ: وَقَعَ.

الحَدِيثُ: الخَبَرُ يأتي على القليل والكثير، والجمع أَحَادِيثٌ، تَقْطِيعٌ وأَقَاطِيعٌ وهو شاذ على غير قياس.ومصدر حَدَثَ إنما هو التَّحْدِيثُ، فأما الحَدِيثُ فليس بمصدر و قوله تعالى: ﴿ **وَأَمَّا بنعمَـة رَبّكَ فَحَدّث** ﴾[2]، أي بلغ ما أرسلت به، وحَدِّثْ بالنبوة التي أتاك الله، وهي من أجل النعم.

أما الحَدِيثُ في اصطلاح المحدِّثين، فهو ما أضيف إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقِيَّة أو خَلْقِيَّة .

1- سورة النجم،الآية 3، 4.

2- سورة الضحى، الاية11.

أما قُدُسِيٌ فوردت في لسان العرب:

قَدَسَ: التَّقْدِيسُ: تنزيه الله – عز وجل – ، وفي التهذيب: القُدُس تنزيه الله تعالى وهو المُقَدِّسُ القُدُوسُ المُقَدَّسُ، ويقال: القَدُّوسُ فَعُّولٌ من القُدْسِ، وهو الطهارة. القُدُّوسُ:هو الطاهر المنزه عن العيوب والنقائص وفُعُّولٌ بالضم من أبنية المبالغة وقد تفتح القاف وليس بكثير.

وروح القُدُسِ:جبريل – عليه السلام –[1].

والحديث القدسي يقال له الحديث الإلهي، ويقال أيضا الحديث الرباني. "وهو كل ما رواه النبي – صلى الله عليه وسلم – عن ربه تبارك وتعالى على غير النسق القرآني ونظمه وإعجازه ولكنه في نظمه وأسلوبه الحديث النبوي أشبه"[2] .

أما كونه حديثا فلأن الرسول – صلى الله عليه وسلم– هو الحاكي له عن الله تعالى لذلك يعد في جملة السنة النبوية، وله صيغ متعددة يعرف بها أشهرها:

– قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه....

– قال النبي – صلى الله عليه وسلم – قال الله....

– أو يقول الله...

– أو قال ربكم...

– أو يقول ربكم...

– أو أوحى الله...

وما أشبه ذلك من الصيغ التي تسند القول للرّب سبحانه وتعالى عن طريق إسناد القول – أو ما يؤدي معناه – إسنادا صريحا إليه.[3]

<u>مظانـه:</u>

الحديث القدسي مثبت في مدونات السنة، ومصنفاتها المختلفة،وقد قام بعض العلماء بجمع طرف منها كل بحسب ما تيسر له في كتب مستقلة.

<u>طريقة نقله:</u>

1- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت الطبعة الأولى 1997المجلد الخامس ص 211.

2- عصام الدين الصبابطي ، صحيح الأحاديث القدسية ،دار الحديث،الطبعة الرابعة ،1994 ،ص 09 .

3- المرجع نفسه ص9

هو منقول في جملته بطريق الآحاد كبعض الأحاديث النبوية،و منه المتواتر إلا أنه قليل بالنسبة إلى غيره، ولذا فإنه يطرأ عليه ما يطرأ عليها من صحة وحسن وضعف ووضع.

ولإقبال العامة عليه كان مجالا لاختلاف الوضاعين.[1]

موضوعه:

إن المتتبع للأحاديث القدسية، والمتمعن في معانيها يلاحظ بشكل واضح أنها لا تتطرق أبدا إلى الأحكام الفقهية أو التشريعية بالتفصيل، وإنما تأتي على ذكرها عرضا، ومعظم الأمور التي تعالجها ترتكز على التربية الإيمانية وتقويم النفس الإنسانية وتزكيتها وتحذيرها من المعاصي والمنكرات، والدعوة إلى الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق، والتعلق بحب الله وطلب رضاه والترغيب في الجنة، والترهيب من النار، والغرض توجيه وإرشاد ووعظ وتربية وتعليم، حيث تشعر وأنت أمام الحديث القدسي بكلام يشع بالفيض الروحي، مما يجعل له موقعا مميزا في السمع واستعدادا آسرا في النفس، وتأثيرا عظيما في العواطف والمشاعر والأحاسيس.[2]

الفرق بين الحديث القدسي والقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف:

اختلف العلماء في الحديث القدسي هل لفظه ومعناه من الله تعالى أو لفظه من النبي – صلى الله عليه وسلم – ومعناه بوحي من الله.

فذهب كثير من أهل العلم إلى أن لفظه ومعناه من الله تعالى، وأنه أوحي به إلى النبي– صلى الله عليه وسلم – بطريقة من طرق الوحي غير الجلي، إما بمكالمة أو إلهام أو قذف في الروع أو حال المنام.

وعلى هذا يكون الفرق بينهم على عدة وجوه:

– إنّ القرآن الكريم يتميز عن البقية بإعجازه من أوجه كثيرة، كونه معجزة باقية على مر الدهر، محفوظة من التغيير والتبديل، يحرم مسه لمحدث، ومتعبد بتلاوته، وأن كل حرف منه بعشر حسنات، وتسمية الجملة منه آية وسورة، منقول

1- المرجع السابق ص 10

2- ينظر الرجع نفسه ،ص10 .

إلينا عن النبي – صلى الله عليه وسلم – بطريق التواتر القطعي، ولا تجوز قراءته إلا بلفظه المتواتر.

– القرآن الكريم هو أصل الحق، ومادة الخير، ودستور الهداية في دين الله عز وجل، أرسى الله فيه دعائم الحق ومعاني التوحيد وأصول الإيمان وفرائض العبادات وقواعد الشريعة وأنواع الحلال والحرام وعموم أمور الدين.

– إن القرآن لا يطلق في الشرع إلا على الوحي المنزل على الرسول – صلى الله عليه وسلم – المسطور في المصاحف.

– أما الأحاديث القدسية موحى بها من الله بطريقة الوحي غير الجلي، فلا يثبت لها شيء مما سبق، فيجوز مسها لمحدث وروايتها بالمعنى، ولا تجزي في الصلاة بل تبطلها، ولا تسمى قرآنا، ولا يعطى قارئها بكل حرف عشرا، ولا تضاف إلى الله تعالى فيقال فيها: "قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يروى عن ربه تعالى...ولم تأت الأحاديث القدسية لبيان الشرائع، ولا في تفصيل الأحكام، وإنما هي دستور الأخلاق والفضائل وأساس التقويم والتربية، ومادة الحث والتوجيه إلى مرضاة الله تبارك وتعالى.

والحديث النبوي أيضا جزء من الوحي الإلهي، أوحى الله به إلى محمد – صلى الله عليه وسلم – ولكن بمعناه دون لفظه، تاركا للنبي – صلى الله عليه وسلم – أن يعبر عن المعنى الموحى به إليه بعبارة نفسه التي هي في بلاغتها وحسن بيانها أسمى وأجل درجات الكلام الذي يستطيعه البشر.[1]

وكون الحديث النبوي جزءا من الوحي الإلهي، فلأن ما حمّله –عليه السلام– من تفصيلات في العقائد والعبادات وأحكام الشرائع والمعاملات، وقواعد في الآداب والأخلاق وأخبار عن الجنة والنار والثواب والعقاب، وغير ذلك من دين الله عز وجل ، لا يأتي من ذات النبي – صلى الله عليه وسلم –

دون إذن من ربه، بل صدق قول الله تعالى – عز وجل – عن رسوله:﴿ **وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى** ﴾[1].

---

[1]- ينظر عصام الدين الصبابطي ، ص12 .

1- سورة النجم، الآية 3، 4.

وصدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما قال: " ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه " [2].

أما كون ألفاظ الحديث النبوي من عبارة النبي – صلى الله عليه وسلم – نفسه، ليست من الوحي فإنه لم يرفعها إلى الله عز وجل، ولم يقل في حديثه " قال الله تعالى " [3].

والحديث النبوي هو تفسير للقرآن الكريم، وتفصيل إجماله، وتوضيح مراده وبيان حدوده فهو من القرآن بمنزلة الشرح والتفصيل والبيان كما قال تبارك وتعالى:﴿ **وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[4]

وبهذا بينا الفرق بين القرآن والحديث القدسي والحديث النبوي.

أهم المصنفات في الحديث القدسي:

عني العلماء بجمع الأحاديث القدسية في مصنفات خاصة أهمها:

– في القرن السادس للهجرة، ألف: محي الدين بن العربي كتاب مشكاة الأنوار فيما روي عن الله من الأخبار في مئة حديث.

– الشيخ عبد الغني النابلسي، ثم الشيخ ملا علي القاري المتوفى سنة (1014هـ)، نقل الزركشي أنه ألف أربعين حديثا مخطوطة في الأحاديث القدسية وأهمها: كتاب الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية.

– كتاب الإتحافات السنية بالأحاديث القدسية للشيخ عبد الرؤوف المناوي المتوفى في (1025هـ) وعدد أحاديثه مائتان واثنان وسبعون حديثا (272) مرتبة على الحروف.

– كتاب الأحاديث القدسية الذي أعدته لجنة القرآن والحديث بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية يحتوي على أربعمائة حديث (400).

اللسانيات التداولية: لغة واصطلاحا

إذا أخذنا المصطلح الأول " اللسانيات " فهو مشتق من الفعل لَسَنَ.وفي لسان العرب:

2- رواه أبو داود والترمذي.
3- ينظر زكريا عميرات، الأحاديث القدسية الصحيحة، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1 ،1997، ص 100
4- سورة النحل، الآية 44.

لسَنَ: اللِّسَانُ:جارحة الكلام ، و قد يكنى بها عن الكلمة فيؤنث حينئذ .
قال ابن بري : هنا الرسالة و المقالة.

ابن سيده: واللسان المقول يذكر ويؤنث، والجمع أَلْسِنَةٌ، وأَلْسُنٌ.

وإن أردت باللسان اللغة أنثت، يقال فلان يتكلم بلسان قومه، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ ﴾[1]أي بلغة قومه.

اللِّسَنُ بكسر اللام: اللغة و اللّسَانُ: الرسالة...

ويقال: رجل لَسِنٌ بيّن اللّسِنِ إذا كان ذا بيان وفصاحة.[2]

واللسانيات في عرف الاصطلاح هي الدراسة العلمية للغة.

" وحسب جورج مونان George Mounin فإن أول استعمال لكلمة " لسانيات linguistique كان في سنة 1833....واللسانيات علم استقرائي موضوعي تجريبي ومنهجي،...ويعنى بالحقائق اللغوية القابلة للاختيار وبالمبادئ الثابتة،.." [3]

وكانت اللسانيات ومازالت تستقطب اهتمام الدارسين عامة واللغويين خاصة، ويذكردي سوسير " أن موضوع اللسانيات الصحيح و الوحيد هو اللغة في ذاتها ومن أجل ذاتها "[4] ، ويرى تمام حسان أن موضوع " اللسانيات " « هو اللغة باعتبارها نظاما للتواصل الإنساني سمعيا بالدرجة الأولى، وبصريا بالدرجة الثانية، ومن هنا تتعدد المجالات الداخلة في نطاق هذه الدراسة ».[5]

وقد تنوعت الدراسات في اللسانيات وتشعبت فروعها، ولا يمكن التفريق بينها إلا بإضافة صفة لكلمة " اللسانيات " لنحصل بذلك على اللسانيات التطبيقية. واللسانيات الاجتماعية واللسانيات النفسية واللسانيات التداولية وهكذا...

فما هي التداولية؟

جذرها دَوَلَ نجده في لسان العرب:

1- سورة إبراهيم، الآية 04.
2- لسان العرب، المجلد 05 ص 496.
3- تمام حسان، الأصول دراسة ابستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب، عالم الكتب القاهرة، 2000 ص 238.
= ذكر تمام حسان في كلمة" لسانيات " أنه في الندوة التي عقدت في تونس فبما بين 13 و19 ديسمبر1978 كان الاتفاق بين الحاضرين من المشتغلين بالدراسات اللغوية على تسمية علم اللغة باسم اللسانيات..
4- أحمد مومن ، اللسانيات النشأة و التطور ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ،ط1 2002،ص122
5- ينظر المرجع السابق ص 237.

دَوَلَ: الدُّولَةُ والدَّوْلَةُ،العُقبَةُ في المال والحرب سواء وقيل الدُّولَةُ بالضم، في المال والدَّوْلَةُ بالفتح في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما: يضمان ويفتحان الدَّوْلَة بالفتح في الحرب أن تُدَالَ إحدى الفئتين على الأخرى، يقال كانت لنا عليهم الدَّوْلَةُ، والجمع الدَّوْلُ، والدُّولَةُ بالضم في المال.

والدَّوْلَةُ: اسم الشيء الذي يَتَدَاوَلُ...

وفي حديث الدعاء: حدِّثْنِي بحديث سمعتَه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم يتداوله بينك وبينه الرجال، أي لم يتناقله الرجال وترويه واحدا عن واحد، إنما ترويه أنت عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –.

دَالَت الأيام أي دارت، والله يداولها بين الناس.

دَوَالَيكَ: ما تداولوا الأمر بينهم يأخذ هذا دولة وهذا دولة، وقولهم دواليك أي تداولا بعد تداول.

والدَّوَلُ:النبل المتداول؛ عن ابن الأعرابي أنشد:

يلوذ بالجود من النبل الدَّوَل [1]

هذا من الناحية اللغوية أما من الناحية الاصطلاحية فارتأيت قبل ذلك أن أعرج على توصيف طه عبد الرحمن لكلمة تداول يقول:« تداول الناس كذا بينهم » يفيد معنى "تناقله الناس وأداروه فيما بينهم " ومن المعروف أيضا أن مفهوم النقل و الدوران مستعملان في نطاق اللغة الملفوظة...فيقال: "نقل الكلام عن قائلة "بمعنى رواه عنه،..ويقال:" دار على الألسن " بمعنى جرى عليها،...فالنقل والدوران يدلان في استخدامهما اللغوي على معنى التواصل، وفي استخدامهما التجريبي على معنى الحركة بين الفاعلين،...فيكون التداول جامعا بين اثنين هما: التواصل والتفاعل فمقتضى التداول يكون القول موصولا بالفعل[2]

ويفهم من هذا القول أن مجال التداولية هو التفاعل والتواصل بين المتخاطبين وكل قول يتلفظ به هدفه إجرائي وتأثيري.

والتداولية مصطلح عربي، (أول من وضعه هو الدكتور المغربي طه عبد الرحمان أستاذ المنطق وفلسفة اللغة – كلية الآداب و العلوم الإنسانية بالرباط سنة 1970).

1- لسان العرب ،المجلد2،ص 432 .

2- ينظر طه عبد الرحمن تجديد المنهج في تقويم التراث المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ط2 ص 244.

يقابلــه فــي اللغــة الفرنســية Pragmatique ، وفــي اللغــة الإنجليزيــة Pragmatics وجــاء فــي موســوعة كمبريــدج تعريــف لهــذا المصــطلح باللغــة الإنجليزية كالآتي:

« Pragmatics: the study of the factors influencing a person's choice of language » [1]

أي إن التداولية هي دراسة العوامل التي تؤثر في اختيار الشخص للغة، ثم ينتقل تأثير هذا الاختيار في الآخرين عن طريق التواصل والتفاعل حسب قصد المرسل وحسب رغبة المتلقي.

كما وردت تعريفات عديدة في كتاب Pragmatics لمؤلفه لفنسون Levinson، منها: Pragmatics is the study of language usage

أي التداولية هي دراسة اللغة في الاستعمال.[2]

وله أيضا:

Pragmatics is the study of ability of language users to pair sentences with the contexts in wich they would be appropriate[3]

أي التداولية هي دراسة مقدرة مستعملي اللغة على ربط الجمل بالسياقات التي يجب أن تكون ملائمة لها.

وفي اللغة الفرنسية نقف على تعريف مختصر هو:

Pragmatique : domaine qui étudie l'usage que peuvent faire de la langue , des interlocuteurs en situation de communication[4]

التداوليــة هــي الميــدان الــذي يــدرس إمكانــات اســتعمال اللغــة مــن قبــل المتخاطبين في وضعية تواصل...

نستنتج من هذه التعاريف أن التداولية أصبحت تعنى بتحليل العلاقة بين النص ومستعملي اللغة، فهي تدرس الجانب الحي للغة، أي الجانب التواصلي،

1- Crystal Savid the cambridge encyclopedia of language . Cambridge University press.1989 P120

2- Levinson pragmatics p.24

3- Ibid P.25

4- petit larousse , librairie ,larousse Paris Edition 1980 P734

لأن هذا الجانب ظل مستبعدا من قبل اللسانيين الذين ركزوا في دراساتهم اللغوية على علم التراكيب Syntaxe، وعلم الدلالةSemantique، " فاللغة لا يمكن أن تنعزل عن استخدامها وتنحصر في علمي النحو والمعاني بل إن الاتصال يلعب دورا فاعلا إذا أردنا أن نفهم حقيقة اللغة ".[1]

ويضم الجانب التداولي دور المتلقي والمقام وغاية النص ونوع المعلومات المطروقة وسمات التفاعلInteraction، وكيفية التواصل Communication و الغرض منه.

وسأخصص الفصل الأول للبحث في جذور التداولية، ومصطلحاتها وأهم أقطابها.

1- ميجان الرويلي و سعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، الطبعة الثالثة 2002 ، ص 169.

ملحـق

يتضمن الأحاديث القدسيـة

الأحاديث القدسية

باب : الذكر و الدعاء

1- الحديث الأول:

– عن أبي هريرة –رضي الله غنه– قال النبي –صلى الله عليه وسلم: « يقولُ الله تعالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي،فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي. وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٌ مِنْهُمْ. وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً » متفق عليه

2- الحديث الثاني:

– عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– « إِنَّ لله تَعَالَى مَلاَئِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ الله تَنَادوا؛ هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ ، قَالَ : فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا .قَالَ : فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ، مَا يَقُولُ عِبَادِي ؟ قَالَ: تَقُولُ: يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيَحْمُدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ: فَيَقُولُ:هَلْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ: فَيَقُولُونَ: لاَ والله، مَا رَأَوْكَ. قَالَ: فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي ؟ قَالَ : يقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا.قَالَ: يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونِي ؟ قَالَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ لاَ وَالله يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا .قَالَ فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فيهَا رَغْبَةً .قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالَ: يَقُولُونَ مِنَ النَّارِ، قَالَ: يَقُولُ وَهَلْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ : فَيَقولُونَ لاَ وَالله يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا، قَالَ يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا ؟ قَالَ: يَقُولُونَ لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً. قَالَ: فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ أَنِّي غَفَرْتُ لَهُمْ قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ المَلاَئِكَةِ: فِيهِمْ فُلاَنٌ لَيْسَ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ، قَالَ: هُمُ الجُلَسَاءُ لاَ يَشْقَى جَلِيسُهُمُ » رواه البخاري

3- الحديث الثالث:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: « مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ القُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ » ثلاثًا، غير تمام، فَقِيلَ لأبِي هُرَيْرَةَ: إنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإمَامِ . فَقَالَ: اِقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ الله – صلى الله عليه وسلم – يَقُولُ : « قَالَ الله تَعَالَى : قَسَّمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَ بَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ العَبْدُ: " الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ " قَالَ الله تَعَالَى حَمَدَنِي عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: " الرَّحْمَن الرَّحِيم " قَالَ الله تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي، وَإِذَا قَالَ: " مَالِكُ يَوْمِ الدِّينِ " قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي، وَقَالَ مَرَّةً، فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي – فَإِذَا قَالَ: " إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ " قَالَ : هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ:" اِهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِينَ "، قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَ لِعَبْدِي مَا سَأَلَ » . رواه مسلم

4- الحديث الرابع:

-عن ابن عباس -رضي الله عنه – قال :« بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِي – صلى الله عليه وسلم – سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوْقِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: « هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَوْمَ، لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ تَنَزَّلَ إِلَى الأَرْضِ، لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلاَّ اليَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبْشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيتَهُمَا لَمْ يُؤْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ البَقَرَة، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلاَّ أُعْطِيتَهُ » رواه مسلم .

5- الحديث الخامس:

-عن أبي هريرة -رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال : « إِنَّ الله تَعَالَى يَقُولُ : يَابْنَ آدَمَ، تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي، أَمْلأُ صَدْرَكَ غِنًى، وَأَسُدَّ فَقْرَكَ، وَإِلاَّ تَفْعَلْ مَلأْتُ يَدَيْكَ شُغْلاً، وَلَمْ أَسُدَّ فَقْرَكَ » رواه الترمذي

6- الحديث السادس:

-عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ يَوْمَ القِيَامَةِ: اِقْرَهْ وَارْقَهْ، فَإِنَّ مَنْزِلَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَؤُهَا » رواه أحمد

7- الحديث السابع :

-عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: « إِذَا تَكَلَّمَ الله بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلسَّمَاءِ صَلْصَلَةً كَجَرِّ السِّلْسِلَةِ عَلَى الصَّفَا، فَيُصْعَقُونَ، فَلاَ يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيهِمْ جِبْرِيلُ، حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ، فَزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ. قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ ؟ فَيَقُولُ: الحَقّ ، فَيَقُولُونَ: الحَقَّ ، الحَقَّ » رواه أبو داود

8- الحديث الثامن :

-عن أبي سعيد الخذري – رضي الله عنه – قال : خَرجَ معاوية على حَلقة في المسجِدِ فقالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ فَقَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله . قَالَ: آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ ؟ قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ . قَالَ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ ، وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ الله – صلى الله عليه وسلم – أُمْلِ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي وَ إِنَّ رَسُولَ الله – صلى الله عليه وسلم – خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ. فَقَالَ « مَا أَجْلَسَكُمْ ؟ فَقَالُوا جَلَسْنَا نَذْكُرُ الله وَنَحْمُدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلإِسْلاَمِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا . قَالَ: " آلله مَا أَجْلَسَكُمْ إِلاَّ ذَاكَ " قَالُوا: وَالله مَا أَجْلَسَنَا إِلاَّ ذَاكَ، قَالَ " أَمَا إِنِّي لَمْ اَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ المَلاَئِكَةَ » رواه مسلم

9- الحديث التاسع :

-عن أبي سعيد الخدري – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – -يقول الربُّ- عزّ وجلّ -: « مَنْ شَغَلَهُ القُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ، وَفَضْلُ كَلاَمُ الله عَلَى سَائِرِ الكَلاَمِ كَفَضْلِ الله عَلَى خَلْقِهِ » رواه الترمذي

10- الحديث العاشر:

-عن أنس – رضي الله عنه – عن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: « يَقُولُ الله تَعالَى:أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ،مَنْ ذَكَرَنِي يَوْمًا،أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ»

رواه الترمذي

11- الحديث الحادي عشر:

عـن أبــي هريـرة – رضــي الله عنــه – أن رسـول الله – صــلى الله عليــه وسلم– قـال: « يَتَنَـزَّلُ رَبُّنَا تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى كُلَّ لَيْلَـةٍ إِلَـى السَّمَـاءِ الدُّنْيَا حَيْثُ يَبْقَـى ثُلُـثُ اللَّيْـلِ الآخِـرِ فَيَقُـولُ: مَـنْ يَـدْعُونِي فَأَسْـتَجِبْ لَـهُ، مَـنْ يَسْـأَلُنِي فَأُعْطِيَـهِ، مَـنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ » متفق عليه

12- الحديث الثاني عشر:

عن أبـي هريـرة –رضـي الله عنـه– قـال: قـال رسـول الله –صـلى الله عليـه وسـلم: « ثَلاَثَـةٌ لاَ تُـرَدُّ دَعْـوَتُهُمْ، الصَّـائِمُ حَتَّـى يُفْطِـرْ، وَإِمَـامٌ عَـادِل، وَدَعْـوَةُ المَظْلُوم، يَرْفَعُهَا الله فَوْقَ الغَمَـامِ، وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاوَاتِ ، فَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: وَعِزَّتِي لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِين » رواه مسلم

13- الحديث الثالث عشر:

عن أبـي ذرّ – رضـي الله عنـه – عن النبـي – صـلى الله عليه و سلم – يرويه عم ربه: « قَالَ ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَ رَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ ، ابْنَ آدَمَ إِنْ تَلْقَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا لَقِيتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً بَعْدَ أَنْ لاَ تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ إِنْ تُذْنِبْ حَتَّى يَبْلُغَ ذَنْبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ، ثُمَّ تَسْتَغْفِرُنِي، أَغْفِرُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي » رواه أحمد .

14- الحديث الرابع عشر:

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : جَاءَ رَجُلٌ وَالنَّبِيذُ – صلى الله عليه وسلم– فِي الصَّلاَةِ فقالَ: « الحَمْدُ للهِ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ، فَلَمَّا قَضَى النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم –الصَّلاَةَ قَالَ : أَيُّكُمْ القَائِلُ كَذَا وكَذَا ؟ قَالَ فَأَرِمَ [1] القَوْمُ، قَالَ: فَأَعَادَهَا ثَلاَثَ مِرَارٍ فَقَالَ رَجُلٌ : أَنَا قُلْتُهَا، وَمَا أَرَدْتُ بِهَا إِلاَّ الخَيْر، فَقَالَ النَّبِيُّ – صلى الله عليه وسلم – لَقَدْ ابْتَدَرَهَا اِثْنَا عَشَرَ مَلَكًا، فَمَا دَرَوا كَيْفَ يَكْتُبُونَهَا حَتَّى سَأَلُوا رَبَّهُمُ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَ: أُكْتُبُوهَا كَمَا قَالَ عَبْدِي » رواه أحمد

15- الحديث الخامس عشر :

1- أرم القوم : سكتوا و ذلك لظنهم أنهم ارتكبوا محظورا .

عن عبد الله بن مسعود – رضي الله عنه – أنه قال: « أَلاَ إِنَّ الله يَضْحَكُ إِلَى رَجُلَيْنِ، رَجُلٌ قَامَ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ مِنْ فِرَاشِهِ وَلِحَافِه وَ دِثَارِهِ، فَتَوَضَّأَ ثُمَّ قَامَ إِلَى الصَّلاَةِ، فَيَقُولُ الله – عزّ وجلّ – لِمَلاَئِكَتِهِ مَا حَمَلَ عَبْدِي هَذَا عَلَى مَا صَنَعَ ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا رَجَاءَ مَا عِنْدَكَ، وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدَكَ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي قَدْ أَعْطَيْتُهُ مَا رَجَا وَأَمَّنْتُهُ مِمَّا يَخَافُ... » رواه الطبراني

16- الحديث السادس عشر:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: « يَعْقُدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلاَثُ عُقَدٍ. يَضْرِبُ عَلَى مَكَانِ كُلَّ عُقْدَةٍ، عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ فَإِنْ اِسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ الله اِنْحَلَّتْ عُقْدَةً. فَإِنْ تَوَضَّأَ اِنْحَلَّتْ عُقْدَة فَإِنْ صَلَّى اِنْحَلَّتْ عُقْدَة، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وَإِلاَّ أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلاَن » متفق عليه

17- الحديث السابع عشر :

عن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – قال : « لَمَّا خَلَقَ الله عَزَّ وَ جَلَّ آدَمُ عليهِ السَّلاَمُ قَالَ: وَاحِدَةٌ لِي، وَوَاحِدَةٌ لَكَ، وَوَاحِدَةٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، فَأَمَّا الَّتِي لِي، تَعْبُدُنِي وَلاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا، وَأَمَّا الَّتِي لَكَ، فَمَا عَمِلْتَ مِنْ شَيْءٍ جَزَيْتُكَ بِهِ، وَأَنَا أَغْفِرُ، وَأَنَا غَفُورٌ رَحِيمٌ وَ أَمَّا الَّتِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ، مِنْكَ المَسْأَلَةُ وَالدُّعَاءُ ، وَعَلَيَّ الإِجَابَةُ وَ العَطَاءُ » رواه الإمام أحمد

18- الحديث الثامن عشر :

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– « مَنْ قَالَ – يعني– إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ – بِسْمِ الله تَوَكَّلْتُ عَلَى الله، لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله، يُقَالُ لَهُ كُفِيتَ وَوُقِيتَ وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيْطَانُ »

رواه الترمذي

19- الحديث التاسع عشر :

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال: « أَلاَ أُعَلِّمُكَ أَوْ قَالَ –أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ تَحْتِ العَرْشِ، مِنْ كَنْزِ الجَنَّةِ ؟ تَقُولُ: لاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِالله، فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ » رواه الحاكم

20- الحديث العشرون :

عن أبي الدَّرداء و أبي ذَرّ – رضي الله عنهما – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الله عزّ وجلّ – قال : « ابْنَ آدَمَ اِرْكَعْ لِي مِنْ أَوَّلِ النَّهَارِ أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ آخِرَهُ » رواه الترمذي

21- الحديث الواحد و العشرون:

– عن عبد الله بن أبي طلحة ، عن أبيه –رضي الله عنه– أن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– جَاءَ ذَاتَ يَوْمٍ وَ الِبْشُر يُرَى في وَجْهِهِ فَقُلْنَا: إِنَّا لَنَرَى البِشْرَ في وَجْهِكَ ؟ فقَالَ: « إِنَّهُ أَتَانِي مَلَكٌ، فَقَاَل: يَا مُحَمَّدْ، إِنَّ رَبَّكَ يَقُولُ: أَمَا يُرْضِيكَ أَنْ لاَ يُصَلِّي عَلَيْكَ أَحَدٌ مِنْ أُمَّتِكَ إِلاَّ صَلَّيْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا، وَلاَ يُسَلِّم عَلَيْكَ إِلاَّ سَلَّمْتُ عَلَيْهِ عَشْرًا » رواه أحمد

22- الحديث الثاني والعشرون :

– وعن ابن عباس –رضي الله عنهما– في قوله تعالى : ﴿ **فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ** ﴾

« قَالَ: أَيْ رَبِّ: أَلَمْ تَخْلُقْنِي بِيَدِكَ ؟ قَالَ: بَلَى .قَالَ : أَيْ رَبِّ أَلَمْ تَنْفُخْ فِيَّ مِنْ رُوحِكَ ؟ قَالَ : بَلَى قَالَ أَيْ رَبِّ أَلَمْ تُسْكِنِّي جَنَّتَكَ ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: أَيْ رَبِّ،أَلَمْ تَسْبِقْ رَحْمَتَكَ غَضَبَكَ ؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ تُبْتُ وَأَصلَحْتُ، أَرَاجِعِي أَنْتَ إِلَى الجَنَّة ؟ قَالَ: بَلَى » رواه البخاري

23- الحديث الثالث والعشرون :

عن عبد الله بن كنانة بن عباس بن مرداس السّلمي ، أنّأباه أخبره عن أبيه « أَنَّ النَّبِيَّ – صلى الله عليه وسلم – دَعَا لأُمَّتِهِ عَشِيَةَ عَرَفَة، فَأُجِيبَ: إِنّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ مَا خَلاَ الظَّالِمُ، فَإِنِّي آخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنْهُ، قَالَ : أَيْ رَبِّ ،إِنْ شِئْتَ أَعْطَيْتَ المَظْلُومَ مِنَ الجَنَّةِ، وَغَفَرْتَ لِلظَّالِمِ، فَلَمْ يُجَبْ عَشِيَةً ، فَلَمَّا أَصْبَحَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، أَعَادَ الدُّعَاءَ فَأُجِيبَ إِلَى مَا سَأَلَ، قَالَ: فَضَحِكَ رَسُولُ الله – صلى الله عليه وسلم – أَوْ قَالَ تَبَسَّمَ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرَ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ،إِنَّ هَذِهِ لسَّاعَةٌ مَا كُنْتَ تَضْحَكُ فِيهَا، فَمَا الَّذِي أَضْحَكَك ؟ – أَضْحَكَ الله سِنَّكَ – قَالَ: إِنَّ عَدُوَّ الله إِبْلِيسَ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ قَدْ اسْتَجَابَ دُعَائِي وَ غَفَرَ

لأُمَّتِي، أَخَذَ التُّرَابَ وَجَعَلَ يَحْثُوهُ عَلَى رَأْسِهِ، وَيَدْعُو بِالوَيْلِ وَالثُّبُورِ، فَأَضْحَكَنِي مَا رَأَيْتُ مِنْ جَزَعِهِ » رواه ابن ماجة

24- الحديث الرابع والعشرون:

عن أبي ذر – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: « يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَّالَمُوا يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلاَّ مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي، كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلاَّ مَنْ أَطْعَمْتُهُ، فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمُكُمْ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلاَّ مَنْ كَسَوْتُهُ، فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ. يَا عِبَادِي، إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرُ لَكُمُ، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ] وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ، كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا، يَا عِبَادِي، لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلاَّ كَمَا يَنْقُصُ المَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ البَحْرَ. يَا عِبَادِي، إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ، ثُمَّ أُوفِيكُمْ إِيَّاهَا، فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ الله وَمَنْ وَجَد غَيْرَ ذَلِكَ فَلاَ يَلُومَنَّ إِلاَّ نَفْسَهُ »

رواه مسلم

25- الحديث الخامس والعشرون :

عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: قالت قريش للنبي –صلى الله عليه وسلم–: أُدْعُ لَنَا رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلْ لَنَا الصَّفَا ذَهَبًا، وَنُؤْمِنُ بِك ! قَالَ –صلى الله عليه وسلم: « وَتَفْعَلُونَ ؟ » قالوا: نَعَمْ. قال: فَدَعاَ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ : إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ لَكَ:« إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ لَهُمْ الصَّفَا ذَهَبًا، فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْهُمْ عَذَّبْتُهُ عَذَابًا لاَ أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ، وَإِنْ شِئْتَ فَتَحْتُ لَهُمْ بَابَ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » قَالَ: « بَلْ بَابُ التَّوْبَةِ وَالرَّحْمَةِ » رواه أحمد

26- الحديث السادس والعشرون :

-عن أبي هريرة -رضي الله عنه -قال : سمعت النبي -صلى الله عليه وسلم- قال : « إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا فَقَالَ : رَبِّ أَذْنَبْتُ ذَنْبًا وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ فَاغْفِرْهُ فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذّنب وَيَأْخُذُ بِهِ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ أَوْ أَصَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ فقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رباً يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ ، غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله ثُمّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، وَرُبَّمَا قَالَ :أَصَاب ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ أَوْ قَالَ: أَذْنَبْتُ آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي فقَالَ : أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ » متفق عليه .

ملخص

تتضمن هذه المذكرة الموسومة بـ: " الأحاديث القدسية من منظور اللسانيات التداولية، الذكر والدعاء أنموذجا "، دراسة لإحدى النظريات في اللسانيات الحديثة وهي " التداولية "، وكيفية تطبيقها على الأحاديث القدسية، فاحتوت ثلاثة فصول؛ فصلا نظري، وفصلين تطبيقيين، بالإضافة إلى مقدمة ومدخل وخاتمة وملحق تضمن باب الذكر والدعاء .

تناولت في الفصل الأول نشأة التداولية وأصولها الفلسفية، وذكرت أبرز منظريها من فلاسفة ولغويين؛ مثل: بيرس، وجيمس، وموريس، وأوستين وسيرل وغرايس،...الخ، وأشرت إلى أن موضوع البحث فيها هو توظيف المعنى اللغوي في الاستعمال الفعلي، حيث تهتم بالعلاقة بين المرسل والمرسل إليه وتأثير الخطاب في المتلقين ومدى تفاعلهم معه، ثم ذكرت أهم المفاهيم التداولية كالإشارات، والافتراض المسبق والاستلزام الحواري، وأفعال الكلام والحجاج، وأشرت إلى بعض الملامح التداولية في التراث العربي .

أما الفصل الثاني فقمت بدراسة تحليلية لعينة من الأحاديث القدسية وفق التصنيفات الخمسة التي قدمها سيرل للفعل اللغوي حسب قوته المتضمنة في الفعل وهي: التقريريات والوعديات والأمريات والإيقاعيات والبوحيات باعتبار هذه التصنيفات قائمة على منهج علمي واضح.

أما الفصل الثالث فركزت فيه على دراسة الفعل الإنجازي الوارد في الأحاديث القدسية لأهميته في اللسانيات التداولية، فهو لبّها حسب رأي أوستين.

ثم ذكرت أهم خصائصه وما يدعم قوته من إشارات، كالتوكيد والشرط، والتكرار، والنداء، والقسم ...الخ، وبينت غرضه الذي يهدف إلى تحقيق نتائج عملية هذا ما ترمي إليه النظرية التداولية .